محمد الغزالي



كفاح دين

دار القلم
دمشق

كفاح دين

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

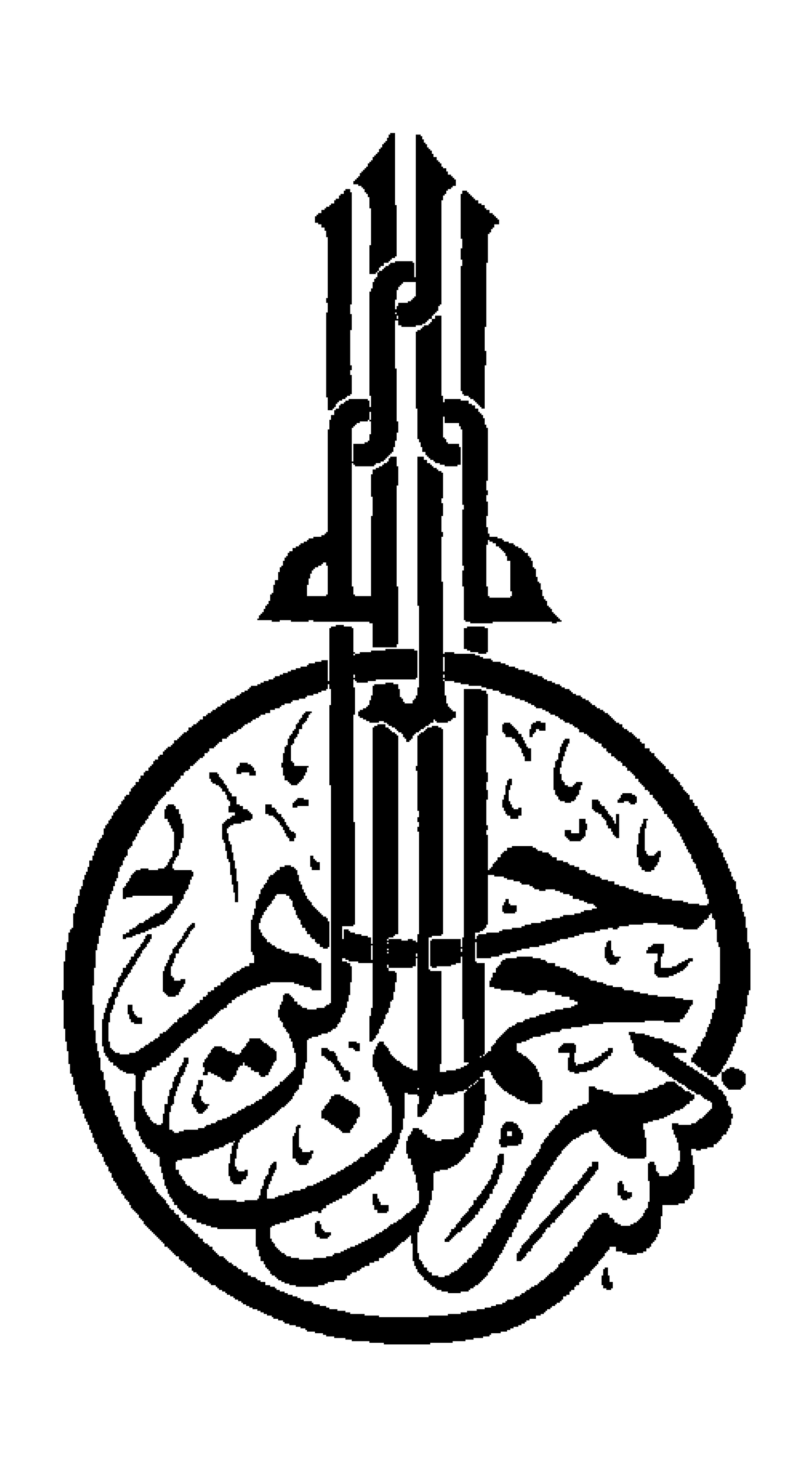
تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كفاح دين

محمد الغزالي

دار القلم
دمشق



مقدمة الطبعة الخامسة

منذُ بضع وثلاثينَ سنة صدر هذا الكتاب، وشقَّ طريقَه في زحام الحياة، وظهرت مِنْه سرّاً وعلناً طبعاتٌ شتَّى في أقطار العالم الإسلامي.

ويجدرُ بي أن أذكر حقيقةً تتصل بالطبعة الأولى منه، فقد أخبرني الناشرُ أنَّ المفتي الأكبر لفلسطين ـ سماحة الحاج محمد أمين الحسيني ـ أمرَ بشراء ألفِ نسخةٍ، وكلَّفَ (اللجنة العربية العليا لإنقاذ فلسطين) بإهدائها إلى مَنْ ترى..

وذهبتُ إلى المفتي المجاهد لأشكرَه، فقال لي: إنّكَ كشفتَ المحورَ الذي يدورُ عليه الاستعمار العالمي، وعرَّيْتَه من ألبسةِ الزور التي يستخفي فيها، وفضحتَ وسائلَه وسماسرتَه وأهدافَه.

وقد سبقك جمال الدين الأفغاني إلى تقرير هذه الحقيقة عندما قال: **إنَّ الغربَ لا يزالُ ينظرُ إلى الشرق الإسلامي بعين (بطرس الناسك)**[1]، وسريرتِه السوداء!! **وهي كلمةُ حقٍّ تحتاجُ إلى الشرح، وقد قمتَ به.**

ولم يطل في القاهرة بقاءُ القائد الإسلامي لثورة فلسطين! إذ سرعان ما جُرحت كبرياؤه، وأحرجت مكانته ـ بدسائس سوف نكشِفُها يوماً ـ فذهب إلى لبنان ليموتَ مستوحشاً مهزوماً، ولتتحوَّل قضيةُ فلسطين إلى ثورةٍ علمانيةٍ مبتوتةِ الصلة بالإسلام.

وفي تلك الأيام ثارت قبرص على إنكلترة لتتحرَّر من سلطانها، وتولَّى قيادة ثورتها (الأسقف مكاريوس) ولا عجبَ، فهو الوجه الديني للتمرّد اليوناني، ولم يرَ العربُ بأساً في الاعتراف به، والتنويه بزعامته، بل لقد جاء القاهرةَ وزار الأزهر!!.

---

(١) هو الذي جيَّشَ الجيوشَ وألهب النفوسَ لغزو العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري والتي سماها الأوروبيون الحروب الصليبية. (ن)

قلتُ في نفسي: لماذا رُفِضَ الوجهُ الإسلامي للثورة الفلسطينية، وقُبِلَ الوجهُ الدينيُّ للثورة القبرصية؟.

إنَّ للعلمانيين العرب منطقاً عجباً.

ومضت الأيامُ، وانقسمت قبرص، بعد ما شعر المسلمون فيها بالغُبن، وظلَّ الفلسطينيون إلى يوم الناسِ هذا يتصببون عرقاً في كفاحٍ يائسٍ! تُرى هل أفادتهم العلمانية شيئاً؟.

إنَّ إسرائيل تنمو، وحلفاءَها يزدادون ضراوةً! ولن يُرزق عرب فلسطين سهماً من نصر، إلا إذا عادوا إلى دينهم ظاهراً وباطناً، إنَّ النصرَ يبعدُ عن المسلمين قدر ما يبعدون عن دينهم[1]!.

وليس المهم أن تعود عمامة المفتي! إنَّما المهم أن يعود فؤاده وبصيرته، المهم أن نستندَ إلى الله ونحنُ نقاتل عدوه وعدوّنا.

بعد عشرات السنين من صدور هذا الكتاب أرى أنَّ اختلاف اللَّيل والنهار يؤيد التجارب التي ذكرها، والحوادث التي ساقها، والمبادئ التي أكّدها.

إننا لا نطغى وإنّما نحارِبُ الطغيان.

إننا نحتفظ بحقّنا في الحياة، ونكافحُ مَن يريدُ حرماننا منه!.

أهذا كثير؟ هذا هو كفاح دين!!.

دين يريد البقاء ويريد له خصومه الفناء ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠ ـ ١١٢].

محمد الغزالي

(١) هذا هو الشعب الفلسطيني المسلم يعود في انتفاضتيه المباركتين يستلهم القرآن ويقاتل تحت رايته وبهديه. (ن)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

أليس عجيباً أن يظلَّ الغربُ[1] ـ مع تفوّقه العلمي الظاهر ـ صريعَ أحقادٍ قديمةٍ وأفكارٍ بالية، وأحكامٍ يرسلها على الناس إرسالاً، لا يضبطها عقل، ولا يزينها ضمير؟! إنَّه مازال يخاصِمُنا دون وعي.

إنَّه ما فكَّر قطّ في تصحيح علاقتنا به على أُسسٍ كريمةٍ نقيةٍ.

إنَّه يتابعُ ـ في حماقةٍ ـ سلوكَ الأسلافِ في العصور الوسطى، فما يعمل إلا طالباً لثأر مزعوم، أو متحرّكاً بترةٍ يتخيّلها!!.

ومن ثَمَّ تبرزُ في سياستِه ضغائنُ صليبيةٍ مفتعَلةٍ لا تحتاجُ رؤيتُها إلى بصرٍ حديـد، فهي بادية كالحـة، تقطرُ سـمّاً على الإسـلامِ وأهلِه، وعلى العروبـةِ وجنسِها!!.

إنَّ هذه السياسة تتخذ من الإنسان النبيل (عيسى ابن مريم) عليه السلام تُكَأةً تعتمد عليها، وتتذرَّع بها إلى فعل الكثير.

وهي بهذه الشارة المجلوبة تحاول ـ مستميتةً ـ محقَ التراث الديني لرجل من إخوة عيسى، ومن أجلِّ شركائِه في شرحِ الحقّ، وهدايةِ الخَلق، ومكافحة الباطل، وإفاضة نعمةِ الله على جميع عباده، ألا وهو (محمد بن عبد الله) ﷺ، النبيُّ العربيُّ الكبير، وصاحبُ الرسالةِ التي أنارت العالَم بعد ظلمة، وآنسته بعد وحشة، وبذرت في أكنافِه أصولَ العدالة والمرحمة، واحتفظت في كتابها بمعالم الـوحي الإلـهي الذي آخى بين النبيين، وسوَّى بين الأمم، ونوَّه بقيمةِ الفِطرة، ومكانةِ العقل، وعَظَمةِ الكون، واستخلافِ اللهِ للإنسانية فيه.

---

(١) ويتولى كبر ذلك اليوم أمريكة وبريطانية. (ن)

لقد اطّلع الاستعمارُ على العالم بنيّةٍ مغشوشةٍ، ووجهٍ مشؤومٍ، ورمانا ـ نحن المسلمين ـ بأوزارِه الثقال.

وها قد مرّت سنونٌ طوال، والجهودُ دائبةٌ لمحوِ عارِه وغسلِ آثارِه.

وقد وصلنا اليومَ لمرحلةٍ عظيمة نحو الخلاص منه.

وفي أقطارٍ شتَّى من الشرق الأوسط والأدنى، نسمعُ أصداءً متجاوبةً تتحدَّث عن العروبةِ ويقظتِها وآمالها وحقوقها، كما نرى المدّ الاستعماري ينحسِرُ عن بقاعٍ شتَّى ظلَّ بها أمداً.

إنَّها حركةٌ ناجحةٌ، وإنَّ زحفَ الأحرارِ ليأخذ طريقه إلى الأمام.

وإعزازُ العروبة من شعائرِ الإسلام.

روى الترمذي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يا سَلمانُ، لا تبغضْني فتفارِقَ دينَكَ»**!

قلتُ: يا رسولَ اللهِ، كيفَ أبغضُكَ وبكَ هدانَا الله؟

قال: **«تَبْغضُ العربَ فتبغضُني»**![1].

وروى الترمذيُّ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ غَشَّ العربَ لم يدخلْ في شَفَاعتي، ولم تنلْهُ مَودَّتي»**[2].

فما مِنْ مسلمٍ إلا وله مِنْ دينه دوافع تجعله ـ ولو كان هندياً أو فارسياً أو تركياً ـ يحبُّ العروبةَ، ويحمي بيضتَها، ويصون حماها.

والعربي المسيحي، لن يكره جنسَه ما دام مستقيماً مع طبيعته!.

بل هو لن يكره محمداً ﷺ أو يَضيقَ بأتباعِه، إنَّه يؤمن بعبقريته إن لم يؤمن برسالته.

---

(١) حديث حسن غريب.

(٢) حديث حسن غريب.

وهو يتغنّى بأمجادِ قومِه، ودعائمِ حضارتهم إن لم يشركهم في صلاة، أو يصدقهم في اعتقاد!!.

وهنا يتدخَّل الاستعمار، أو مِنْ هنا حاولَ بَثَّ مكايده، وتأمين مآربه، وإشباع ضغائنه!!.

إنَّه من أمدٍ بعيدٍ يرتّب الأمور على النحو الذي يشتهي، ويحفر المسايل كي تجري الأفكار والمشاعر إلى الغايات التي حدَّها وداخل الشطآن التي أعدّها!!.

وما يبغي؟ يبغي القضاءَ على الإسلام!.

وفي سبيل القضاء عليه يجب أن تموتَ العروبةُ.

فإذا قدِّرت له أو لها حياة، فيجب أن يتدخَّل ليجعل الدينَ عنواناً بلا موضوع، وليجعلَ العروبةَ جسماً بلا روح.

* * *

والحقّ أنَّ ظهورَ القومية العربية ـ **مع تحفُّظِنا على هذه النزعة** ـ وانتصارها في أكثر من ميدان، كان مباغَتةً متعبةً للاستعمار، وعنصراً مُربكاً لخططه، فهي في ناحية الشكل عنوانٌ لا ينبغي أن يُخيف، لكنَّها من ناحية الموضوع **قد تقوم على موادة الإسلام ومواصلة أهله، وهذا ما يُغتاظ منه، ويُنتصب لمخاصمته، إنَّه يكره العروبة لأنّه يكره الإسلام.**

وهو لم يتوانَ في حربها أو يدّخر وسعاً في تقليب الأمور لها.

ومن الكذبِ على الله وعلى الناس الزعمُ بأنَّ الاستعمار لم يكن مدفوعاً في هذه العداوة بأسبابٍ دينيةٍ يُخفيها حيناً، ويبديها حيناً آخر، وفق الظروف التي تعرِضُ له!.

وأنا رجلٌ عربي الجنس، أدينُ بالإسلام، وهناك نصارى عرب لا يوافقونني في معتقدي، وأعرف أنّ القومية العربية تشملني وتشملهم، وأنَّ دائرتها تجمعني وإياهم في نطاق واحد.

وماذا في ذلك؟ وأيُّ ضيرٍ عليّ أو عليهم؟.

ليبقوا على دينهم ولأبقَ على ديني!.

لكنَّ الاستعمارَ يرفُضُ هذا، ويغتاظُ كما قلنا!.

إنَّه يريدُ القضاءَ على الإسلام، وإيصادَ الأبواب أمام معتنقيه.

وهو لو أبقى العروبة العامة، وبقي معها إسلامٌ عربيٌّ ومسيحيةٌ عربيةٌ، فإنَّ أمنيته الآثمة في الفتك بهذا الدين لم تتحقَّق.

فلا بدَّ إذن من القضاء على هذه العروبة، حتى لو كلَّف العرب المسيحيين أن يتخلَّوا عن جنسيتهم، ويبرؤوا من دمهم، ويفصموا الأواصرَ بينهم وبين ماضيهم وحاضرهم!.

وهم - في نظره - فاعلون!.

وقد أوعزَ الاستعمارُ إلى زبانيته، كي يدفعوا بالأوضاع العلمية والاجتماعية والسياسية إلى هذا المصير، وأدار مؤامراته في وادي النيل، وفي أقطار المغرب، وفي ربوع الشام لبلوغِ هذا الهدفِ الخسيس.

ووقع في أحابيله جمٌّ غفيرٌ من المسلمين والنصارى.

بَيْدَ أنَّ الأقدارَ الطيبة لا تزالُ معنا ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

ولستُ أحبُّ أن أخدعَ أحداً، ولا الخداعُ من شيمي.

إنّي أحبُّ العروبةَ، وأعملُ على إنجاحِ قضاياها، وإنصافِ أهلها، وتقديرِ رجالها لأنّني مسلم.

واستمساكي بديني لا يعني أبداً أن أحرمَ مواطني العربي - أيّاً كان دينُه - حقوقَ الوفاءِ والبرِّ والمودَّة الواجبة له، وأريدُ منه أن يعاملني بهذه القاعدة، لا يعدوها ولا يزيدُ عليها.

أما أن يُقال: دَعْ دينك فقد أصبح الكلُّ عرباً، فهذا هو اللَّغو السخيف.

وهذا ما يودُّ الاستعمارُ أن تنتهي الأمورُ إليه، حتى لا يكونَ إسلامٌ ولا قرآن!.

وقد أَلَّفتُ هذا الكتابَ لأنقّي الجوَّ العربيَّ من هذه النزعات، ولأقطعَ الطريقَ على ما تجيشُ به نفوسُ المستعمرين من وساوس، ولأنصفَ ديناً تلحُّ اللَّيالي على النَّيلِ من قداستِه، ولألقي أضواءً على الأمشاجِ الهائلة، التي تطفحُ بها دنيانا بعد ما بلونا فنوناً لا تُحصَى من الغزو الثقافي الجلي منه والخفي، بل بعد ما أفلحَ هذا الغزو في خلق أشباحٍ متحركةٍ تعمَلُ لحسابِه، وهي تدري أو لا تدري!.

قلت: إنَّ ظهورَ القومية العربية، وتسلُّمها زمامَ الأمر في مصر وسورية، وتردد صداها في كلِّ فجٍّ كان مفاجئةً بعيدةَ الأثرِ في السياسة العالمية من ناحيةٍ، وفي الأوضاع المحلية لدينا من ناحية أخرى.

ذلك أنَّه مسح ـ بين عشيّةٍ وضُحاها ـ كلَّ ما أثاره الاستعمار من نعراتٍ إقليمية ضيّقة.

وأنَّه أخرسَ المتهجّمين على اللُّغة العربية وآدابها، وردَّ إليها الحياة في عالَم التجارة والمال، وفي أنحاءِ المجتمع والدولة.

وأنَّه أنعشَ مقوّماتنا الخاصة، وتاريخنا وكياننا المادي الأدبي، واستعادَ ما سرقه الاستعمارُ من هذه الأمجاد.

وشيءٌ آخر أقولُه: إنَّ هذه القومية العربية ستحرّرُ الكنيسةَ الشرقيةَ من تأثيرات التوجيه الغربي المشوب، وتمكِّنُ المسلمين ـ كذلك ـ أن يعملوا بدينهم، وأن يحيوا وفقَ نظمه، وأن يعيدوا إليه المكانةَ التي اجتهدَ الاستعمارُ في إسقاطها، أو التي خلق أجيالاً لا تعترِفُ بها.

إنَّما تنطلقُ العروبةُ إلى غايتها الرفيعة برجالها الأصلاء، ورجالها الفاقهين لحقيقتها، المتجاوبين مع طبيعتها، اللابسين إشاراتها عن صدق واقتناع.

ونحنُ قد يتملَّكُنا الضحكُ الساخِرُ حين نجدُ في موكبِ العروبةِ نفراً من الناسِ يزعقون وينعقون دونَ وعي أو دونَ إخلاص!.

لقد بُوغتوا باسم القومية العربية، فإذا هم يمثّلون في نُصرتها الدورَ الذي مثّلوه في نُصرة غيرها أيام العهود السابقة.

إنَّ هناك صحافيين ـ لا تنقصُهم القحةُ ـ حيَّوا (فاروق) أجملَ تحيةٍ، ثم

حيَّوا من بعده (جمال عبد الناصر).

ومنهم مَن هزأ بالعروبة وجامعتِها، ودعا إلى المصرية الخالصة، وهو ـ الآن ـ باديَ الحماسِ في تأييد القومية، وتحية أبطالها.

وقد يكونُ في المجال متَّسعٌ للمنافقين والمخلصين على حدٍّ سواء، ما دام العملُ صحيحاً.

ونيَّاتُ الناسِ إلى اللهِ بعدئذٍ، فهو سبحانه الذي يجزيهم بما في قلوبهم.

هذا حق، وليس لنا أن نتدخّلَ في مكنونات السرائر.

لكنَّ الذي نخشاه، ونحذِّر منه، ونتوجَّس من عقباه على مستقبلنا، ذلكم الصنف من الناس الذي لا يعرف من العروبة شيئاً قطّ، إلا طنيناً يزعِجُ آذانه، أو يحرّك لسانه.

أما هو، فإنسانٌ خلقه الاستعمارُ القديمُ خلقاً، ملأ أقطارَ نفسِه وحسِّه، وشحنَه بقوى معيَّنة، فهو يدورُ بها وحدَها، كما تدورُ لعبةُ الطفلِ بعدما يملأ آلاتها، ثم تسكن بعد فراغها.

كيفَ يكونُ عربياً هذا المرءُ الذي انسلخَ من طبيعتِه وماضيه وقومِه الأوَّلين ولغته العريقة؟! فهو لا يُبدي رأياً في شيءٍ إلا كما علَّمه الأجانب، ولا يردّدُ كلمة في فمه إلا والإنكليزية قبلها أو بعدها، ولا تسمع له حكماً إلا إذا كان ترديداً لقولِ مستشرق. فإذا استقصيتَ منابع فكره لم تجد فيها ينبوعاً عربياً، وإذا تحسست آماله وآلامه، وجدته مبتوتَ العاطفةِ بإخوانه وجيرانه، ومع ذلك يقول: إنه عربي!.

إنَّ العروبةَ لو كانت زيّاً يُلبَس ما كلَّف نفسَه دفعَ ثمنِه! فكيف وهي حضارة، وآصرة، ولسان، وخليقة، ودعوى، وحقيقة؟!.

إنَّ أول ما نصنعُ لحمايةِ العروبةِ هي الضربُ على أيدي هؤلاء، وتأخيرهم من حيث أخَّرهم الله.

قال الدكتور (محمد البهي) في محاضرته عن (مستوى الكفاية الفنية) بعد

كلامٍ عن فريق من هؤلاء: «. . . أريدُ أن أخلصَ من ذلك إلى أنَّ الروحَ التي خلقَها الاستعمار البريطاني ونمَّاها على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً، لم تمت بقيامِ الثورة المصرية الحديثة سنة ١٩٥٢م حتى الآن، وكل ما للثورة من أثر في ذلك أنَّها جعلت أتباع (جون ديوي)[١] يتوارون خلف مبادئ الثورة ـ متظاهرين باعتناقها ـ ثم يدفعون ما بأنفسهم إلى الأمام، متّسماً بما يوائم طابعَ هذه الثورة في التوجيه العام».

ثم قال الدكتور: «إنَّ الإسلام لا يُهاجَم».

ونحنُ لا نريدُ من أتباعِ (ديوي) أن يتخلّوا عن مناصبهم في وزارة التربية والتعليم، ولا نطلبُ من الوزارةِ نفسِها أن تعفيهم من هذه المناصب، إنَّما نريد لأتباع (ديوي) في مصر أن يعيشوا في تفكير القرن العشرين، لا في تفكير القرن التاسع عشر، وهو تفكير (إسبنسر)، و(ديوي).

وأن يدركوا خصائصَ الثورة المصرية التي قامت منذُ بداية النصف الأخير من قرننا الحاضر.

إنَّنا نطلب إليهم أن يستقلّوا في التفكير التربوي، كما استقلّت مصر في عهد الثورة في سياستها الخارجية، وتخلّصت من جاسوسية شركة قناة السويس ونشاطها الهدَّام في مصر.

نطلب إليهم أن يدرسوا تراثَ هذا الوطن العربي الإسلامي، وأن يفهموه جيداً.

فإذا فهموه عرفوا أنَّ الإسلامَ لا يهاجمُ، كما هاجم بعض مفكّري المادية الغربية في القرن التاسع عشر الكنيسة الكاثوليكية.

إذا فهموه عرفوا أنَّ الإسلام لا يتّجِرُ بصكوك الغفران، ولا يقرُّ الوثنيةَ في أيةِ صورة.

---

(١) مفكر أمريكي فصل الدين عن مناهج الدراسة، لأنَّ الدين ـ الذي يألفه بداهة ـ ضد العلم. ويرى اختلاط الجنسين في مراحل التعليم كلها . . . وهو في نظر بعض المسؤولين رائدٌ لا يخطِئ، ولذلك يردّدون أفكاره هنا، ويحاولون نقلها إلى بيئتنا.

فلا يقرّ الوسيلةَ والتوسُّل، ولا يقرّ قداسة المفتي فيما يُفتي به، ولا عصمةَ المفسِّرِ لكتابِ الله تعالى.

إنَّه يدعو إلى التوحيد.

وما هو التوحيد؟.

إنَّه إلـهٌ واحد، وإنسانٌ واحد، ومجتمع واحد.

إذا فهموه عرفوا أنَّ الإسلام يدعو إلى العلم، وإلى الهداية! ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

إنَّه يؤيد العلم، إذا كان يقيناً، وحقّاً، وهداية! ولكنّه لا يؤيّد العلم ـ الذي هو ظنٌّ واحتمالٌ، لأنَّ الظنَّ لا يصلحُ للهداية ـ وإنما يصلح لها الحق وحده.

إنَّ أتباع (ديوي) يعيشون على أرضِ هذا الوطن غرباء، وآن لهم أن يدركوا مقوِّمات هذا الوطن العزيز، وتوجيه هذه الثورة العربية الحديثة.

ذلك إذا أرادوا تنظيمَ التوجيه، وإيجادَ وعي عربي سليم عن طريق التربية، والحقيقة أنَّ ذلك أصبح أمراً لا بدَّ منه.

فقد أصبحت كلماتُ (القومية العربية) و(الحياد الإيجابي) معالمَ بارزةً لاتّجاهنا السياسي، وتحديداً حاسماً لمواقفنا في أغلب القضايا العالمية.

ونحنُ سعداء بهذا الفهم الواعي لحاضرنا ومستقبلنا، ولكن يظهر أنَّ لهذه الكلمات دوياً في بعض الرؤوس يشبه دوي الصناديق الفارغة.

بل إنَّ البعض يجعلُ هذه الكلمات غطاءً لما رسب في ذهنه من بقايا الاستعمار، فهو أجنبيُّ القومية، غريبُ النزعة، عاجزٌ عن المواءمة بين ماضيه الذي أفسده الغزو الثقافي، وبين نهضـة البلاد إلى استعادة أمجادِها الأُولى، ووصل ما انقطع من حضارتها العظيمـة، وهو ـ لذلك ـ غيرُ محايد في فهمه للأمور، ولا في حكمـه عليها.

وسياسةُ عدم الانحياز التي تُشرِفُ على نشاطنا الخارجي لا وجود لها في النشاط الذهني لهؤلاء الذين تربّوا أمداً طويلاً على الإعجاب بالدروس المغشوشة

التي تركها الاستعمار في نفوسهم، فهم منحازون ـ فعلاً ـ إلى آراء سادتهم الأقدمين، يفكّرون بالعقول التي صنعها هؤلاء السادة فحسب!.

ومثل هؤلاء لا يؤمَنون على توجيه، ولا يوثَقُ بهم في لونٍ ثقافي، ولا يجوزُ أن نتركَ الأجيالَ المقبلةَ وديعةً بين أيديهم، فهم مفسدوها حتماً.

إنَّ رئيس الجمهورية.. صاحبَ فلسفة الثورة.. أوضحَ ـ بجلاء ـ أنَّ العروبةَ أساسُ الثورة.. وأنَّ الإسلام دين الدولة.

ومِنْ ثمَّ فكلُّ اتّجاهٍ لتغليبِ الطابع الأجنبي، أو تهوين الروح الديني، أو إضعاف الأدب العربي، أو تسويغ الانحلالِ الخُلُقي، أو تشويه التاريخ الإسلامي، يُعَدُّ خروجاً على الدستور، وتعويقاً لثورة البلاد.

إنَّ الزعم بأنَّ القومية العربية تعني إقصاء الإسلام، وإهمال شأنه، والزهادة في أصوله وفروعه، زعمٌ فاسدٌ قذرٌ[1].

وهو محاولة من الإنكليز السمر ـ أعني العلوج التي ربَّاها الاستعمار الأجنبي ـ لنفث سمومها في مجتمعنا، والمواءمة بين الأفكار الفاسدة التي تربَّت عليها، والنهضة العربية الحديثة التي صنعناها، والتي حققنا مكاسبها بدماء المؤمنين وحدهم!.

* * *

وهذا الكتاب للبناء لا للهدم، وللوحدة لا للفرقة.

لقد أظهرتُ فيه ما يقعُ للإسلامِ وأهلِه من أذًى حيثُ تنجَحُ سياسة الاستعمار في إقامةِ حكومات موالية لها.

وسيرى القارئ من فضائح الغلّ الديني ما يجعلُه يوقِنُ بضرورةِ إنهاء المآسي التي خلقها هذا الاستعمار اللعين.

ثم تتبَّعتُ آثار الاستعمار في البلاد التي أُكْرِهَ على الرحيل منها، وكيف أنَّه

---

(١) أما حقيقة ما جرى فانظره في كتاب (قذائف الحق) للمؤلف. (ن)

طوى بساطه من بعض الأراضي، ويقي ممدود الرواق في نفوسٍ لا تزالُ يحتلّها، ويلقي خيامه فيها!!.

وقد ذكرتُ أمثلةً موجزةً ونماذجَ منوَّعةً، فلستُ أملك الحصر والاستقراء.

وأسألُ اللهَ أن يجعلَ منه ذكرى نافعةً وبصيرةً لأولي الألباب.

محمد الغزالي

التعاون بين الإسلام والمسيحيّة

فكرتُ ملياً في النزاعِ القديم المطَّرد بين النصرانية والإسلام، ووددتُ لو استقرَّت العلاقة بين الدينين على دعائمَ إنسانيةٍ أرقى وأرقّ.

وتساءلتُ: أما من خطة قاصدة راشدة تتيحُ لأتباعهما أن يعيشوا أصفياء أنقياء؛ وإن اختلفت عقائدهما؟.

أما من خطة قاصدة راشدة تتيحُ لمبادئهما أن تلتقي في ميادين الحياة دون صدام يقدح الشررَ، ويلقّح الحروب؟.

أما من خطة قاصدة راشدة تنصف رسالات السماء، وتشرّف الضمير الديني، وتنفُثُ في روع الناس أنَّ الذين ينسبون أنفسهم إلى الله أصحاب سلوك يستحقّ الاحترام والإعجاب؟.

لستُ جانحاً إلى الخيال في هذا التمنّي، ولا بعيداً عن الواقع.

أنا أعلم أنَّ هناك نوعاً من التهجُّم عل الدين كلّه يجمع بين أقوام بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى - حسب تسمياتهم الموروثة - ويجعلهم مواطنين معتدلين.

لكنَّ هذا التجمّع في ظلال الانحلال وقلة الاكتراث بحقيقة الإيمان لا قيمة له عندي.

فالفراغ النفسيّ الذي يضم في دائرته ألوفَ الناسِ، ويشغلهم بأمر القوت وحده، ويجعلُ ما عدا ذلك نافلةً ساقطةَ الاعتبار - هذا الفَراغُ شرٌّ، يساوي أو يربو على شرور التعصّب الأعمى.

بل قد يكونُ التمسُّك الحاد بدينٍ ما أجدى من الانصرافِ المطلقِ عن الأديان كلها.

إنّني أبتغي خِطّـةً تجمع ـ على السماحة والمياسرة ـ بين مسـلمٍ يرى أنّـه موصول بـالله على أهدى طريـق، ونصرانيٍّ يـرى أنه يعرف الحق الذي جهلـه الآخرون . . . ومع ذلك البُعد في وجهات النظر فكلاهما ينأى في معاشرته للآخر عن الغدر والختل، والبغضاء والشحناء، بل كلاهما يقيم معاملته لصاحبه على الود والعدل، ويتمنّى له التوفيق والخير . . ! .

وفي المعاملات العامة بين الناس كثيراً ما نفصِل بين عواطفنا بإزاء شخص معيَّن وبين حكمنـا على أفكاره ومعارفه . . فنقول : فـلانٌ يعتقد كذا وكذا من الأخطاء الغريبـة، ومع ذلـك لا نبالي بما يسكن ذهنه من أغلاط، ونلتفت إلى السلوك العام فحسب، ثم نبني عليه شتَّى الصلات . .

إنَّني مستعدٌّ لمصادقة امرىءٍ يؤمنُ بأنَّ الأرضَ محمولةٌ على قرنِ ثـور ! ! ومستعدٌّ لموادة امرىءٍ يوقن بقداسة العجول، ونسبها الموهوم إلى الآلهة ! .

بل إنني أعتذر لشرود كثير من أصحاب العقائد الباطلة، وأقول في نفسي : وراثات كبَّلت عقولهم، وقيَّدت مشاعرهم، وما يمكن أن تنفكَّ قيودها، ولا أن تتقطّع حبالُها إلا على أزمنـة متراخيـة يسودها السلام، ويخفى منها العنـاد، وتنفصل فيها العقائد عن الملابسات التي تغري بالركون إلى جهلٍ، أو التنكّر لعلمٍ .

وأنا رجلٌ مسلمٌ وثيقُ الصلة بديني، راسخُ القدم فيه، عنيفُ الغضبِ لما يوجَّـه إليه من إساءات، مطمئنُّ القلب إلى أنَّ غيره من الديانات قد اعوجَّت بها السُّبُل، وأفلت منها الحق .

ومع إيماني التام بأنَّ النصرانية ـ مثلاً ـ تنطوي على أخطاء جسام في تصوّرها لله، وإنفاذها لحكمـه، وفقهها لأمره . . . مع ذلـك فلسـتُ أرى أبداً أنَّ طريق المعايشة السليمة ضيقة بأتباع الدينين، ولا أستغرب أبداً أن تقوم مودة صافية بين رجلين يؤمن أحدهما بأنَّ اللهَ واحد، ويؤمن الآخر بأنَّ اللهَ ثلاثة . . .

إنَّ الخلافَ العقليَّ في مثل هذه الشؤون لن تفصل فيه محكمةٌ تؤلّف اليوم أو غداً .

إنَّه خلافٌ سيبقى حتى يلقى الناسُ ربَّهم، وعندما تتلاقى كلُّ هاتيك الفروق المتنازعة، وتمثُلُ بين يدي الله، يومئذٍ ـ فحسب ـ يعرف المخطئ سِرَّ انحرافِه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠ـ٣١].

أجل.. وسوف يسمع الله هذا الاختصام، وسوف تترك الفرص كاملة ليدلي كلُّ فريقٍ بما عنده... لِمَ؟!.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩].

* * *

على أنَّ ذلك السلام المنشود بين أهل الأديان يتطلَّب أموراً لا بدَّ من إيجادها واستدامتها.

لعلَّ في أوّلها الاعتراف المتبادل بحقِّ الحياة الشريفة لأصحاب العقائد المتباينة...

ومنح كلِّ دينٍ الحريةَ المعقولة ليبين عن نفسه، ويذود عن معناه.

وتأمين الأتباع على أموالهم وأعراضهم ودمائهم، فلا يضارُّون في شيء منها لإيثارهم ديناً على غيره.

والجور على هذه المعاني وقعَ ولا يزالُ يقعُ بين الناس، لا بين أتباع الديانات المختلفة فحسب، بل بين رجال الدين الواحد، عندما تضطرب أفهامُهم في تفسير أصوله أو فروعِه!!.

ومرجعُ ذلك ـ في أغلب الأحيان ـ ليس المبالغة في إرضاء الله تعالى كما يعتقد الجائرون المتعصّبون، بل هو ضيق العقل، واستحكام الهوى، وقدرة النفس الإنسانية ـ للأسف الشديد ـ على إشباع شهواتها، وارتكاب مظالمها، وكأنّها تتقرَّبُ إلى ربِّها، وتقيمُ حقوقَه بدقّة وحماس!!.

ولنعد إلى الماضي البعيد نستبينُ أحداثه! وكم من مشابهة غريبة بينه وبين الحاضر القريب؟.

لقد ظهرت المسيحيةُ قبلَ الإسلام بنحو ستة قرون، وقامت باسمها حكومات مرهوبة الجانب، وافترق المسيحيون في فهمهم لطبيعة دينهم فِرَقاً كبيرة، تحوَّلَ النزاعُ بينها إلى صراع تُسفك فيه الدماء.

والاختلاف طبيعة البشر، والنزاع الداخلي بين أهل ملّة لا يعنيني كثيراً، وإنّما يعنيني هنا أنَّ النصرانية استقبلت الإسلام بصدر ضيّق، وأنَّها ما إن رأت الجماهيرَ تُقبِلُ عليه حتى قرَّرت اعتراضَ مسيره بالقوة، وإسكات دُعاتِه الذين يشرحون حقيقته، ويشرحون صدور الناس باعتناقه.

لقد نظر الرومان ـ وهم في ذلك العصر أصحاب السلطان باسم النصرانية ـ إلى الإسلام لا على أنَّه دين يعاون في هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بل على أنَّه منافِسٌ محذور النجاح.

كما ينظر التاجر القديم إلى مؤسسة جديدة مزوَّدة بأسباب النهوض والنماء، هو يرى امتدادها والإقبال عليها خطراً على كيانه وبقائه.

والنصرانية من هذه الزاوية معذورة في كراهيتها للإسلام.

بيد أننا نتساءل: أكلُّ جديد في ميدان العلم والمال والرأي والفقه ينبغي أن يصد عنه، ويُستباح حِماه، لأنَّ هناك من يكرهه ويضيق به؟! كلا.

فليترك المجال فسيحاً للتنافس المشروع، ولتترك العقائد المختلفة تستمدُّ حياتها وقداساتها من سلامة مبادئها، ومدى استجابة المؤمنين لها، وبقائهم عليها، دون ضغط أو قسر!!.

لكنَّ رجال المسيحية ـ كما سنرى من استعراض التاريخ في الماضي والحاضر ـ يأبون على الإسلام أن يحيا، ويرفضون في بغضاء عميقة أن يرتفع له لواء.

وخبثُهم الاستعماريُّ في هذا العصر تجديدٌ لسيرتهم الأولى أيام الرسول ﷺ وصحابته. لم تتغير فيه إلا الوسائل. أما الغايات والنيات فهي هي حذوكَ النعلَ بالنعلِ.

وكان من المستطاع لو صلحت المقاصد، وزكت الأهداف أن يقوم تصالحٌ على ترك العناصر المشتركة بين الدينين تسيرُ طليقـةً أو ـ على الأصح ـ تسـيرُ مدفوعةً بإخلاص الفريقين لها، ثم ينفـرد كـلٌّ بما اختصَّ بـه، يدعو إليه على حـدة دون اشـتباكٍ دامٍ مع الآخرين.

فمثلاً يجب أن ندعم جميعاً عقيدةَ الإيمانِ بالله واليوم الآخر، وأن نحارِبَ جميعاً دعوة الإلحاد والفساد.

ثم من حقّنا ـ نحنُ المسلمين ـ بعد ذلك أن نُفهِمَ الجميعَ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا ولد له ولا والدة، وأن تتاحَ لنا فرصُ الدعاية لما ندين به.

على أن تتاح هذه الفرص نفسها لمن يرون أنّ اللهَ مكوَّنٌ من ثلاثةِ أقانيم، كما تتكوّن الأصبع من ثلاث عقد. كل واحدة منها إلـٰه، وكلها كذلك إلـٰه.

ولا معنى لاستخدام السلاح في الاستدلال على شيء من هذا الكلام، أو في الإقناع به، ولا لإقحام الدولة في فتنة المؤمنين عما استراحت إليه ضمائرهم من هذه الخلافات والمذاهب.

وما يمكن التعاون عليه بإخلاص وصدق كثير، وما وقع من خلاف يعزّ على التفاهم، فلنفوِّض فيه الأمر إلى الله، ويجب ألا يكون ذريعة عدوان أو تحاقد أو بغي.

لقد استقبلت بهذا التفكير الدعوة إلى عقد مؤتمر مسيحي إسلامي.

وكان ـ من حُسنِ الحظِّ ـ أن حضرتُ جلساته التي انعقدت في الإسكندرية من بضع سنين.

وأحسـبُ أنَّ ألوف العقلاء يسـرّهم الوفاق بين طوائف البَشر، غير أنَّ الحوادث الرهيبة التي سبقت ولحقت هذا المؤتمر، وسير المناقشات فيه يجعلُني أتشاءَمُ من مستقبل العلاقة بين الدينين، ويجعلني أحاذِرُ من عودة الأمور إلى مجراها المؤسف القديم...

ولدتْ فكرةُ (التعاون المسيحي الإسلامي) في ظروف كئيبة، إذ إن أبناء

الإسلام كانوا يتلوَّون من الألم والأذى بعد الضربة الشائنة الموجعة التي نزلت بهم في فلسطين(1).

ألم تتآمر الدول النصرانية ـ كبراها وصغراها ـ على طرد العرب من ديارهم وأموالهم، وتتفق ـ في صفاقة نادرة ـ على توريث اليهود أرضَ الأحياء المقهورين، ثم تنتصبُ أعظمُ الأمم المسيحية على ظهر الأرض ـ وهي أمريكة وإنكلترة، وفرنسة ـ لإقرار ذلك الجور بقوة السلاح، وإعلان الاستمساك به وحمايته؟!.

ولـو كان ذلك العمل غفوةَ ضمير نام ثم استيقظ، أو زلّةَ قدمٍ سـقطت ثم تابت لقبلنا المعذرة.

فكيف وهذا العدوان الفاحش سبقه ولحقه التحدي والإصرار؟.

وبعد تسع سنين من وقوعه تستأنف إنكلترة، وفرنسة ـ ومعهما اليهود ـ الهجوم على مصر نفسها لإذلالها وإخماد أنفاسها(2).

فإذا أنجاها القدر الأعلى تدخّلت أمريكة لتزيد إسرائيل قوة على قوة، ولتفك الحصار الضئيـل المفروض عليها، فترسـل أسطولها الضخم ليجعل الملاحة في خليج العقبة ميسَّرة لليهود.

وأمريكة بهذا العمل تُشبعُ أحقاداً صليبية دفينة، وتفتحُ ثغرة في الكيان الإسلامي، إن استترت اليوم فستنكشف غداً.

إذ هي تـؤمّل في إذلال المسـلمين، وتهديـد مَوَاطِنهم في تلك البقاع الحساسة، وإليك نُبذاً من بيانٍ نشرته (الهيئة العربية العليا لفلسطين) يوضح هذه الحقيقة:

إنَّ المطامع الاستعمارية في خليج العقبة ليست حديثةً، بل هي قديمةُ العهدِ من زمن الحروب الصليبية.

فمن خليج العقبـة قامت حملة (البرنـس أرنـاط) ـ عام ٥٧٨هجريـة ـ

(١) وهي ما سُمِّيت بالنكبة وكانت سنة ١٩٤٨م. (ن)

(٢) وهو ما سُمِّي العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، إثر تأميم قناة السويس، وقد أبلى أهل القناة بطولات فذة وخاصة أهالي مدينة بورسعيد. (ن)

فهاجمت شواطئ البحر الأحمر على الجانبين الآسيوي والإفريقي، ونزلت في أرض الحجاز، حتى كادت تطرقُ أبواب المدينة المنورة لولا وصول حملة التأديب المصرية بقيادة الأمير (حسام الدين لؤلؤ) قائد أسطول مصر في عهد صلاح الدين، فقضى على حملة (أرناط) وأغرق أسطولها.

ولا نعدو الحقَّ إذا قلنا: إنَّ كثيراً من ساسة العرب وقادته المتناثرين بالنزعات التبشيرية ما زالت تسيطِرُ على نفوسهم وتصرّفاتهم روح العصبية المعادية للإسلام والعروبة.

وفي شأن خليج العقبة وتمجيدِ حملة (البرنس أرناط) ننقل هنا ما قال (الأب لامانس اليسوعي): «لفتَ خليجُ العقبة وموقعُ أيلة[1] أنظار البطل الصليبي أرناط، ولمس أهميته، فعمل على احتلال تلك البقعة، ونشر الرعب فيها بأسطوله، ولا شكّ أنّه ضرب مثلاً بإقدامِه وجرأتِه لجمعٍ كبير من أبطال الاستعمار الأوروبي، الذين جاؤوا من بعده وجاهدوا مثل جهاده، فهو الذي شَقَّ الطريقَ أمامَهم وهم نسجوا على منواله».

وفي عام ١٩٠٦م حينما كانت إنكلترة تحتلّ مصر، حاولت أن تنتزع العقبة وخليجها من الدول العثمانية، وتضمُّها إلى سيناء المصرية، التي كانت تحت حكمها وسيطرتها، وحدث من جرّاء ذلك نزاعٌ طويلٌ بين الدولتين انتهى بفشل إنكلترة.

على أنَّ إنكلترة ظلَّت تترقَّبُ الفرصَ لانتزاع العقبة وخليجِها إلى أن انتهزت فرصة سقوط الحجاز بيد الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٦م فعملت على ضمِّ العقبة إلى الأردن، الذي كان حينئذٍ تحت حكم إنكلترة وسيطرتها.

وقد اعترض على ذلك الملك عبد العزيز، وأبرق إلى الحكومة البريطانية باحتجاجه الشديد.

وقد بحث المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في مكة سنة ١٩٢٦م، وشهده مندوبون يمثّلون جميع الأقطار الإسلامية، مسألةَ العقبة وخليجها، وقرّرَ

---

(١) ويسمّى الآن إيلات. (ن)

بالإجماعِ وجوبَ بقائها كجزء من أراضي الحجاز، حرصاً على سلامة الأماكن الإسلاميةَ المقدّسة في مكة والمدينة المنورة، وصيانة لطريق الحج إلى بيت الله الحرام.

وتنفيذاً للخطط الاستعمارية البريطانية البعيدة المدى حرصت إنكلترة مدة احتلالها لمصر سبعين عاماً على إبقاء الخراب مسيطراً على شبه جزيرة سيناء المتصلة بخليج العقبة اتصالاً مباشراً، وجعلتها منطقةً عسكريةً مغلقةً تحت سلطة حاكم إنكليزي كان يمنعُ كلَّ محاولة لعمرانها، وزيادة عدد السكان المصريين فيها، لتبقى خاضعةً لسيطرة الاستعمار، وميداناً خالياً لتحقيق مطامع اليهود.

وفي سنة ١٩٤٩م كانت أم الرشاش (موضع إيلات) مخفراً للشرطة تابعاً لفلسطين، وبه مركز لشرطة البوتاس وأملاح البحر الميت.

ولكنّ الجنرال (كلوب) الذي كان يسيطر بجيشه عليها ـ حينئذٍ ـ أمر بإخلائها وتسليمها لليهود.

فكان من جرّاء ذلك أن تمكّنت إسرائيلُ من احتلال هذا الموقع الحيوي، واستطاعت الوصولَ إلى البحر الأحمر، وبناء ميناء إيلات في هذا الموقع الخطير.

* * *

فإذا تجاوزنا الاستعمار الصليبي في فلسطين، وأفاعيله الملتوية بأهلها وبنا جميعاً؛ وجدنا أمامنا صورة أخرى لأحزان موصولة السواد في الجزائر الذبيحة.

وهمجية الفرنسيين التي تمدُّها سائر دول الغرب لا ترضى إلا بإبادة المسلمين، وإحلال غيرهم مكانهم.

وقد رسموا سياستهم على هذا النحو، فلن يصدّهم عن إنفاذها إلا أن يهلكوا قبلها.

وفي جحيم الاضطهاد قد يرتدّ بعض المسلمين عن دينهم، ويتحوّلون إلى المذهب الكاثوليكي المسيحي، ومع ذلك فإنَّ عمى التعصّب وغليان الحقد، يفرضان في معاملة أولئك المنهارين سياسةَ احتقارٍ وإقصاءٍ، كأنَّ ظفرهم بالحياة بعد التحوّل المنكسر جاء على غير رغبة القوم.

إنَّهم ما كانوا يريدون لهم إلا الموت، الموت الذي أنزله الاستعمار الصليبي بسكان أمريكة وأسترالية الأصلاء، والذي يجبُ أن ينزِلَ بالعرب كذلك، **فلا ينجو منهم أحدٌ، وإن زعم أنه مسيحي!** .

مَن يدري لعلّه مسلم في قرارة قلبه، وما حمله على إظهار تنصّره إلا النجاة من الفناء؟!.. لقد قال ناقد فرنسي يشرحُ مسلك قومه: «والإحساسُ بالتفوّق المتأصّل في نفوس المستوطنين الفرنسيين ربا حتى بلغ حد (**مركب الاستعلاء**)».

واسمع إلى (أندريه جوليان) أستاذ تاريخ الاستعمار بجامعة باريس يصفُ أحوال المستوطِنِ الفرنسي في المستعمرات فيقول: إنَّه يمثّل القاهرَ الذي يُخشى بأسه، أو القادر الذي تُرجى حمايته، أو العدو الذي لا بدّ من صداقته.

ومما يؤكّد هذا التعصّب العنصري أنَّ الفرنسيين لم يغيّروا موقفهم من القلّة الجزائرية التي أفلح المبشّرون في تحويلها من الإسلام إلى الكاثوليكية؛ ففي مذكّرة رفعها المجلس الاستشاري بالجزائر سنة ١٩٠٣م طالب المستوطنون الفرنسيون ألا يُعطى (المسلمون الكاثوليك) الحقوقَ نفسَها التي يتمتَّع بها الفرنسيون الكاثوليك.

وهذه العبارة الغبية السمجة تعني بالمسلمين الكاثوليك: العرب المتنصّرين، فالإسلام هو العروبة، والعرب الذين تركوا دينهم تحت وطأة الاحتلال الفرنسي يجب ألا يتساووا مع السادة الأوروبيين.

وعندما دخل الأميرال (ستيفا) المقيم العام في تونس على (الباي) في أحد الأعياد، وقدَّم له كبار الموظفين لاحظ أنَّهم جميعاً فرنسيون، فعبَّر المقيم عن أمله أن يرى بينهم العام القادم بعض التونسيين..

فأجابه (ستيفا): إنَّ الفرنسيين وحدَهم هم الجديرون بالوظائف الكبرى.

ولما أُسّست المجالس البلدية في تونس، وتقرّر فيها تمثيل العنصرين ـ أي الفرنسي والتونسي ـ على النحو المجحف المعروف، رفض الفرنسيون الجلوس مع التونسيين في قاعةٍ واحدةٍ قائلين: **إنَّ القبعات لا تجلِسُ مع البرانس في مكانٍ واحد**.

والبرانس هي الزيّ الوطنيّ لعرب المغرب جميعاً.

* * *

في هذا الأفق المكفهرّ ظهرت فكرةُ التعاون المسيحي الإسلامي.

إذ إنّ الفكرةَ ـ على ما فيها من نبل وخير ـ اكتنفها ما يبعث على التساؤل العاجب، إن لم نقل التساؤل المنكر المدهش!!:

ماذا يبغي الضارب من المضروب؟ لماذا يقترِبُ منه ويتأبّط ذراعه؟ إلى أين يسيران يا تُرى وعلامَ يصطحبان؟..

هل كفَّ الظالِمُ يده، وواسى جراحَه، ثم جاء يستأنف خطة جديدة أساسها السماحة والتعاون والرضا؟!.

لا.. إنّ شيئاً من ذلك لم يكن.

إنَّ الأوضاع السياسية الجائرةَ مازالت آخذةً بخناق المسلمين، توشك أن تكتمَ أنفاسَهم، وتُجهِزَ على دينهم.

فأنَّى توجد صداقة مع هذه الحال؟!.

وكيف تفترض مودة أوهنتَ أنتَ حبالها؟!.

إنَّه من الاستهانة بكرامتي، بل من الاتّهام لإحساسي الماديّ والأدبيّ أن أرى الغرب المسيحي يضربني بعنف وهمجية، ثم يرتَقِبُ بعدُ أن أكون حليفاً منطوياً على ولائه، حريصاً على نصرته!!.

لذلك لم أستغرب لما رفض الجامعُ الأزهر أن يشارِكَ في هذا المؤتمر، ولم أستغرب لما رأيت كثيراً من الهيئات الإسلامية تثيرُ الرِّيَبَ حول مقاصده ومراميه..!!.

لكنَّ نفراً من خيارِ المسلمين اختار أن يذهبَ، وأن يقولَ ما عنده، وأن يصارحَ رجال المسيحية بما لديه..

إنَّ النزاع القاسي المتطرّف بين النصرانية والإسلام ينبغي أن يقفَ عند حدٍّ، والوقود الذي يُشعل النار في ذلك الخلاف من الخير أن ينطفئ.. وإنها لخطوة طيبة أن يفكّر نفرٌ من النصارى في ذلك.

وسواء أكان الدافع نقياً كما نحبّ، أم سياسياً كما يشجّع البعض، فإنَّ هذا التلاقي فرصة يمكن استغلالها لمرضاة الله، وتجنيب عباده ويلات التجهّم والتعادي.

ولا شك أنه عندما تتحدّد الوسائل، وتُرسم الخطوط، التي ترى الديانتان كلتاهما أنها أدنى إلى تقوى الله، وإقرار النُّصفة بين أتباعهما، فإنَّ أطماع الحكَّام، وحماس الجُهَّال، وقصورَ العوام، لن يكونَ له كبيرُ أثرٍ في إشعال حربٍ باسم الدين، والدين منها براء.

ثم إنني ـ شخصياً ـ أعرفُ أنَّ الإسلام تحمَّل مظالم ثقيلة من عداته، وأنه لا معنى لطيّ الإساءات التي نالته ما دمنا في معرض التصافي والعُتبى..

ولن أنكصَ عن شهود مجلس قصارى ما أطلبه فيه الحرية الدينية، الحرية التي اغتالها جمهورٌ كثيف من آباء الكنيسة أول الدهر، ولا يزالون يغتالون إلى هذا اليوم، ويستكثرونها على الإسلام وعلى أتباعه في المشارق والمغارب.

نعم.. إنَّ مكمن الداء هنا.

هل المسيحيةُ ترضى أن يعيشَ الإسلام إلى جوارها؟.

إنَّ رفضها وجودَ دين التوحيد بجانبها هو سِرُّ القتال الذي خاضه المسلمون الأولون استنقاذاً لحياتهم، واستبقاءً لجوهر الإيمان الذي ارتضوه لأنفسهم..

ثم هو سر حروب التحرير التي تدور رحاها الآن لتطهير أرض الإسلام من الفتَّانين والفتَّاكين، الذي طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد..

إنَّ المسيحيةَ ضنَّت على بعضها بهذه الحرية، وذكرى المذابح التي نصبها الكاثوليك لخصومهم لا تزال باقية.

أفكان الإسلام يظفر بخير من هذا المصير وهو يرى المسيح بَشراً رسولاً، بينما كانت الكنيسة تفتك بمن يرى أنه إلـٰه فيه طبيعة بَشر؟!.

إننا مصرُّون على توطيد أركان الحرية الدينية، ووضع سدود غلاظ أمام البغضاء التي أتعبت أسلافنا الأقدمين، وأرهقتنا ـ نحن المسلمين ـ في هذه الأيام الكالحة.

إنَّ حقد الصليبية على الإسلام وأهله مشكلةٌ يجبُ أن تُحَلَّ، وحلُّها في مؤتمرات السلام أولى من حلّها في ميادين القتال، وفي هذه المؤتمرات يجمل أن نتصارح.

لنقل للنصارى: ما الذي يريبكم منا لنتركه؟ ما الذي يهيجكم علينا لنبتعد عنه؟.

اطلبوا كلَّ شيء إلا أن ندع ديننا، فإنكم إن أصررتم على هذا الطلب المنكر لن تجفَّ مِنَ الأرض الدماء.. ووزرها عليكم لا علينا.

* * *

تفرّستُ في وجوه الأعضاء المجتمعين بفندق (سيسل) بالإسكندرية، ثم خامرني إحساسٌ بالطمأنينة، كان هناك قساوسة يبدو على ملامحهم الجد، وشبابٌ مثلي في حركاتهم مرحٌ وقوةٌ. ونساءٌ خطَّ المشيبُ رؤوسهنّ، ومازلنَ مقبلاتٍ على الدرسِ والبحثِ. وخليطٌ من الشرق والغرب مختلِفُ العقيدة واللسان.

بيد أن حُبَّ الخيرِ المطلَقِ ظاهرٌ عليه.

لم أشعر ـ والحق يُقال ـ أنني مع عملاء للاستعمار كما انطلقت بذلك الإشاعات.

نعم.. قد يكون لأمريكة غرضٌ من وراء هذا المؤتمر. ولو صَحَّ هذا ما تأخرتُ عن حضوره، فمن يدري؟.

ربَّما كان الأمرُ كما قال أحد السَّلف: طلبنا العلمَ لغيرِ اللهِ فأبىٰ اللهُ إلا أنْ يكونَ له.

إذا كان للساسة مأربٌ من وراء التقاء رجالٍ يمثّلون المسيحية والإسلام، فإنَّ هذا الالتقاءَ يجبُ أن يتمَّ على أي حال، ويجبُ أن يتمخّض عن خيرٍ تهشُّ له الألوف المؤلَّفة في المشارق والمغارب من المسلمين والنصارى.

إنَّ هذا اللقاء لو نُظِّمَ وتعلَّقت بنتائجه القلوبُ، فإنَّ القضايا التي يعالجُها قد تخفّف ـ إن لم تحسم ـ شروراً كثيرة.

أيّاً ما كان الأمر فإنني أُطلِقُ القولَ كمسلمٍ فاقهٍ لدينه، محِبٌّ للهِ ورسلِه، رقيق القلبِ لجميع عبادِه: إنَّ هذه المؤتمرات يجبُ أن تُشجَّعَ، وأن يُكترَثَ لها، وأن تُبذَلَ المحاولاتُ الجاهدةُ كيما تُثمِرَ السلامَ للناس، وأعني بالسلام: السلام الشريف الذي لا يحمِلُ على أحدٍ ضيماً، أو يلزمه عاراً.

وأنا هنا لا أقصُّ ما قيل في المؤتمر المسيحي الإسلامي، المنعقد بالإسكندرية في دورته الثانية. وإنَّما أتعرَّض فحسب لما يتَّصل بموضوع هذا البحث، فإنَّ توفير الحرية الدينية كان لا شكّ من أهم الأهداف التي ناقشها المجتمعون.

ويظهر أن الدكتور (هتشنسون) الأمريكي، كان يائساً كلَّ اليأس من حصانة الضمير الديني، ومتشائماً كلَّ التشاؤم من تسليم أزمَّة الحكم له.

ولذلك دعا ـ بقوّةٍ وحرارةٍ ـ إلى فصل الدين عن الدولة، رائياً أنَّ ذلك هو الضمان الوحيد لتوطيد الحريات العامة، وأنَّه كذلك هو السياجُ القويُّ لمنعِ الاضطهادِ الديني.

والدكتور الفاضل يرى أنَّ أمريكة ـ يعني الولايات المتحدة ـ لا يصحُّ أن تسمّى دولةً مسيحيةً، وإن تكوَّنت من أتباع لهذا الدين، فإنَّ انفصال الدين عن الدولة قائمٌ أو يجبُ أن يقومَ. . . وهذا الكلامُ نرضى بواعثه، وننكِرُ وسائلَهُ.

فإنَّ فصل الدين عن الدولة نغمةٌ وُلِدَتْ في الغرب للخلاص من القيود الكنسيّةِ على حريّة العقل والضمير، ثم نُقِلت إلى الشرق كي تمهِّد العقبات أمام الزحف الاستعماري، وتهدِمَ قلاعَ المقاومة الهائلة التي ثارت في وجهه.

أي أنها كلمةٌ قيلتْ هناك للحدّ من طغيانِ رجال الدين الكنسي، وتُقالُ هنا لهدمِ دينٍ كامل، والإتيانِ على بنيانِه من القواعد.

وقد قيلت هناك وبقيت روحُ الغربِ المسيحيّ تعمَلُ عملها في الكيد لنا، وتمزيق شملنا، ثم قيلت هنا لنقبَلَ هذا الكيد، ونستكينَ لهذا التمزيق.

والدولُ التي زعمت أنَّ الدينَ منفصِلٌ عنها، هي بعينها الدولُ التي تهيّجُ الفتنَ في العالم الإسلامي، وتنبعثُ في سياستها عن تعصُّبٍ مقيتٍ ضدّه.

ولو نفخنا الأغشية الرقيقة التي تخفي الأساليبَ العسكرية والمدنية والثقافية في معاملاتنا لوجدنا لإنكلترة وفرنسة وأمريكة وغيرها وجهاً صليبياً كالحاً، يقدحُ بالشرر، ويتميّز بالغيظ.

إنَّ تأمينَ الحريات الإنسانية، وفي مقدّمتها الحرية الدينية، لا يتأتّى بفصل الدين عن الدولة على النسق الذي عرفناه في دول الغرب صُغراها وكُبراها، فإنَّ هذا الفصلَ المزعومَ كان أكذوبةً كُبرى، وترويجُه في أقطار الشرق الإسلامي خدعةٌ رديئةٌ، لا تغيبُ دلالتُها عن بصير، وإن اشتغلت بذلك صحفٌ ومجلاّتٌ، واحتشدَ أدباءُ مغرورون أو مأجورون.

إنَّ الإسلامَ أرحبُ الأديانِ حضارةً، وألينُها عريكةً، وأرحمُها معاملةً، وأحناها على مخالفٍ وجاهلٍ.

وإذا كان يؤخَذُ على المسلمين شيءٌ فهو أنّهم أشدُّ إحساساً بمطالبِ غيرِهم من إحساسهم بمصالحهم الخاصة.

وأنهم في عنايتهم بمخالفيهم قد يهضمون أنفسهم كالفقير الكريم يجود بما لديه وأهله أحوج إليه.

وقد اتّسع العقل الإسلامي لضروب من الخلاف والجدل وصلت إلى مرتبة الإسراف.

واتّسع الضمير الإسلامي لقبول ألوانٍ شتّى من الخصومات، فما عكرت صفوه، ولا غضّنت وجهه.

ومن ثَمَّ نتجاوب أوسعَ التجاوب وأتمّه مع الدكتور (هتشنسون) حين يقول: إنَّ الحرية الدينية أهمُ ركنٍ في حرية الأفراد، كما أنَّها إحدى الأسس المهمة التي قامت عليها الديمقراطية.

ولكننا نرى الآن أنَّ الحرية الدينية قد حُدِّدت لدرجةٍ لا يمكن مقارنتها بأي قرنٍ من القرون الماضية، كما ازداد الآن عدد الدول التي لا يتمتَّعُ أهلها بحرية العبادة، وإقامة شعائر دينهم أكثر من أي وقت مضى، فإذا كانت هذه هي الحقيقة ـ أو بعض الحقيقة ـ فلقد أزف الوقتُ الذي يجب أن نبحث فيه هذا الركن الخطير من الحرية الإنسانية.

وقبل أن نتعمَّق في هذه الناحية يجب أن نحدِّد مصطلحاتنا:

فالحرية الدينية تعني حقّ كل فرد في عبادة ربّه بأي طريقة يختارها، طالما أنّه لا يعتدي على حرية وأمن الآخرين.

لكلّ فرد الحق في أن يتّبع أي عقيدة دون أن يتعرضَ لعقاب قانوني، أو خسارة اقتصادية، أو تفرقة اجتماعية، أو أي عقوبة أخرى.

إنَّه يتضمّن أيضاً حقّ الفرد ألا يؤمن بأي عقيدة.

إنَّه الحق في أن يقومَ الفردُ بتعليم دينه للآخرين إذا اعتقدَ بأنَّه الطريق إلى الله وإلى الخلاص.

إنَّه الحق في أن يعارضَ أيةَ عقيدة طالما أنَّ معارضته ستكون عن طريق الإقناع لا القوة.

إنَّه الحق في أن يتّبع تعاليم دينه لخدمة الإنسانية.

إنّه الحق في أن يتقرَّب الفرد إلى الله بالطريقة التي يفهمها هو أو يبتعد عن الله إذا اختار ذلك دون أن يتعرَّض لأي عقاب أو تقييد اجتماعي، أو سياسي، أو اقتصادي، أو قانوني.

والسؤال الذي نوجهه للنصرانية هو: هل احترمت في ماضيها الحرية بهذا المعنى الشامل وذلك الإصلاح الرحب؟.

وإذا كانت لم تفعل ذلك في الأمس القريب أو في الأمس البعيد، فهل تنوي أن تقيمَ صِلاتِها بالأديانِ الأخرى في الحاضر والمستقبل على هذه الأسس؟.

إننا قبل أن نجدَ إجابةً على هذه الأسئلة المتمنية، يجبُ أن نقطعَ الطريق على مزاعم المستعمرين وعملائهم ممّن يريدون تزييف التاريخ لحساب دينٍ بعينه.

فلنقل هنا كلاماً للدكتور (هتشنسون) نفسِه يلقي ضوءاً على الموضوع، ولنلفت النظر إلى ثلاث نقاط بارزة في ذلك الكلام:

١ ـ إنَّ الكنيسة انتحلت لنفسها سلطة الإشراف على الدولة، وتسيير دفة

الحكم، وذلك خلاف ما توحي به النصوص الدينية عند القوم.

٢ ـ إنَّ هذا التسلّطَ استُغِلَّ استغلالاً سيئاً في الاضطهاد والفتنة وإشاعة الأهواء والمظالم.

٣ ـ إنَّ بناءَ الإيمانِ لم يلزم خطة الإقناع والمنطق، بل جنحَ الكهنةُ فيه إلى القسر وإذلال الخصوم. قال الدكتور الفاضل:

«كتب (البروفيسور جريدو دي روجيريو) ـ وهو كما أعتقد أحد كبار المؤرِّخين الكاثوليك ـ يقول في (دائرة معارف العلوم الاجتماعية): إنَّ المسيحية هي القوة الفعّالة التي وقفت ضد صراع العالم البشري للحصول على الحرية الدينية. إذ إنَّها زادت من قوة العناصر التي تشجّع على عدم التسامح، والتي جاءت ضمن التراث العبري، بل أضافت إلى تلك العناصر إدخالَ عدّة دوافع جديدة قوية، وهي فكرةُ نشر رسالة موحدة في العالم، ونشر بعض التعاليم التي لا تقبل المناقشة. وغرس فكرة أنّ الكنيسة هي همزة الوصل بين الخالق والإنسان».

ثم قال: «إنّني لا أعتقد ـ كما سأبيّن فيما بعدُ ـ أنَّ هذه هي الأسباب، ولكن البروفيسور (روجيريو) على حق في أنَّ المسيحية كانت القوّةَ الفعالةَ على مدى التاريخ ضد تحقيق الحرية الدينية، وفي الوقت نفسه تحوي المسيحية بين طياتها أعظم التعاليم التي تدعو إلى حرية الإنسان، أي المسؤولية المباشرة للفرد أمام الخالق.

وعلى ذلك فهناك صراع قوي في المسيحية بخصوص مشكلة الحرية الدينية، وهو الصراع الذي أشعر بالأسف حين أقول: إنَّه لم يعضد في أنحاء العالم ليحقق الحرية، ولن يسمح لي المجال لكي أؤرخ ذلك الصراع. ولكن المسيحية ـ مثلها في ذلك مثل أي شعب من الشعوب ـ كانت تنادي بالحرية حين تشعرُ بالاضطهاد، ولكنّها تنكرُ الحريةَ على الآخرين حين النصر».

ثم قال الدكتور: «لقد حمل المسيحيون الأوّلون في القرون الأولى شعلة الحرية الدينية، كما أنَّ كثيرين منهم لاقوا حتفهم شهداء في أثناء الاضطهاد، ولكنَّهم أصبحوا متعصّبين وقساة بعد أن قويَ ساعدُ المسيحية واشتدَّ أثناءَ حكم قسطنطين وبعده.

وبعد قرار عام ٣١٣م بسبع سنوات صدرت عدة تقييدات ضد الحفلات الدينية الخاصة التي قام بها الوثنيون، وضد العمل أيام الآحاد، إذ اعتُبِرَ كلُّ مَنْ يعمل يوم الأحد كافراً، وكذلك ضد هذه أو تلك المعتقدات أو التعاليم الدينية المخالفة.

ولقد طلب (نسوريس) من الإمبرطور (ثيودسيوس) إصدارَ ثمانية وستين قانوناً ضد الوثنيين، وعلى الرغم من احتجاجات (الكوين) رجل الكنيسة العظيم، تمَّ تنصيرُ (السكسون) بالقوة وإراقة الدماء.

وفي عام ٤٢٣م بدأ اضطهاد اليهود، وأخذ يزداد بانتظام، حتى قرر مجلس وزراء طليطلة بطلانَ أعمال التعذيب.

ونستطيع أن نكمل تلك القصة في عصرَي الاضطهاد والإصلاح، فنجد المصلحين البروتستانت يناضلون في سبيل الحرية الدينية، بينما يقومون في الوقت نفسه باضطهاد مَنْ يعتبرونه وثنياً.

ونجد البروتستانت الإنكليز يقومون بتعذيب الكاثوليك، والكاثوليك يضطهدون البروتستانت، والمهاجرون الذين ذهبوا إلى أمريكة في سبيل الحرية الدينية قاموا بتعذيب الوثنيين الذين بين ظهرانيهم.

إنَّها قصة حزينة تركت آثارها في حياة كثير من الأبطال مثل (أوجستين) و(جيروم) و(لوثر) و(كلفن)، وكثيرين غيرهم الذين ناضلوا في وقتٍ ما في سبيل الحرية الدينية، بينما أنكروها على الآخرين في وقتٍ آخر».

* * *

وما ذكره الدكتور عن التعصب الصليبي إشارة خفيفة أو قطرةٌ من بحرٍ بالنسبة إلى ما سجَّله التاريخ من مآسي القوم.

والشيءُ الذي لا تنقطعُ الدهشةُ منه هو ما يظهرونه من براءة وشرف بعد اقتراف أشنع الجرائم.

فالإنكليز الذين احتلّوا مساحاتٍ من أقطار الأرض الفسيحة تزيدُ على سبعين ضعفاً من بلادهم يسمّون الجهاز العسكري الذي صنع هذا وزارة الدفاع، أما دولة الأردن التي تعيش على إعاناتٍ من هنا وهناك فلها وزارة حرب!.

لله ما أغرب خداع العناوين في هذه الدنيا.

رئيس وزراء فرنسة يقول: «إننا نعتبر الجزائر كالأندلس، ونعدُّ عربَها فرنسيين ونقاتلُ دون هذا». فإن قاوَمَ أصحابُ البلاد هذا الفجورَ السياسيَّ السمجَ قيل لهم: **أنتم متعصّبون!**.

وعندما كافح شعب لبنان محاولات المارونيين محوَ الطابع العربي عن بلادٍ تسعةُ أعشارها عربٌ، وسبعةُ أعشارها مسلمون قيل له: أنت رجعي، أنت متأخر، أنت متعصّب!.

لماذا؟ لأنَّ كثرةَ الأهلين في لبنان إن لم يخضعوا للقلّة الموالية لفرنسة وإنكلترة وأمريكة، والتي تريدُ إثبات الطابع الصليبي للبلاد بالقوة، فهم متّهَمون بالتعصّب! أمَّا أذناب الغربِ وأشياعُه فهم فوق التُّهم!.

إنَّ للتعصُّب الصليبي صوراً لا حصرَ لها، وإثارات تخلقُ ردَّ الفعلِ عاتياً قاسياً، وسنرى من ذلك أمثلةً شتَّى.

والدكتور يرى أنَّ التعصُّبَ ـ عموماً ـ ينشأُ من تسلُّط الدين على الدولة فيقول: «إنَّ السبب الرئيسي للاضطهاد الديني يتركَّز في ارتباطِ الدين بالدولة، فنلاحظ أنه في كل حالة قامت المسيحية فيها بحرمان الأفراد من الحرية الدينية كانت السُّلطة الحكومية مركَّزة في يدها، والحكومةُ دائماً في وضعٍ يسمحُ لها بإرغام الأفراد، إذ إنّها قوةٌ منظّمةٌ أو غير منظّمة، تملك ما تشاء، وهي بطبيعة تكوينها لا تخرجُ عن كونِها قوة مادية، وقد تكون الحكومة ضرورة لتنظيم وإدارة شؤون الأفراد، ولكنها ـ على الرغم من ذلك ـ تمثّل التسلّط والإرغام.

بَيْدَ أنَّ الدينَ شيءٌ روحيٌّ، إنَّه اتّصالُ اللهِ بقلبِ وعقلِ الإنسان بالإقناع والتعليم دونما قوة وإرغام.

فالدين يثبتُ عن طريق الإقناع والإلهام، أما الحكومة فعن طريق الإرغام والقوة، وهما بذلك لا يتفقان في شيء، بل إنهما متضادان، فإذا تسلَّط الدينُ على قلوب الأفراد فليست ثمةَ حاجة حينئذٍ إلا لسُلطة حكومية بسيطة، وهذا هو ما دعا (جفرسون) إلى أن يقول: **«أفضلُ الحكوماتِ أقلُّها سُلطة»**، إذ إنه كلما زادت سُلطة أحدهما قلَّت سُلطة الآخر.

فالدين والحكومة يكمل أحدهما الآخر، ويعوِّض أحدهما عن الآخر، ولكن لا يمكن أن يتّحدا دون استخدام العنف والتعذيب.

وهنـا يقع الزغل الكبيـر في تاريخ المسـيحية، وهذا الزغل قد أدى إلى التعصب الذي قاوم الحرية الدينية، فإذا قرأت جيداً أخبار ستة عشر قرناً من القيود الدينية والاضطهاد والتعصب في جميع الدول المسيحية الأوروبية، وفي شمال وجنوب أمريكة، سواء أكانت تلك الدول كاثوليكية أم بروتستانتية فلن تجدَ إنكاراً للحرية الدينية يستحقّ الذكر إلا من الدول التي اتّحد فيها الدين مع الحكم برباط قويٍّ لا يمكن فصمُه».

وعلى هذا النحو مضى الدكتور يُغرينا أو يؤكّد لنا أنَّ الدين يجبُ فصلُه عن الدولة.

والحُجَّة الأولى والأخيرة أنَّ المسيحية حكمت فأعنتت، وملكت السُّلطةَ فصادرت الحرية، ووضعت يدها على الدولة فأصابت حقوقَ الأفراد والشعوب بشَرٍّ كبير.

وإذن فيجب تجريد كل دين من سلطان الدولة، ويجب تجريد الإسلام ـ بالذات ـ من كل سناد حكومي!!.

وهذا الكلام لا يمكن غضُّ النظر عمّا فيه من تهاوٍ واضطراب، فإنَّ قياس دينٍ بدينٍ ونتيجةٍ بنتيجةٍ لا يجيئان بهذه السهولة، بَيْدَ أنَّ الريبة العظمى تملأُ قلوبنا حين نسمعُ الكلامَ المذكور في وقت تتضافر فيه قوى الأمريكان والإنكليز والفرنسيين ومَنْ وراءهم، وهم يستميتون في سحق الإسلام وتدويخ أهله.

إنَّ هؤلاء الناس ـ حكومات وشعوباً ـ لا يدعون فرصةً تمرُّ دون بسط اليد بأي أذًى يمكن إلحاقه بنا وبديننا.

فكيف نستطيعُ المقاومةَ الناجحةَ إذا كانت العقائدُ المعتديةُ تظاهرها قوى كبيرة، على حين يُطلَبُ من الإسلام ومن معتنقيه ألاّ يفكّروا أبداً في إقامةِ دولةٍ به أو دولةٍ له؟!.

إنَّ هذا الكلام ليس بحثاً علمياً خالصاً، بل هو أشبه بالاحتيال الثقافي، أو هو تسويغٌ لما يصنعه الغربيون بنا، ونحن في حِلٍّ من رفضه، دون تردّد.

إنَّ الإسلامَ لو كان ديناً نظرياً أو فلسفةً خياليةً لكان عليه ـ كيما يحتفظ بحياته ـ أن يواجه المواقف الآتية:

١ ـ قيام دولة مادية تمثّل الإلحادَ المسلَّح، وتنشر مبادئه في كلِّ مكان.

٢ ـ قيام حكومات بادية القوة تشتغِلُ بنهبِ الأقطار المتخلّفة، واسترقاقِ أبنائِها، ووضعِ العوائقِ للحيلولة دون ارتقائهم.

٣ ـ قيام حضاراتٍ تعتمد على الشهوات الإنسانية، وتبني تعاليمها على توهين صلة الأرض بالسماء، أو تزييف هذه الصلة، ودفعها في مجرًى يصبغ العالم بجاهلية حديثة.

٤ ـ انفجار الأحقاد ضد الإسلام، من الصهيونية التي حملت السلاح علانيةً ضدّ العرب، ومن الصليبية التي تستخفي حيناً وتُكشِّر عن نابها أحياناً.

فهل تلك الأحوال المخوفة هي المقدّمات المعقولة، التي تنتج انسلاخ الإسلام عن الدولة، ووجوب تجرّد الدين من كلِّ سلطةٍ تنافِحُ عنه، وتشربُ روحه، وتقيم حدوده، وتذود عنه المعتدين؟!.

إنَّ أركان الدولة جزءٌ من تعاليم الإسلام، كما يعلم ذلك أيُّ دارسٍ للقرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة، وتكليفُ الإسلام أن يتّفقَ مع النصرانية على حذف الدولة من رسالته لا يليق، وهو أشبه ما يكون بتكليف شخصين يملك أحدُهما مئة قرش، والآخر ألف جنيه أن يتبرّعا بما معهما، إنَّ الغُرم كلَّه واقعٌ على المكثر لا المقل.

واهتمامُنا بأمر الدولة يرجع إلى أنَّ هناكَ أحكاماً تتفق الأديانُ كلُّها على ضرورةِ إقامتها، فرَّط فيها غيرُنا، مع علمه بأمر الله فيها، فلماذا يُفرَضُ علينا أن نفرِّطَ فيها نحن الآخرين، وذلك كحُرمة الربا والزنى؟!.

فإنّ الدولة المسيحية تكاد تُجمع على استباحتهما، وتسنُّ القوانين المالية والاجتماعية، وفيها إغضاءٌ مطلق عن هذا التحريم، ونحن نعتقد أنَّ من وظيفة الدولة تنظيف المجتمع من هذه الأوبئة، ولا نرى فصل الدين عن الدولة في تلك الشؤون.

على أنَّ للإسلام غايات يسعى إليها، ومُثلاً عليا يحتضنها، كإقامةِ الإيمان وحمايته، وحفظ الصلة الإلـٰهية بين الله وخلقه، والاهتمام بأمر الصلاة والزكاة والحقّ والخير، والإسهام مع أيّ فردٍ أو جماعةٍ في إقامة حضارةٍ تحترمُ العدالة، وتقرُّ الإنصافَ وتُسعِدُ البَشر.

فلماذا تُبتر الدعوة من تعاليم الإسلام؟. وهي التي تحمِلُ هذا العبءَ في الوقت الذي تقوم فيه عشراتُ الدول المسيحية بشنّ حملاتٍ مترادفةٍ على الإسلام لتوهنَ قواه، وتبدِّدَ شملَه، وتُذيقَ أهله الأمرَّين!!.

إذا كان لأحدٍ أن يغضَّ بنانَ الندم ألفَ مرة على ما صنع بنفسه، فنحن ـ المسلمين ـ الذين نلعق مرارة الحسرة، لَأنَّا سمحنا للدين أن ينفصل عن الدولة، أو بتعبيرٍ أصرح: سمحنا للاستعمار أن يغزونا في عُقرِ دارنا، فكانت تلك المآسي السود في ديار الإسلام، التي لا تزالُ محتلةً بالأجانب، أو في الديار التي جلوا عنها وبقيت آثارهم فيها تحتاجُ إلى تطهيرٍ ممضٍّ طويلٍ...

ومن البديهي أنَّ حريةَ الدعوة إلى الله، واعتناقَ دياناته المختلفة شيءٌ لا يتنافى مع بقاء الدولة في أحضان الإسلام...

إنَّ تجاربَ أربعةَ عشرَ قرناً مضت تهتِفُ بأنَّ الحكمَ الإسلاميَّ لم يستغل السلطة يوماً في الإكراه على الدين، أو التحويل عن مذهب، وسجلّات التاريخ تعي النقائضَ في هذا المضمار بالنسبة إلى المسيحية، ومذاهبها الكثيرة...

وعندما ننظر في الأحداث التي تظلُّنا الآن ـ نجد أنَّ دولاً قد اصطُنعت اصطناعاً في بيئات، ما كان يمكن أن تتمخَّض عنها ـ لتكون هذه الدول سوطَ عذابٍ للإسلام وأهله.

في (غانة) و(الحبشة) و(لبنان) ـ مثلاً ـ اختلقت فيها حكوماتٌ مسيحية، مع أنَّ كثرة الشعب في هذه الأقطار مسلمة!!.

لماذا؟ لأنَّ النصرانية تريدُ استغلالَ الجهاز الحكومي الخطير في مدِّ حياتها، ووأدِ عداتها، ثم يقال بعد ذلك للمسلمين: **افصلوا الدين عن الدولة!!**.

واقترانُ التبشيرِ بالاستعمار أمر معروف، وقد رأينا كيف يمهّد رجالُ

الكنيسة في أواسط إفريقية وجنوبها وشمالها لحكم إنكلترة وفرنسة. . ثم أمريكة أخيراً.

ولنضرب الأمثال لكي يعرفَ القارئ كيفَ تسيطر النزعةُ الدينيةُ على الحكمِ، وتوجّه أداته تبعَ هواها. . .

* * *

حكومات مسيحية لشعوب مسلمة

لـ(لبنان) قضيةٌ ينبغي أن تألفَ الآذانُ سماعَها، وأن تستحضرَ باستمرار مغزاها. قصةُ الشعب المسلم، الذي تواطأتِ الأقوالُ على أنّه قِلّة وهو كثيرٌ، والدينُ الذي زعموا أنّه يستمتع بحريته، وهو يتختنِقُ ويذوي وراء سياسة محكَمة من الإقصاء والتضييق. . .

وهي قصةٌ تثير السخط والضحك:

أما **السخط**، فلهذا التآمر على إخفاء الحقيقة. وتجاهل وجودها، وكتم أنفاسها، كلّما قامت بحركة تنبئ عن حياتها. . .

وأما **الضحك** ـ وهو بداهةً ليس ضحك التبسُّط والسرور، ولكنّه ضحك الدهشة والعجب ـ فهو أنَّ المظلوم يردُّ الضربات على نفسه، وهو يصيح: لستُ متعصّباً!!.

نعم. . هذا المظلوم يخفف من قبضة الأصابع الحديدية على عنقه، ثم يصيح ـ وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه ـ: أنا لا أريد إماتةَ أحد.

أليس ذلك موقف المسلمين في لبنان؟.

إنَّ الدستورَ القائم حكم أن توضع مصائرهم في يد طائفة حاقدة، وجعل الميزان مقلوباً في كلّ شأنٍ سياسي واجتماعي، لمصلحة ثلاثمئة ألف (ماروني) اعتُبروا الكثرةَ الساحقة، بينما اعتُبِرَ نحو مليون مسلم قلّةً صغيرة!.

فإذا تحرّكَ المسلمون بين الحين والحين لينقذوا ما يمكن استنقاذه من دينهم ودنياهم، كان الاتهام الذي ينشغل المسلمون بدفعه أنهم ليسوا متعصبين.

نسمع هذا السياسي، وهذا المفتي، وهذا الموظف، وهذا التاجر، وغيرهم من قادة الطائفة الإسلامية ـ كما تسمّى في لبنان ـ نسمع أولئك جميعاً يجتهدون في نفي تهمة التعصّب عن أنفسهم.

لماذا؟ . . لأنَّ الإسلام الذي يُلطَم على وجهه هو أول التهمة، أما المارونية التي تلطمه فهي فوقَ المآخذ والريبة، والكثرة المنكورة الحق متعصبة، والقلة المتنفخة المفتئتة على غيرها، لا . . وعلى الدم الإسلامي أن يُسفَك وهو ظنين موصوم . . وعلى القَتلة ـ ومن ورائهم (أمريكة) و(إنكلترة) و(فرنسة) ـ أن يزعموا أنَّ الصليبية السالبة الناهبة لم تقترف ذنباً، ولم تعرف تعصباً، فإعطاء الكثرة المسلمة النَّزر اليسير شيءٌ مفهوم، وتضخم القِلَّة المارونية، ومضاعفة أنصبتها من كل شيء أمر مفهوم أيضاً، وهذا ما يحكم به العقل ويرتضيه العدل. أما القول بغير ذلك فهو من الإسلام تعصّبٌ، ومن المسلمين تطلّعٌ يُقاوَمُ بحدِّ السيف . . .

* * *

من ثلاثين سنة اصطنع الفرنسيون إحصاءً مزوّراً لسكان لبنان، قصدوا من إجرائه إقامةَ وطن مسيحي قومي بجوار الوطن القومي لليهود في فلسطين . .

ويكونُ من هذا الصنيع المفتعَل حاجزٌ يفصِلُ الإسلامَ عن شرق البحر الأبيض المتوسّط، ويمزّق كيانه الممتدّ بين آسية وإفريقية.

ولما كانت هذه المناطق إسلامية خالصة، ولا يوجَدُ فيها من اليهود والنصارى إلا عدد قليل، فقد رأى الاستعمار تسخير جميع الوسائل، واستخدام القوة والحيلة، والجيش والسياسة، والخيانات المحلية والدولية لتهويد فلسطين، وتنصير لبنان . .

وأقيمت دولةُ إسرائيل بعد استقدام الألوف المؤلَّفة من يهود أوروبة ليكاثروا عرب فلسطين بعددهم . . وفي عُرف السياسة الغربية يجوز وصفُ هذا العمل بأي صفة إلا أنّه تعصب ضد الإسلام والتهام لحقوق أهله.

وأقيمت دولة لبنان بعد أن زُيِّفَ إحصاء غريب، أهملت فيه جماهير كثيفة من السكان المسلمين، ثم ضمت في الوقت نفسه ألوف مؤلفة من النازحين إلى الأمريكتين، الذين تجنَّسوا من نصف قرن بالجنسيات الأمريكية المختلفة، اعتبروا جميعاً مسيحيين لبنانيين.

وبذلك ـ وبفنون عجيبة أخرى من الكذب والتشويه ـ أمكن جعل المسلمين نحو (٤٨٪) من السكان، ثم جُعِلت شارة الدولة وأجهزتها وسياستها مسيحيةً من

الألف إلى الياء، وأخذت السلطة التي أقامها الاستعمار، ورسم لها وجهتها تؤدّي وظيفتها، وتمشي رويداً إلى غايتها.. فقامت سياسة التوظيف على وضع المناصب الكبرى والصغرى بيد المسيحيين وحدَهم، حتى ليندرَ أن يُرَى موظف مسلم في عمل رئيسي، ونسبة المسلمين في الوظائف العسكرية والمدنية والخارجية لا يتجاوز (١٠٪).

وقامت سياسة التعليم على مثل ذلك، فأغلقت في عهد (إميل إده) جميعُ المدارس الإسلامية. ونشطت الحكومة في إقامة تعليم ذي صبغة معينة يتّسع في مرحلتيه الأولى والمتوسطة لعدد من المسلمين. فإذا جاء دور التعليم الجامعي سُدَّت الأبوابُ في وجه الكثرة، أو سُمح لنفر يُحصَون على الأصابع بدخول بعض الكليات النظرية.

أما الطب والهندسة، فيصعب أو يستحيل أن يتيسر أمام الطلاّب المسلمين.

وفي (لبنان) ثلاث جامعات مسيحية، تشرِفُ (حكومة لبنان) على إحداها، ويشرف الفاتيكان على الثانية، ويشرف الأمريكان على الثالثة، وكلها تتسابق بهمةٍ ظاهرةٍ لإماتة الإسلام في نفوس المسلمين وبين صفوفهم، وتخريج طبقة من المثقفين تدين بولائها الروحي والعلمي للغرب فحسب.

وفي (لبنان) التقت جهود نصارى العالم أجمع، كيما يتم إنجاح الغزو الصليبي السلمي لهذه البقعة، فهناك بُعوث وأديرة ومدارس يُسهِم في تمويلها وتعضيدها أهل السويد في شمال أوروبة، وأهل النمسة من وسطها، عدا الفرنسيين في الجنوب، وذلك إلى جانب جهود الأمريكان في القارتين الشمالية والجنوبية.

* * *

كتب (جوردن جاسكيل) في مجلة (المختار) تحت عنوان: (لبنان واحة الشرق الأوسط) عدد يونيه سنة ١٩٥٨م ما يأتي:

يقول المثل: «ألقِ حجراً على أي حشد لبناني، وستكونُ واثقاً من أنك ستصيب أسقفاً واحداً على الأقل»!.

إنَّ بيـروتَ تزخَرُ بالأسـاقفة، وبها اثنـان من الكرادلة الكاثوليك ـ وهي المدينة الوحيدة في العالم، التي تجمعُ مثل هذا العدد عدا روما ـ ذلك فضلاً عن جيش ضخم من البطاركة، والكهنة والأرشمندريت. . . إلخ.

لِمَ كل هذا؟ لمحاولة تنصير لبنان!.

وإنشـاء وطن قومي مسـيحي يكمّل الوطنَ القوميّ اليهوديَّ المقام في فلسطين. المهم هو إتمام ذلك العمل الدنيء في صمتٍ وليونةٍ ما أمكن.

فإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليس هناك إلا الذبح والاستئصال للتغلّب على الإسلام المتعصّب!.

* * *

المال والعلم والفن وصنوف المعاونات الجلية والخفية تآمرت جميعاً ضدّ المليون مسلم المقيمين في (لبنان) والذين يُراد طيهم في أكفان الموتِ الأدبي والمادي، تلك التي نسجتها الصليبية الغربية، فأحكمت نسجها.

بَيْدَ أنَّ الأمر تطلَّب عملاً آخر، فإنَّ المسلمين لا تزيدُهم الأيامُ إلا كثرةً، ولا بد من مغالبة هذا التزايد الذي صحبته يقظة معنوية خطيرة.. وهنا تجيء سياسة التجنيس. فقد دأبت (حكومة لبنان) على اصطياد أي مسيحي والتبرّع لـه بجنسية لبنانية، آملةً من وراء ذلك تحويل الكثرة المزعومة إلى كثرة حقيقية.. وعندما زرتُ (لبنان) تعرّفتُ على بعض المصريين النازحين ابتغاء الرزق، فأما المسلم منهم فهو يحمل إذن إقامة موقوتة، وأما القبطي فقد مُنِحَ جنسية لبنانية، وكذلك صنعت (حكومة لبنان) مع اللاجئين الفلسطينيين، المسلمون منهم يلقون الهوان والتجريح، وأما المسيحيون فقد اعتبروا مواطنين صالحين.

وتوجد في (لبنان) طائفة كردية قدمت إلى هذه البلاد، وتوطنتها قبل أن يجيء الأرمن إلى (لبنان) بأمدٍ طويل، ومع ذلك فإنَّ الأرمنَ ـ لأنهم نصارى ـ نالوا الجنسية اللبنانية في هدوء وبساطة، أما الأكراد المسلمون فقد حُرِموا هذا الحق.. ولما شعروا بالعلّة الخافية وراء حرمانهم لجأ بعضهم إلى الحيلة، فأعلن تنصّره، وسارع أولو الأمر على عَجَل فأعطوه الجنسية اللبنانية، فلمّا نالها واطمأنّ عاد إلى الإسلام مرة أخرى، وهنا ثارت ثائرة الحكومة اللبنانية، وقرّر رجالها ألا

يقعوا في هذا الفخ. وحظروا ألا يدخل أحد من الأكراد في الجنسية اللبنانية!...

والوجه الصليبي لحكومة (لبنان) لا تستره التزويقات المصطنعة، فثوب الرياء يشفّ عما تحته، وقد رأى أخيراً بعض ساسة (لبنان) ألا ضرورة لهذا الرياء، فكاشف بما يُضمر، وأعلن في المجالات الدولية عن حقيقة نفسه. ومن هنا رأينا الطابع الخارجي لسياسة (لبنان) غربياً بحتاً. لا على أساس من المصالح المشتركة، بل على أساس من العواطف المشتركة.

وكان من المضحك أن يؤيد (لبنان) مشروع (أيزنهاور) قبل أن يؤيّده البرلمان الأمريكي، وأن يكون مركزاً للشغب الدائم ضدّ التيار العربي المتحرر.

وانفجر الجمهور في (لبنان) ضد حكومته المتعصّبة الحاقدة.

فماذا حدث؟ سارعت إنكلترة وفرنسة وأمريكة ـ وهي دول الاتفاق الثلاثي لحماية إسرائيل ـ سارعت إلى الوقوف مع السُّلطة الجائرة في (لبنان) ومغاضبة الثورة الحرة واتهامها، ومحاولة إرغام المليون مسلم على الخضوع الذليل للحكم الذي صنعه الاستعمار وحدَّد أهدافه.

وفي هذه المناسبة الدقيقة، واحتقاراً للدم الأبي المسفوك في القُطر المضطهد، يبرزُ في دنيا السياسة العالمية اتفاقٌ يجعل السيد (شارل مالك) وزير خارجية لبنان رئيساً لهيئة الأمم المتحدة.

كأنَّ الصليبية العالمية تقولُ لعملائها في (لبنان): لا تقلقوا، نحن من ورائكم.

ثم تنشط دول الغرب الثلاث، وتتصل بالجمهورية العربية المتحدة لتحولَ بين عونها وبين الشعب اللبناني الثائر.

إنّ حكومة (لبنان) ربيبةٌ أخرى لحكومة إسرائيل، وإنَّ أمريكة هي الوالد الروحي والمادي لهذه الربائب الملعونة.

ولو أنَّ هذه المأساة أخذت عنوانها الطبيعي لقلنا: حلقة في سلسلة المظالم التي يرتكبها بعض البَشر مع البعض الآخر، وما أكثر ما يتغابن الناس على مرّ العصور، لكن المزعج في هذه القصة أنَّ القتيل يرضى وليس يرضى القاتل، وأنّ

البريء يتغاضى والمجرم يتطاول، وأنَّ الإسلام الجريح النبيل يتحامَلُ على آلامه، ويريدُ أن يتجنَّب العراك وألا يثير اللجاجة، أما خصومه فهم يمضون في طريق الضغائن والافتراء لا يردّهم شيءٌ.

وعندما شاعت فكرة القومية العربية، وصار لها شأن يُذكر في ميدان السياسة، وتطلّع لها جمهورٌ كبير في (لبنان)؛ قال رجل (ماروني) لأحد المسلمين: إنَّ العروبة تعني الإسلام، وأنتم تتسترون وراءها لعلَّة لا تخفى.

فقال له المسلم: إنَّ العروبة أوسع دائرة، وهي لا تعني ديناً ولا مذهباً! ويجب أن تَفسحوا لها الطريق، وأن تَشرَحوا بها صدراً.

قال الماروني: مهما ارتضيتم لها من تفاسير فنحنُ نأباها، وعلى أي حالٍ فنحن لسنا عرباً، إننا جنسٌ آخر ارتبط بالغرب في روحه وفكره.

وحاول المسلم الساذج أن يقنعَ صاحبه بأنَّه عربي، وأنَّ العروبةَ لا تعني الإسلام، وكان ردّ (الماروني): كلا، وأنتم متعصبون!.

وغاظني أنْ تسقطَ الحقيقة إلى هذا الدرك، وأن تجد الصفاقةُ هذه الجرأة.

فقلتُ: هَب العروبة تعني الإسلام، فماذا فيها من تعصّب؟!.

هل الذي يطلبُ حق الحياة متعصّب، والذي يستكثِرُ هذا الحق على غيره متسامح؟!.

هل القلّةُ التي تزيّفُ الأوضاعَ لتسودَ باسم الدين متسامحة؟، والكثرة التي تنشد العدل، وتحترم الواقع هي التي تُتَّهم بالتعصّب؟!.

إنَّ الفرنسيين جاؤوا إلى هذه البلاد، فكذبوا على تاريخ الماضي والحاضر، وأرادوا أن يجعلوا منكم ملوك لبنان، كما أراد حلفاؤهم أن يجعلوا اليهودَ ملوكَ فلسطين.

أفيُعتبر العربُ متعصّبين لكراهيتهم هذا الكذبَ الصراح، وتُعتبرون متسامحين لأنّكم صدقتم ما افتريتم، وأقمتم حياتكم عليه؟!.

أليسَ في وجوهكم بقيةُ حياءٍ تمنعكم من اتّهام المسلمين بصفةٍ أنتم أسرع الناس إليها، وهم أنأى الناس عنها؟!.

إمّا أن تحكم القلّةُ الكثرةَ، وأن يخنع المسلمون لغيرهم، وأن يتنازلوا في صَغارٍ عن أحكام دينهم، وإمّا علت الصيحات الكذوبة تزعم أنّ المسلمين متعصّبون.

* * *

وراقبتُ انفجار الشعور العام في لبنان ضدّ حكومة (شمعون)، وأخذتُ أتسمّعُ الأنباءَ من هنا وهناك ـ أمريكة وإنكلترة وفرنسة ـ تسانِدُ عملاءها، وتمدّهم جهرةً بالسلاح.

والحكومةُ التي صنعها الاستعمار الغربيُّ تُسخِّرُ قواها في الفتكِ وسفكِ دماءِ الأحرار الثائرين.. والمناطق الإسلامية تكافِحُ ـ بشرفٍ وشجاعةٍ، ظلمَ الأوضاع العالمية والمحلية.

والزعماءُ المسلمون لا يفتؤون يردّدون بين الحين والحين هذه الكلمات: إننا لا نقاتل عن الطائفية، ولا نقاتل ضدّ دين.. بل كادوا يقولون: لا نقاتل عن دين... إنّهم مساكين متّهمون بالتعصّب، فهم يردّون الاتّهام بهوس.. والذين يوجّهون لهم الاتّهام هم الرجال الذين صنعوا إسرائيل على أنقاض العروبة والإسلام... والذين يريدون تكرار المصيبة نفسها في لبنان.

إنَّ المرأةَ العاهرةَ أقدرُ الناسِ على تجريح الغافلات المحصنات.

لقد علم الأوّلون والآخرون أنَّ التعصُّبَ منكم بدأ، وإليكم يعود.

أما المسلمون.. فهم أقربُ خلق الله إلى فضائل السماحة والتلطّف والعدالة والإنصاف.

* * *

ولندع (لبنان) إلى مكانٍ آخر من أرض الله.. لندعه إلى (الحبشة) مثلاً، وسترى أنَّ وظيفة الحكم في (الدولة المسيحية) لا تعني شيئاً إلا إرهاق الإسلام وانتقاص أطرافه، وتجميع العداوات الوافدة من الغرب لتلتقي على الكيد والصدِّ عنه.

وسياسةُ هذه الدول لا تتخلّى عن مبدئها العتيد.. تذأب واضرب، والبس

ثياب الحَمَل الوديع، هاجم الآخرين ثم قل: كانوا ينوون العدوان علينا.

سياسة هذه الدول: أنَّ الجزيرةَ ـ كي تأمنَ غوائل المدّ والجزر ـ يجب أن يتحوّل البحر من حولها إلى يابسة.

فإذا قيل لها: لقد مرَّت قرونٌ والبحرُ هادئ لا يثور، قالت: ربّما ثار في المستقبل، وعلى كلِّ حال يجب أن يُقاوَمَ ظلمه المتوقَّع بجميع الوسائل، وأن تبدأ هذه المقاومة من اليوم.

وإليك صورة من هذا الاحتكار المفتعل، تؤكد خطوط السياسة الصليبية المنتهجة ضدنا.

* * *

في إفريقية الشرقية أمةٌ إسلاميةٌ كبيرةٌ بعثرتها الظروفُ السيئة على أقطار شتّى، ثم أدركتها أطماعُ الاستعمار، فنالت منها كل منال، من هذه الأمة البائسة (أريترية) التي سقطت في براثن الاحتلال الإيطالي، ثم البريطاني، وما كادت تنتعش قليلاً، وترجو الخلاصَ من كلا البلاءين، حتى تحرّكت نحوها الحبشةُ تطلبُ أن تضمَّها إليها فيما يسمّى (الاتحاد الفيدرالي).

وهَبَّ الجمهور الساخط يطلبُ الاستقلال بأمره، والنجاةَ من غول التعصّب الحبشي القائم، بَيْدَ أنَّ الأحباش كانوا بالمرصاد لهذه الحركات، فأرسلوا رجالهم بالخناجر والمسدّسات يقتلون الأحرار، ويبثّون الرعب، وعندما حاول أحد الزعماء الذهاب إلى منظّمة الأمم المتحدة لعرض قضية بلاده اغتاله الأحباش وهو على أهبة السفر.

ثم التقى الساسة الأحباش مع الساسة العالميين على أمرٍ قد قُدر، فضُمَّت (أريترية) المسلمة إلى الحبشة، وشرع هؤلاء ـ فور تسلمهم مقاليد البلاد ـ في إزهاق روح الإسلام، وقتل كل كرامة لأهله!.

والغريب أنَّ دول الجامعة العربية وافقت على هذا العمل المنكر.

لماذا؟ كي لا تُتَّهم بالتعصّب.

وكادت المأساة تتكرّر في (الصومال)، القُطر الآخر الملاصق للحبشة،

وشـرع الإمبراطور الإفريقي مع رجالات أمريكة وأوروبة يبيّتون الشـر لذلـك الشعب الناهض، ولا يزال الكفاح دائراً، وليس يعلم إلا الله عقباه.

ولا بـأس أن ننقل هنـا نُبذاً من كتـاب (مؤامرة إفريقية) لـ(أحمد بهاء الدين).. يكشِفُ جانباً من أطراف الكفاح الطويل الذي يحمل الصومال عبئه ليفوز بحريّته وعقيدته معاً.. قال:

«هذا الصراع الذي يدور له الرأسُ.. هذا الصراع الذي تشترك فيه إنكلترة وفرنسة وإيطالية وأمريكة.. ليس كل شيء في هذا البلد الصغير.

فالصومال له جارة أكبر وأقوى، هي أثيوبية.

قد كان المفروض أن تجد الصومال في جارتها الإفريقية نصيراً ومساعداً لها.

كان من المفروض أن تجد في جارتها الإفريقية جداراً تسندُ ظهرها إليه إذا تكاثر عليها الطامعون، ولكن الظروف السياسية ـ مع الأسف ـ جعلت من هذه الجارة مصدراً آخر للخطر على الصومال، وطامعاً آخر يشترك في الصراع في هذا البلد الصغير، والأسباب من بينها ـ مع الأسف ـ أنَّ أثيوبية مسيحية، والصومال مسلمة.

والأصل في هذا العصر أنَّ الدين لا يجب أن يكون قضية سياسية، ولا سلاحاً سياسياً.

ولكننا سوف نرى بعد قليل كيف أنَّ الاستعمار هو الذي لجأ إلى هذا السلاح، وهو الذي بدأ باستغلال الدين.

ومن بين هذه الأسباب ـ أيضاً ـ أنَّ أثيوبية مرتبطةٌ إلى حدٍّ بعيد بالسياسة الغربية عموماً، والأمريكية بوجهٍ خاص، فأثيوبية غاصّة بالخبراء الأمريكيين والضباط والطيارين الأمريكيين، وهي مرتبطة بمعاهدات كثيرة للمساعدة الفنية والاقتصادية والعسكرية، فهي الدولة الإفريقية التي يظهَرُ فيها النفوذ الأمريكي أكثرَ مما يظهر في أي بلد إفريقي آخر.

ومن بين هذا الأسباب ـ أخيراً ـ أنَّ أثيوبية لها مطامع إقليمية في الصومال.

فعندما انتصرت القوات الإنكليزية سنة ١٩٤١م على القوات الإيطالية، وطردتها من الصومال، ومن الحبشة على السواء، بقيت هناك حتى عاد الإمبراطور (هيلاسلاسي) إلى عاصمته (أديس أبابا) فانسحبت إنكلترة من (أثيوبية) وبقيت في الصومال حتى سنة ١٩٥٠م عندما تقرر وضعها تحت وصاية إيطالية، وقبل أن تنسحب إنكلترة من الصومال، قامت برسم خط حدود بين الصومال وأثيوبية، وصفته بأنه خط مؤقت. وبمقتضاه انتزعت منطقة (أوجادين) من الصومال وأعطتها أثيوبية. ومن ذلك الوقت وكل المباحثات التي تجري لتسويتها تفشل، وأثيوبية ـ بالذات ـ ليستْ متلهّفةً على الوصول إلى حل، فأوجادين على أي حال في يدها، وكل يوم يمرُّ يثبِّت أقدامها هناك.

وفي سنة ١٩٥٥م فوجئت الصومال ـ كما سبق أن ذكرنا ـ باتفاقية سرية أخرى تُعقد بين إنكلترة وأثيوبية تعطيها بمقتضاها مناطقَ أخرى صومالية، كانت تحت يد الإدارة الإنكليزية.

وأوجادين منطقة مسلمة كلها، وسكانها جميعاً صوماليون، ليس بينهم أقلية من الأحباش.

ومن ذلك الوقت ثار الصوماليون على أثيوبية، وأصبحوا يعادونها، ويشكّون في نواياها، كما يعادون الإنكليز، ويشكّون في نواياهم.

وقد ظهر دور أمريكة في هذه القضية واضحاً، عندما نوقشت قضيةُ الحدود بين الصومال وأثيوبية أمام لجنة الوصاية في الأمم المتحدة.

لقد تقدَّم السيد (رفيق عشي) مندوب (سورية) بمشروع قرار خاص بمشكلة الحدود، يوصي فيه بتعيين وسيطٍ في حالة فشل المفاوضات بين إيطالية وأثيوبية لتسوية الحدود بينها وبين الصومال، وقد نشط الوفد الأمريكي في الاتصال بوفود الدول للتصويت ضدّ مشروع القرار السوري، وقام (كمال الدين صلاح) والسيد (رفيق عشي) بالاتصال بالوفود للحصول على تأييدها، وقد عاونهما في ذلك مندوبو الهند، وسلفادور، وهاييتي.

وكان يتزعَّم الحملة على مشروع القرار مستر (مولكاهي) عضو الوفد الأمريكي الذي يُعتبر مستشارَ وزارة الخارجية الأمريكية في شؤون شرق ووسط إفريقية الاستوائية، وذلك لسابق خدمته في أريترية.

ولما كانت الولايـات المتحدة قد بـدأت تبدي اهتمامـاً واضحاً بهذه المناطق، واتخذتْ من أثيوبية مركزاً لمباشرة نشاطها، وتنفيذِ سياستها الإفريقية، فقد كان من المنطقِ أن يعارض الوفدُ الأمريكيُّ في مجلس الوصاية في أي إجراء فيه تعريضٌ أو إحراجٌ للحبشة.

وفي أثناء مناقشة خاصة بين (كمال الدين) ومستر (مولكاهي) ذكر الأخير أنَّ مشروع القرار السوري سيكونُ له ردّ فعلٍ سيِّئ في الحبشة، لأنَّه مقدَّم من دول إسلامية! والأحباشُ يشعرون أنّهم جزيرة مسيحية في بحر إسلامي، **ويشعرون بالأخطار التي تهدّدُ كيانهم من كلّ جانب!**.

ويبدو أنَّ الفقرة الأخيرة من كلام المندوب الأمريكي كانت فلتة لسان، فلقد حـاول بعد ذلـك أن يفسّـرها بمعنى آخـر، وأن يقول: إنَّ هذا تفكيـره الشخصي.

فأجابـه (كمال الدين) بأنـه لا مبرر لمثل هذا الشـعور أو التفكير، وأن الاعتقادات الدينية وحدها ليست أساساً تُبنَى عليه تصرُّفات الدول.

ثم إنَّ رفضَ مشـروع القرار السوري معناه بقاء مشكلة الحدود معلّقة، مع ما يؤدي إليه ذلك من متاعب وعدم استقرار في هذه المنطقة.

وقد وافق المجلس على الاقتراح السوري.

على أننا يجب أن نقف لحظة عند فقرة مهمة وردت في كلام المندوب الأمريكي عن **شعور الحبشة بالأخطار التي تتهدّد الحبشة من كل جانب!**.

ما هي الأخطار التي تتهدَّد الحبشة من كلِّ جانب؟!.

إنَّ كل الدول المحيطة بها إما مستعمرات، أو دول مستقلّة أقل منها قوة. ولم يعرف أحدٌ أنّ هناك دولة واحدة في هذه المنطقة لها مطامع في أي مكان على الأرض.. إنَّها كلها شعوب تريدُ أولاً أن تستقلَّ، أو أن تحلّ مشاكلها الداخلية.

ثم إنَّ أثيوبية في منطقة بعيدة عن التوتّر الدولي والحروب الباردة.. فهي نموذج للبلد الذي لا تتهدّده أي أخطار.. ولكن السياسة الأمريكية ـ فيما يبدو ـ يهمها إفزاع دولة كأثيوبية، وإقناعها بأنَّ هناك أخطاراً وهمية تحيط بها، وتخويفها

كذباً بأنها جزيرة مسيحية في بحر مسلم!!.

فبذلك تستطيع أن تتغلغل، ولن تستطيعَ أن تبني فيها قواعد عسكرية إلا إذا أقنعتها بأنَّها للدفاع عنها (ضدّ خطرٍ ما).

وقد أثمرت هذه السياسةُ حتى في المسائل الخارجية البعيدة نسبياً عن أثيوبية، فعندما نوقشت قضيةُ الجزائر في الجمعية العامة للأمم المتحدة صوَّتت أثيوبية ضد طلب إدراج القضية، كما صوَّتت الولايات المتحدة، وكان غريباً أن تُصوِّتَ دولةٌ إفريقيةٌ قاست الاستعمارَ خمس عشرة سنةً ضدّ حرية شعب إفريقي آخر يكافِحُ بالدم ضد الاستعمار!..

إنَّه موقفٌ غريب، جاءَ ثمرةَ السياسة الأجنبية، التي تريدُ أن تخلقَ العُقَد النفسية، وتخلق أسبابَ التنافر بين الدول الإفريقية بعضها مع البعض الآخر.. رغم أنها دول متحدة المصالح في واقع الأمر».

* * *

وأغرب من ذلك التعاون الوثيق بين حكومة الحبشة النصرانية وإسرائيل! لقد وحدت عداوة الإسلام بين الخصوم الأقدمين. فإذا سلسلة الغدر تستحكم للإجهاز عليه.. واسْمع إلى هذه الحقائق:

١ ـ إنَّ الاستعمار جعل من اليهودي (ناتان مادين) الإسرائيلي مستشاراً قانونياً عاماً للحكومة الأثيوبية، وهو أيضاً النائب العام المختصّ بوضع قوانين الدولة.

٢ ـ أعادت وزارة الخارجية الأمريكية الدكتور (سبنسر) اليهودي الأمريكي إلى أثيوبية ليكون مستشاراً لوزارة خارجيتها، وهو يشغل هذا المركز منذ عهد الرئيس روزفلت (عام ١٩٤٤م).

٣ ـ إن مستشار وزارة التجارة والصناعة هو البريجادير (فرانكو ستافورد) وهو يهودي إنكليزي أعارته بريطانية لأثيوبية لكي يُشرفَ فيها على شؤون التجارة والصناعة[١].

* * *

---

(١) من منشورات الهيئة العربية العليا لفلسطين.

لقد ضحكتُ ضحكة العارف بما هنالك عندما سمعتُ اقتراح فصل الدين عن الدول يُعرض علينا ـ نحن المسلمين ـ لنأخذَ به ونستريحَ إليه ! ! .

في هذا العصر الذي استطاعت شتَّى النِّحل أن تُسخِّر كل ما ينطوي عليه معنى الدولة من سُلطة ونفوذ لدعم كيانها، وتوهين غيرها، يقال للمسلمين : من الخير فصل الدين عن الدولة . . ! .

في هذا العصر الذي استُهدف الإسلام فيه لحرب اشتركت فيها شعوب مضلَّلة وحكومات جشعة مجرمة، والتقت على المكر به سطوة القهر ولين الخداع ، يقال لنا : من الخير فصل الدين عن الدولة . . ! .

والحقيقة الكالحة أنَّ الدينَ في أوروبة لم يستغل الدولة لبلوغ أهدافه ، بل إنَّ الدولة هي التي استغلّته لبلوغ مآربها ! . . أي أنَّ الدين في منطق الاستعمار لا يعدو أن يكون مطيةً لأمانيه السافلة في خنق الحريات ، وسحق الأمم ، وتسويغ الجور ، وإبقاء قارات بأكملها بقرةً حلوباً لحفنة من المغامرين والخطفة ! ! .

إنَّ من حقِّ المسيحية أن تُبشِّر بعقائدها ، وأن تعرضها على كلِّ ذي لب كي يقبلها أو يرفضها ، وذلك حق نقرره لكل دين .

لكننا نشمئزّ من أن تقومَ الأديانُ بدور الوسيط في سياسة الغشم والغصب وسرقة المال وسفك الدم . . .

ووددتُ لو أنَّ المسيحية نزَّهت نفسَها عن القيام بذلك الدور، لكنها لم تفعل .

وهاك فصلاً يميط اللثام عن بعض المناكر التي تُقترَف في ذلك المجال :

الدين في خدمة البترول[1] . .

قسيس إيطالي اسمه (فليبيني) يروحُ ويجيءُ في أنحاء الصومال منذُ خمسٍ وعشرين سنة ، إنَّ مهمته الرسمية هي أنَّه رئيسُ بعثات التبشير الكاثوليكية في الصومال. ولكنَّ الإدارةَ لا تعاملُه معاملةَ قسيس عادي، فهو متمتّع بالحصانة

---

(١) عن المصدر السابق .

الدبلوماسية، والإعفاءات الجمركية، وسيارته الخاصة تحمِلُ رقماً من أرقام (الهيئة السياسية). إنَّ مهمةَ هذا القسيس سياسيةٌ في الدرجة الأولى، وكذلك مهمة كل بعثات التبشير!.

لقد تعوَّد الشرق منذ زمن بعيد أن يكون شعاره: الدين لله والوطن للجميع.

وأرضُ هذا الشرق هي التي أنبتت كلَّ الأديان، فكان من الطبيعي أن تألفَ وجودَ الأديان المختلفة جنباً إلى جنب، ولم يعرف الشرقُ أبداً الحروب الدينية التي عرفتها أوروبة مثلاً، لم يعرف الشرقُ الحروبَ الدينية إلا على يد أوروبة التي كانت تبرِّر موجات غزوها للشرق بأسباب دينية، كما تفعل الآن إسرائيل..

وفي إفريقية ـ بالذات ـ نجدُ أنَّ الاستعمار لا يتورَّع عن استخدام الدين وجعله مطية لتحقيق أغراضه...

إنَّ الشعب الصومالي شعبٌ مسلم، منذ أكثر من ألف سنة، فإذا كان الغربُ يحترمُ كلَّ الأديان ويُقدِّرها، كما نحترمها ونقدِّرها نحن في الشرق.. فلماذا يحاولُ أن يُخرجَ هذا الشعب عن دينه؟.

أليس هذا ـ وحدَه ـ عدواناً واستفزازاً وإثارةً للمشاكل!.

فما بالنا إذا كان الأمرُ ليس قاصراً على الدعوة الدينية فقط؟..

ما بالنا إذا كان هذا التبشير الديني يسيرُ دائماً في ركاب الاستعمار، متلوّناً بلونه، متلائماً مع ظروفه، ملبّياً لحاجته؟..

في الأصل كانت أكثر البعثات التبشيرية في الصومال بعثات بروتستانتية، فلما دخل الاستعمار الإيطالي، أخذ يطارِدُ المبشّرين البروتستانت، حتى تخلَّص منهم، وأفسحَ المجال أمام المبشّرين الإيطاليين. الكاثوليك!..

والآن.. منذُ سنوات فقط. أي نفوذ سياسي واقتصادي بدأ يجتاح العالم الغربي على أنقاض النفوذ الاستعمار القديم، إيطالية، أو فرنسة، أو إنكلترة؟! إنه النفوذ الأمريكي.

ومن أجل ذلك بدأ زحفُ المبشّرين الأمريكيين ـ البروتستانت ـ يغزو الصومال.. دخلها مع النقطة الرابعة، وشركاتُ التنقيبِ عن البترول، والخبراء!

وكانت هذه معركة أخرى على (كمال الدين صلاح) أن يواجهها . .

عندما ذهب أول الأمر، كانت السطوة ما تزال في أيدي بعثات التبشير الإيطالية، كان (فليبيني) الذي يقيم في الصومال منذ (٢٥) سنة حتى عرف لغة البلاد، وأهلها، وعاداتها، وتقاليدها، هو النجمُ اللامع والأب الروحي للتبشير.

وكان (أدموندو) هو ابن التبشير وتلميذه البكر . .

إنَّ (أدموندو) ليس إيطالياً، ولكنَّه صومالي. صومالي مسلم في الأصل، اسمه (محمد شيخ عثمان) ولكنَّه دخل ـ منذ كان صبياً ـ في مدارس التبشير، وارتدّ عن الإسلام، ولكنَّه عندما كبر ودخل الحياة العامة ترك المسيحية، وعاد أدراجه إلى الإسلام. وظلَّ أمام الناس ـ وأمام نفسه ـ بغير دين، وبغير اسم . . .

والإدارة الإيطالية تهتمّ بأن تمنحَ خريجي مدارسها التبشيرية أحسنَ المناصب وأكبر المرتبات حتى يظهروا متفوقين على أهلهم وأقرانهم الباقين في الإسلام، أملاً في أن يكونَ في هذا دعاية كافية للتبشير . .

أما (أدموندو) الابن البكر للتبشير، فقد أسست الإدارة له حزباً اسمه الحزب الديمقراطي، وعيَّنته سكرتيراً عاماً له، وأرسلته إلى (روما) ليتمرّن في وزارة الخارجية الإيطالية. . فمَن يدري؟ لعلَّه يكون في المستقبل وزيراً أو سفيراً، فلا ينسى أن يكون عميلاً لأرباب نعمته، إنّه نموذج حيّ فريد من نماذج الأشخاص الذين يصنعهم الاستعمار؛ فبعد أن يسلبهم كل مقومات الشخصية السليمة، في التاريخ والكيان، والبناء النفسي، يدفعهم إلى المراكز العليا والمسؤوليات، لأنَّه يعرف أنْ لا خطر منهم قط بعد أن انتزع منهم كلَّ صفات الشخصية والاستقلال! . .

ولكنَّ حركة التبشير الإيطالية لم تلبث أن بدت ضعيفةً خائرةً إزاء الغزو البروتستانتي الجديد الآتي مع الأمريكان. . لقد وصلت الصومال بعثتان على التوالي، الأولى: بعثة (Somulia minuaite moniin) يرأسها قسيس بروتستانتي اسمه (ويلبرت لند). . والثانية برئاسة قسيس آخر اسمه (مورديكر). .

وقد بدأت كل بعثة بإقامة مركز تعليمي لدراسة اللّغة الإنكليزية والدين. وبدأ رئيسا البعثتين يهاجمان الدين الإسلامي والمعتقدات الإسلامية علناً.

وبسرعة تُحسد عليها البعثتان، بدأتا تتدخلان في القضايا المحلية والسياسية وفي مقدمتها: قضية اللغة. أصبحت كل من البعثتين مركزاً للحملة على اللغة العربية وثقافتها وتُراثها، ومركزاً للدعوة الاستعمارية السياسية إلى كتابة اللُّغة الصومالية بحروف لاتينية. بل إنَّ القسيس (مورديكر) أعلن أنَّه لن يقبلَ في مدرسته مَن يتعلَّم اللُّغة العربية. حتى إنَّ بعض الشباب الراغبين في دخول مدرسة التبشير لمجرّد دراسة اللُّغة الإنكليزية، كانوا يخفون دراستهم للُّغة العربية حتّى لا يتعرَّضوا للطرد!.

وفي خارج العاصمة، أحضر (مورديكر) أسطوانات تتكلَّم باللُّغات: العربية، والصومالية، والإنكليزية، داعيةً الأهالي إلى ترك الدين الإسلامي، واعتناق المسيحية، فكان الأهالي في بعض المناطق يتركونها تصرخ، وفي مناطق أخرى كانوا يقذفونها بالحجارة، ويطردونها من قراهم.

إنَّه من المحزن أن يُستخدم دينٌ ما ضدَّ الحرية والحق، وضد الخير والسلام.

وموقف المسيحية من معاضدة الاستعمار سوف يجرُّ عليها مخازيَ كثيرة.

انظر ما كتبه (إدلاي ستيفنسون) عن الحالة في إفريقية، قال: إنَّ هذه القارة الواسعة الممتدة حوالي خمسة آلاف ميل لا تستقر فيها الأحوال، ففي الشمال حيثُ مراكش، وتونس، والجزائر، ثارت الكثرة العربية على القِلَّة الفرنسية.

وفي الجنوب تتحكَّم جماعةٌ من الأوروبيين، وهي في حالة خوف دائم من أن تكتسحها جماهير الإفريقيين.

ومن الواضح أنَّ المشكلة ستبقى ما دام هؤلاء مصمّمين على اكتساب حريتهم كاملةً، وإتاحة الفرص الاقتصادية الواجبة لهم.

وفي المناطق المزدحمة بالسكان البيض مثل (كينية) و(روديسية) ينظر الإفريقيون بشراهة إلى الأرض الجيدة التي يحتفظ بها الأوروبيون!.

ولقد حكى لي أحد المبشّرين قصة ذلك الإفريقي الذي تحدَّث عن أحوال قومه بصراحة تامة قائلاً: «عندما جاء الأوروبيون كانوا يملكون (الإنجيل) وكنا ـ نحن ـ نملك الأرض. أما الآن فقد أعطونا الإنجيل وأخذوا منا الأرض» نعم!

أعطوهم الإنجيل وأخذوا منهم الأرض. هذا هـو العـوض العادل الذي ارتضـاه الفاتحـون المتدينون!!. والفاتحـون الذين يسمون طلب الحرية مشكلة، والتطلّع إلى الأرض المغصوبة شراهة، وقتال المغيرين عليها رجعية!! ولعلّهم عندما أعطوهم (الإنجيل) لفتوا أنظارهم بقوة إلى الآيات المشهورة فيه: «مَن ضربك على الخدِّ الأيمن، فأدر له الأيسر، ومَن سخَّركَ ذراعاً فامشِ معه ميلاً».

لفتوا أنظارهم إلى هذه الآيات لتكونَ أساسَ السلوكِ الواجب على السود بإزاء البيض، أو الواجب على المسلمين بإزاء أهل الكتاب أجمعين من صليبيين وصهيونيين.

وأخيراً نثبت هنا ما سجَّله الشهيد (كمال الدين صلاح) مندوب مصر في هيئة الوصاية الصومالية، فقد وعى ملاحظتين مهمتين يجبُ أن نحفظهما نحنُ وأن نتدبّرهما:

الأولى: أنَّ كل بعثات التبشير، والشركات والهيئات الأمريكية التي تعمل في الصومال تخضع لإشراف ورياسة سفير الولايات المتحدة في (أديس أبابا) عاصمة الحبشة، تلك العاصمة التي تُعتبر الآن نقطة الارتكاز الأولى لأمريكة في قلب إفريقية، وأنَّ سفير الولايات المتحدة في (أديس أبابا) كان في الأصل قسيساً من رجال التبشير.

والثانية: أنَّ كل البلاد التي اختارتها بعثاتُ التبشير لممارسة نشاطها الديني تتركز في مناطقَ معينة ـ مناطق تُنقِّب فيها الشركاتُ الأمريكية للبترول ـ أو تبحثُ فيه عن مغنم اقتصادي ـ. **أي أنَّ وجه التبشير ما يبدو إلا مقنَّعاً، وأنَّ أداتَه ما تسيرُ إلا في ظلال أعمال أخرى، وهذه السيرة الدائمة اللازمة لسياسة أمريكة هي التي جعلت التعاون المسيحي الإسلامي يفشل، وهي التي جعلتنا نقلِّب النظر في مؤتمرها، ثم ننقلب آسفين.**

* * *

ذئاب الحبشة تنهش الإسلام

أُمَّةٌ تُذبَح . . ودينٌ يذوب .

أما الأمّة فتسعة ملايين إنسان في الحبشة .

وأما الدين فهو الإسلام الحنيف وراء ستار لا يُخترق، وداخلَ سجن معتم مترامي الأطراف، تقع هذه المأساة التي تمزّق الأكباد .

تُفتن أمة عن دينها لترتدّ عنه بالجوع والتشريد والحديد والنار . .

ودون أن يُسمَع لها أنين، أو تُشهدَ لها عَبرة، أو يُسمَح لأحد من المسلمين في أنحاء الدنيا بكلمة عطف فضلاً عن صيحة زجر، وصرخة إنذار وتألّم .

لقد كنتُ أعرفُ ـ كما يعرف الثقات ـ أنّ ثلثي الحبشة مسلمون .

وكنتُ أدرك ـ على سبيل الإجمال لا التفصيل ـ أنَّ هذه الكثرة المنكودة تعاني ضغطاً يوشِكُ أن يكتمَ أنفاسها حتى جاءني نفرٌ من المجاهدين الفارين، يحدّثني بالهول الذي ترك خلفه، يصلاه جمهورُ المسلمين البائسين .

وآثر أن يودّع ما لديه رسالة تنضح بالأسى والصدق، وتنطقُ بما هنالك من مظالم تقصم الظهور .

وهذا نصّ الرسالة[1] . . أنشرها كما جاءتني، لعلّها تُعرِّف الجاهلين، وتُذكِّر الغافلين :

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي . .

نحن من (هرر) طالبان في الأزهر الشريف، ومن حديثنا هذا الموجز

---

(١) وهو النص الذي قدَّمه لنا عن المجاهدين من مسلمي الحبشة الأستاذ محمد يوسف إسماعيل نزيل القاهرة الآن .

ستعرفون لماذا لجأنا إليكم.

إنّنا نودّ أن نُقدِّم إليكم عرضاً سريعاً عن حال المسلمين في الحبشة.

ولكي تأخذوا فكرةً مختصرة تتعرّفون منها على حال المسلمين في الحبشة وما هم فيه من اضطهاد، وعلى مستقبلهم، وما يبيَّت لهم من عسف، نأسف إذ ننقل إليكم ما قاله (إمبراطور الحبشة) في (الكونجرس الأمريكي) في أثناء زيارته للولايات المتحدة منذ سنوات، عندما سُئِلَ عن أهدافه وبرامجه لنهضة بلاده قال:

«إنَّ أهم الأهداف التي نسعى إليها هو توحيدُ الدين واللُّغة في بلادنا، وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئاً من التقدّم».

ولما سُئِلَ عن المسلمين قال:

«نعم.. توجد هناك أقليّة مسلمة في الجنوب (إقليم هرر) اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب، وقد وضعنا لها برامج منذ اثني عشر عاماً، فلا يمضي وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها».

هذا ما قاله إمبراطور الحبشة، الذي يملك مصيرَ الشعب هناك، وهو الحديث نفسه الذي تعرَّض له في خطاب العرش عند افتتاح البرلمان الصوري في سنة ١٩٥٧م، وإن كان في صورة مقنَّعة.

فإلى أيِّ مدًى يمكنكم التنبُّؤ بما قد يصيبنا في المستقبل إذا كانت هذه هي إرادة الإمبراطور الممتلئ بروح العداء والمقت والكراهية للإسلام؟ والذي يجعلُ من هذا كله وسيلةً لدعم سلطانه في نفوس المسيحيين، واكتساب احترامهم ومحبتهم (كحامي حمى المسيحية) و(منقذ الصليب المقدَّس).

وهي إرادةٌ لها جميع الإمكانيات لتنفيذ ما ترسمه، إذا عرفنا أنَّه الحاكم المستبد المطلق الذي لا يقف في وجهه أحد.

وتؤيده في ذلك الكنيسة التي تدعمُ فكرة كونه المختار من الله ليحمي الحبشة (المسيحية) من (المسلمين) والتي تثبّتها في عقول المسيحيين هناك بكلّ وسيلة.

وهي بذلك قد أعطته السلطة الدينية إلى جانب سلطاته الدنيوية .

* * *

والواقع أنَّ محاربة الإسلام والمسلمين في الحبشة لم تبدأ في عهد (هيلاسيلاسي)، بل تمتدّ جذورها إلى زمن بعيد، حيثُ كان الصراعُ مستمرّاً بين (هرر) معقل الإسلام في ذلك الجزء من إفريقية، وبين الحبشة المسيحية .

ففي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حدثت معارك رهيبة بين (هرر) والحبشة المسيحية، استولى فيها المسلمون على أراضي المسيحيين (شوا)، (عندار)، (تجري)، (فوجام) وغيرها من البلدان، وحكموها سنين عدة. وأشهر هذه المعارك حملةُ الإمام (أحمد بن إبراهيم) القائد الهرري، ومن بعده (الأمير نور)، ولم يتمكن المسيحيون قط من غزو أراضي المسلمين إلا في أواخر القرن التاسع عشر عندما بدأت المنافسة بين الاستعماريين الغربيين في ابتلاع إفريقية، وخاصة شرقي إفريقية، الذي بدا جلياً خطورة مركزه الاستراتيجي بعدَ حفر قناة السويس بالنسبة لحماية المصالح التجارية .

ولذلك سارعت كلٌّ من فرنسة، وإيطالية، وبريطانية إلى احتلال السواحل الشرقية للقرن الإفريقي، وكانت البرتغال إحدى الدول الاستعمارية التي كانت تطمعُ من وقت طويل في احتلال (هرر) لولا فشل جميع محاولاتها، ولم تكن هناك وسيلة إلا استغلال العداء التاريخي والديني في نفوس الأمهريين ضد الهرريين، فحملتهم بذلك على إثارة حرب كانت هي ممولته تمويلاً هائلاً، فسقطت أقدم مدينة في شرق إفريقية، وأكثرها مدنية وأكبر معقل من معاقل الإسلام فيها، وقد وقف إلى جانب الأحباش في هذه الحرب جنود البرتغال، وعشرات المدافع الثقيلة، وكثير من الأسلحة الخفيفة، على حين لم يكن للهرريين غير بضعة مدافع (أقل من عدد أصابع الكف)، وكان اعتمادُهم على الأسلحة التقليدية، وبذلك استشهد أفرادُ المدفعية، وكان معظمهم من المصريين الذين استوطنوا هرر، بعد انسحاب الحامية المصرية قبل ذلك بثلاث سنين .

وانحسرت المعركة عن انهزام الجيش الهرري، والحق أنه استشهد كله . وهكذا سقطت هرر العاصمة سنة ١٨٨٧م، ودخلها الأمهريون، ولم يكونوا

يفكّرون في حكمها، بل في فرض جزيةٍ على أميرها مع غرامة حربية، وعلى ذلك تم الاتفاق، ووقّعت المعاهـدة، ولحين اسـتيفاء الدَّين تبقى هـرر محتلـةً مدةً أقصاها عشر سنوات، ولم تمانع البرتغالُ في ذلك ما دام الوقت يتّسع.

وهنا بدأ الصراع بين كلٍّ من بريطانية وفرنسة اللتين رأتا في البرتغال منافساً خطيراً. فعملتا بجميع الوسائل حتى أزاحتاها عن الميدان، ووقعتا معاهدة مع الإمبراطور الحبشي (منليك) تتعهدان له فيها بإقامة إمبراطوريـة تشـمل جميع الممالك الإسلامية، التي لابدّ من سقوطها بعد سقوط (هرر) ـ ذات المكانـة العظيمة في نفوس المسلمين ـ، وتعترفان له بمملكة (هرر)، وبذلك أحلّتاه من الاتفاقية الهررية الأمهرية.

والغريب أنَّ بريطانيـة وفرنسة كانتا قد حضرتا هذه الاتفاقية، وأخذتـا ـ مقابل ذلك ـ أراضيَ من الجنوب والشرق.

فأخذت (بريطانية) الجنوب، واستولت (فرنسة) على الشرق فضلاً عن امتيازات هائلة لهذه الأخيرة في المديرية الشرقية، منها مدُّ خط حديدي، يصل ثغر (جيبوتي) بـ(أديس أبابا) ماراً بالمديريات الشرقية والشمالية، واحتكاره لمدة تسعة وتسعين عاماً في مقابل مبلغ لا يقوم بنفقات عمارة واحدة.

وجعلت (فرنسة) قاعدة هذا الخط الحديدي مدينة (دريدوه) عاصمـة المديرية الشرقية حتى تتمكن من إدارة الإقليم مباشرة.

فكان القنصل الفرنسي في (دريدوه) و(هرر) هو الحاكم الحقيقي، وإن كـان القنصلان الإيطالي والإنكليزي يزاحمانـه في هـذا النفوذ، وخاصة في المديريات الغربية والجنوبية. . . ، حيث تتاخم حدودهما إقليم هرر.

وقد اتخذ الصراع الديني منذ ذلك الحين شكلاً جديـداً بإضافة الصراع السياسي إليه.

ودخلت الميدان كلٌّ من فرنسة وبريطانية، وبدأت محاربة الإسلام بوسائل أخرى.

ولم يكن هَمُّ فرنسة أن تبسط نفوذَها على الحبشة بقدر ما كان يهمها أن

تبسط نفوذها على هذا الإقليم الخصيب، الذي كانت لـه أهميته الاستراتيجية والاقتصادية والروحية، بعد أن وطَّدت أقدامها بواسطة الأمهريين، وقدمت لهم مساعدات عسكرية وفنية . . .

وفي أثناء مد الخط الحديدي شُرِّدَ الآلاف من الناس، وأُحرقت قرى، وأُبيد الذين أبوا أن يجلوا من أراضيهم دون تعويض أو حماية لحقوقهم.

ولم يسمع أحدٌ عن هذه المجازر الرهيبة، وكانت تشبه مجازر الأمريكيين في الهنود الحمر تماماً. . .

وأدركت (فرنسـة) أنَّ أهمَّ شيء يجب القضاء عليه هو اللُّغـة العربيـة والحروف العربيـة، اللتان ذاقت منهما الكثيـر فيما استعمرته من الأراضي، فأوعزت إلى الإمبراطور بفتح باب الهجرة الإجبارية للمسـيحيين مـن ناحية، واستعملت نفوذها من ناحية أخرى في التقليل من مكاتب القرآن، في الوقت الذي فتحت فيه مكاتب تبشيرية ومستشفيات ومدارس، ونشرت دعايات باللُّغة الحبشية في الكتب والمنشورات وغيرها.

وزحف جيشُ المهاجرين من الشمال، ووقعت القرى الهررية تحت أفظع نوع من الإقطاع، ونظام التبعية، وصار الناس عبيداً بكلِّ ما في هذه الكلمة من معنًى.

وأرغم الإقطاعيون سكان القرى والفلاحين الذين يعيشون في أراضيهم على حضور القُدَّاس، وحمل صليب خشبي على رؤوسهم كلَّ يوم أحد كنوعٍ من إظهار الولاء لسادتهم!!.

وكـانت القيودُ والسـياطُ هما اللُّغـة الوحيدة التي يُخاطَب بها أولئك الفلاحون المساكين.

ونزلت إلى ميدان التبشير البعثات البروتستانتية مع الأرثوذكسية التي كانت تساعدها الحكومة باضطهاد المسلم حتى يلجأ إلى التنصُّر.

وفعلاً كانت تحصلُ حالاتٌ نادرة من ضعاف النفوس حيثُ كان يتعمَّد الأمهريون إعطاءَهم أراضٍ واسعة ونياشين، بل يضعون تحت تصرّفهم كثيراً من الفلاحين الذين كانوا إخوتهم بالأمس.

ودار الزمن، وعجلة الإقطاع لا تكفّ عن السحق والدق، فاستولى (هيلاسيلاسي) على العرش، وكان أول ما فعله هو التخلُّص من الزعماء الهرريين، الذين كانوا لا يزالون يطالبون بحقهم في الجلاء، وإعادة ممتلكاتهم وأراضيهم، فسادت موجةٌ من الجرائم الغامضة والخطف والاغتيال حتى كادت العاصمة تخلو من إنسان يفكّر في أُمته وغده بعد أن تركَّز عليها الاضطهادُ بكافة أنواعه . . باعتبارها مقرّاً لخُلاصة الطبقة الوطنية والمثقفة لجميع القبائل في ريف هرر، غير أنه ـ بالرغم من ذلك الاضطهاد والاستبداد، وانتزاع الأراضي وتجويع الناس، وكبت حرياتهم ـ لم يستطيعوا قتلَ الروح الوطنية في الشعب تماماً.

ولم تكفِ أصابعُ المبشّرين الفرنسيين ـ الذين كانوا مدرّسين على حساب الحكومة ـ من الكيد للُّغة العربية بغية محوها . . .

بَيْدَ أنَّهم فوجئوا بالغزو الإيطالي بعد أن كادت محاولاتهم تنجح نوعاً من النجاح، واستولى الإيطاليون على الحبشة في أواخر ١٩٣٥، وبذلك توقَّفَ أدناً برنامجِ بُيِّتَ لشرق إفريقية. وكان ذلك الاحتلال ضربةً قاضيةً لفرنسة وتلميذتها، فتحطّمت السلاسل والقيود التي كان يرسفُ فيها المسلمون في معظم الحالات باعتبارهم الطبقة العاملة التي عليها أن تدفعَ الضرائبَ والجبايةَ والعشورَ . . . إلى غير ذلك من وسائل السلب والنهب.

وكان يخوَّلُ الإقطاعي أن يحكم بنفسه على أيِّ فردٍ تحت إمرته. ويُقيّدُ بالسلاسل، ويُقضى عليه بالشنق أحياناً في بيته دون اللجوء إلى المحاكم.

خرجَ من سجن (هرر) وحده أكثر من سبعة آلاف شخص، ظلَّ بعضهم مقيَّد الرِّجلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة، وخمسة عشر عاماً، فلما أُفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، إذ تشكَّل العمود الفقري بذلك الشكل القوسي، واختفت السياطُ الرهيبةُ التي يزنُ الواحدُ منها أكثر من خمسة وعشرين رطلاً، وهي عبارة عن سيور جلدية مضفورة بإحكام تتدرّج في الدقّة حتى الطرف.

واختفى الرقُّ أيضاً، وتنفَّس المسلمون الصعداء، إذ وقفوا لأول مرة منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً سواسيةً مع المسيحيين، وأعيدت لهم معظم

أراضيهم، وبدؤوا يشعرون بأنّهم بَشر، ونشطت حركة التجارة التي كانت قد ماتت تماماً، كما افتُتحت المدارس العربية، وظهرت الصحف المحلية، وجيء بمدرسين من طرابلس الغرب، ولكن هذه الفترة لم تطل.

فما إن أطلَّ شهر مايو من عام ١٩٤١ حتى عاد الأمهريون في ركاب البريطانيين، وحدثت عدة ثورات تولَّت بريطانية إخمادها بوحشية، وانبعث من جديد عواء السلاسل، وفرقعة السياط، وعادت شهوة الانتقام والسيادة أعنف من ذي قبل، كأنَّما يستدركون الأيام التي فاتتهم إبّان الاحتلال الإيطالي.

وانطلقت الكنائس معلنةً لا عن التسامح والأخوّة، بل عن الحقد والكراهية، وبانطلاقها انطلقت كلُّ الأشياء التي كانت تجعل من المسلمين عبيداً وخدماً، فأزيحوا عن الوظائف التي كانوا يشغلونها، وسُرِّحَ الجند منهم والشرطة، وصودرت الأملاك من جديد، حتى تلك التي وهبتها الحكومة الإيطالية عوضاً لمن لحقتهم خسائر مادية، ولكم أن تتصوروا مدى البغضاء التي امتلأت بها نفس (هيلاسيلاسي) حين رأى الجيشَ الذي هزمه في معركته ضد الإيطاليين (وكان معظمهم من المسلمين الطرابلسيين والصوماليين وغيرهم).

وهذا من الأسباب التي جعلته عازماً على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين في الحبشة بأيِّ ثمن، وذلك ما أشار إليه في الكونغرس الأمريكي متحدِّثاً عما زعمه أقلية مسلمة تعيش في الإقليم الجنوبي، وأنه وضع لها برنامجاً خاصاً.

وهنا ـ فقط ـ لم يتوخَّ الدقة في التاريخ، فبدلاً من اثني عشر عاماً كان أولى به أن يقول: خمسة عشر عاماً، وهو الوقت الذي تنازلت فيه الإدارة البريطانية له عن إدارة هذا الإقليم. ومنذ ذلك الحين وضع خطة جديدة بدأها بالمصادرات الجماعية للأراضي التي كان الإيطاليون قد أعادوها إلى أصحابها الحقيقيين، ثم مطالبة ملاّك الأراضي الصغار بضرائب السنين الخمس وما قبلها، حتى عجزَ صغارُ الملاّك عن الدفع، فاستولى عليها، ووزَّعها على عائلته، وهي بدورها بدأت تؤجّرها بأجورٍ مرتفعةٍ للفلاحين.

ثم عزل سكانَ المدن عن الريف، وحرَّم على أهل المدن الانتقال إلى القرى إلا بإذنٍ خاص، كما عزل المديريات بعضها عن بعض، وفرض قيوداً ثقيلةً

على التنقّل بينها، وذلك إلى جانب الدعايات الكنسية ضد المسلمين. ويتحمّل كل مسيحي حماية الدولة. . .

وبذلك أصبح لكلٍّ فردٍ منهم حقُّ اتّهام أي مسلم لأقلّ سبب وتقديمه للمحاكمة، وأيُّ موظَّف لا يركع له المسلم في مكتبه حينما يدخل عليه يعتبرُ ذلك إهانة موجَّهة إلى السلطة العليا التي تمثّل الذات الملكية، وجزاؤه أن يُجلَد (٤٥) جلدة ـ ربما لا يبقى حياً بعد عشرين منها ـ وأن يُحبَس مدة تتراوح بين سنتين وخمس سنين.

وأيُّ كلمة يقولها المسلم يمكن أن تُفسَّر تفسيراً سياسياً ضد الدولة، تُعتبر جريمةً يُعاقَب عليها.

وبذلك تعرَّض المسلمون للون جديد من الإرهاب. . أساسه الظنة والاتهام.

وإذا كان الحاكم والقاضي والشرطي وسائر الموظفين مسيحيين، وجميع السلطات مسيحية فإلى أي مدى يمكن أن يتعرّض المسلم للظلم؟!.

وأيُّ إجحافٍ واضطهادٍ يقعان عليه دون أن يملك رداً، أو يستطيع دفاعاً؟!

والمحاكم دائماً ملأى بالمتهمين. . والسجونُ غاصّةٌ بالمظلومين، وكثرتُهم من المسلمين.

فهم دافعو الضرائب والغرامات، ومتحمّلو الخسارات، وهم الذين أرهقتهم الأثقال الجائرة، فعجزوا عن الدفع. . فاستضافتهم السجون.

وما أسهل أن تُنسَب الحوادث التي تُرتكب ـ ولا يُعرف فاعلها ـ إلى المسلمين!.

وهاكم حادثة وقعت سنة ١٩٤٦:

في قريةٍ صغيرةٍ من قرى (كمبولتشا) ـ إحدى المراكز شرقي العاصمة (هرر) ـ وُجِدَ جندي أمهري قتيلاً، فبعثت الحكومةُ كتيبةً مؤلَّفة من مئتي رجل بكامل أسلحتهم، واقتحموا القريةَ ليلاً، وقتلوا منها أكثر من ثمانين شخصاً، منهم الشيخ والطفل والمرأة.

وأحرقـوا الأكواخَ عن آخرِهـا، ونهبوا المواشـي، وزجّوا بالعشرات من أهل القرية في السجون، وذلك كلّه قبل أن يتحرَّوا عن الحادث.

وبعد مضيّ مدّة تبيَّن أنَّ القاتلَ كان زميلاً للقتيل في فرقته نفسِها، فاتّهمه بعلاقته بامرأته، وهكذا ذهب أولئك المساكين ضحية الخيانة والانتقام والحقد والكراهية.

هذا واحد من مئات الأمثلة التي حدثت ولا تزال تحدث في كل وقت مادام هناك حاكم أمهري، ومحكوم مسلم، ومادام المسلمون يقرؤون القرآن العربي.

ولقد كانت خلال هذه السنوات ثوراتٌ ضدَّ هذا الظلم، ولكنَّ قوى الشرّ والاستعمار، وأصحابَ المصالح تكتّل ضدّها، فتخمدها.

ففي (جرسم) مثلاً ـ إحدى المديريات الهررية التسع ـ ثار (الشيخ عبد القادر آدم) ضد الضرائب الفادحة التي فُرِضَتْ على هذه المديرية، وضد الأوامر التي كانت تفضي بأن يخبز نساءُ المراكز المسلمات جوالقاً من الدقيق كل أسبوع للمعسكر ويحملنه إليه. وبعد أن دخل رجال الثورة الغابات للمقاومة جمعت الحكومة الشيوخ والأطفال والنساء في أكواخ، كل عشرين أو ثلاثين منهم في كوخ، وهو يُبنى عادةً من الحشيش أو القصب، وسكبتْ عليها صفائح البنزين، فأحرقت جميعاً بمن فيها، والذي أمر بهذه الجريمة المروعة لا يزال موجوداً، وهو وزير الحربية الرأس (أبيا أراغي)، أما المواشي فقد أُبيدت بالسم والرصاص. وكان هذا العمل انتقاماً من الرجال الذين لجؤوا إلى الغابات، ومن جهة أخرى لبَثِّ الرعب في القُرى المجاورة.

وكانت هذه الأعمال تسير جنباً إلى جنب مع جميع أساليب الاضطهاد الوحشية سواء في المحاكم أو في السجون أو في المصالح الحكومية، بل في المستشفيات، والمراكز التبشيرية، وللمبشّر الأرثوذكسي ـ وهو الدين الرسمي للحكومة ـ حقّ المطالبة بإعدام أي مسلمٍ دون إبداء الأسباب أحياناً، واتهامُه بانتقاص الدين الرسمي أحياناً أخرى.

وهذه الأشياء لا تظهر في المدن بالطبع، بل تتركز في القرى النائية البعيدة عن العمران، ولهم في تكتم الأخبار ألف وسيلة ووسيلة.

وما إن أهلَّ عام ١٩٤٨، وقد بلغ حداً بعيداً، حتى هبَّت (هرر) تطالب بحقوقها العادلـة، ومسـاواة أهلها بالمسـيحيين مما اعتبرتـه الحكومة وقاحة وخيانة، فجرَّدت له ثلاثةَ ألويةٍ من الجيش، اقتحمت المدينة، وأعملت فيها السلبَ والنهبَ والتعذيب. واشترك معهم رجال الشرطة والمدنيون ـ وقد رُخِّص لهم باقتناء السلاح في هذه الحملة الإرهابية، فصُودرت المتاجِرُ والمدراسُ والمزارع، وأقيمت محاكم للتطهير، واعتُقل الآلاف، ووُضِعوا في معسكرات التعذيب، وأُخِذت أوقاف المساجد وضُمَّت إلى الكنائس، وأُرسل الزعماء إلى مناطق نائية، وكان التعذيبُ وحشياً لم يقتصر على إطفاء السجائر في الأجساد، أو تعريض الناس للشمس اللافحة في حالةِ جوعٍ وظمأ شديدين، وقد وُضِعت على مقربة منهم براميل من الماء والطعام، أو هَتك الأعراض على مرأى من الأزواج والآبـاء، أو العبث في ظهورهم بالسـياط، بل تعدَّاه إلى دقّ (خصي الرجال) بأعقاب البنادق، وإلى قذفهم بين أسلاك شائكة تمزّق أجسادهم، والجنودُ يتلذّذون بذلـك المنظر الوحشي، واستُخدمت كل وسـائل العنف والتعذيب في الاستجواب.

واسـتمرَّت هذه الأعمال الفظيعـة سبعةَ أشهرٍ كاملة، قُتل فيها من قُتل، وهلك من هلك بسبب الجوع والبرد، وفي تلك الأيام قدم وفد مسلمي (هرر) إلى القاهرة، ليعرضوا شكواهم على العالم الإسلامي، فلم يجدوا سنداً ولا نصيراً، والظروفُ لم تكن في صالحهم، والعالم الإسلامي لم يقدِّم لهم شيئاً بالرغم من أن الوفد عرض أمره على حكومة الحجاز واليمن، وقدَّم مذكراتٍ إلى الكثير من سفارات الدول الإسلامية وغير الإسلامية. ومن يومها اعتُبِرَت (هرر) منطقةً مفتوحةً لكلِّ أنواع التبشير ـ ما عـدا الإسـلام ـ إن كان هناك تبشـيرٌ إسـلامي ـ للتعجيل بتنصيرها.

وعُيِّنَ لها حاكم عسكري هو نفسه الذي كان يتولى التحقيق والتعذيب والاستجواب في تلك الحركة.

وفي (هرر) الآن البعثاتُ البروتستانتية والكاثوليكية، والأرثوذكسـية والسويدية والمنهجية.

وخُصِّصت مديريةُ (عروس) للتبشير الأرثوذكسي ولا يقربها أحد، كما مُنح

رجال الدين هناك ـ مع السلطات المحلية ـ حقُّ الإجبار ومطاردة الأشخاص الخطرين (المشايخ).

ونتيجةً لهذه الموجة من الإرهاب والنهب اللذين حدثا في (هرر) قلّتْ موارد الناس، وهبطت حركة التجارة، وكثر العاطلون، وعجز الناس عن دفع أيِّ ضريبة، مما سهّل للحكومة الاستيلاء على الممتلكات والمزارع.

وفي الوقت نفسه افتُتِحت بعض المدارس الأمهرية المسيحية، وطُلِب إلى المسلمين أن يُدخِلوا أبناءهم فيها بعد أن أُغلقت مدارسهم الخاصة. ومن المعلوم أنَّ المدرّسين فئةٌ منتقاةٌ من الجزويت والهندوك المعروفين بميولهم العدائية نحو الإسلام، وعليه فإنَّ التحاق أبناءِ المسلمين بتلك المدارس نوعٌ من الانتحار الديني والوطني، فضلاً عن البرنامج الذي يدرَّس، والمبثوث فيه كل ما من شأنه إهانة الإسلام والمسلمين.

والتعليم الديني إجباري، وليس للمسلمين حق افتتاح مدارس خاصة بهم، كما أنَّه يحرَّمُ على أي هيئةٍ أو طائفةٍ إسلامية أن تزورَ أرضهم، أو أن تتصل بهم، مثل ما فُعِل بالبعثة الأزهرية قبل بضع سنوات، إذ مُنِعَت من الدخول إلى منطقة (هرر).

ومن الأساليب التي تلجأ الحكومة لتقوية التبشير الأرثوذكسي أسلوب غريب، وهو إشاعة أنَّ روحَ جبريل ظهر في دير صغير في قرية (قلبي) بواسطة القسيس، وهذه القرية تبعد حوالي (٤٥) كيلومتراً من (هرر) وهي أشدُّ مناطق (هرر) ازدحاماً بالريفيين السذّج، وأنَّ هذا الروحُ طلب من المسيحيين في كل بقعة في الحبشة أن يجتمعوا سنوياً في هذا المكان، ويؤدوا اليمين المقدَّس لنصرة المسيحية، وأحيطت هذه الإشاعة بهالة من الخرافات وخوارق العادات، التي عرضت لمن زار هذا المكان، وكان أول من استجاب لهذا النداء هو الإمبراطور نفسُه، مع جميع أفراد عائلته ووزرائه.. وقدَّم النذور والتبرّعات. وبذلك صار الذهابُ إلى هذا المكان حجّاً مقدَّساً، يفدُ إليه المسيحيون من كلّ أطراف الحبشة، والهدف الذي يرمون إليه من وراء هذا العمل هو جعل هذا المكان أرضاً مقدّسةً يدافعُ عنها كلُّ مسيحيّ ضدَّ أي تحرّرٍ أو اضطرابٍ من جانب المسلمين، الذين تخصّهم هذه الأرض. ثم استغلال العاطفة الدينية لجمع

التبرّعات التي تبلغُ سنوياً ثلاثةَ ملايين من الدولارات مخصصة كلُّها للتبشير في مقاطعة (هرر).

ويستعرض القساوسة هناك النتائج أمام الوزراء والكبراء، ورجال الحكم، والعائلة المالكة، ويقدّمون من هداهم الله على أيديهم إلى الدين المسيحي - بحسب زعمهم - بين عاصفةٍ من التصفيق وقراءة المزامير والموسيقى، وتطلقُ الأعيرةُ الناريةُ ابتهاجاً بهذا النصر، ويقوم الجيش باستعراض، ثم تقدّم العطايا والبركات من الإمبراطور أو أحد أعوانه لأولئك المرتدّين، ثم توزّع عليهم النياشين، كل ذلك بغية التأثير على غيرهم من القرويين الذين يحيطون بهذا المكان.

ولا غرابة أن يكون لها تأثيرها، إذ كان المسلمون في تلك النواحي متأخّرين، وقد أرهقتهم الضرائب والمطالب التي لا تنتهي من جانب الحكومة، فهم - بذلك - يحاولون التخلّص من الأثقال التي عليهم، ولا يدري بذلك أحد.

وليست (هرر) إلا صورةً من الصور المنتشرة في جميع المقاطعات الإسلامية.

وما في (جمة) من الاضطهاد والظلم لو وزِّع وحده على إفريقية كلها لأصبحت أرض الجوع والدموع، فحينما كان (مشفن شاسي) وزيرُ الداخلية حالياً - حاكماً عاماً لمقاطعة (كفا جمة) سنّ قوانين جائرة بنفسه، وشرد الألوف، واغتصب أراضيهم وقتلهم بطريقة غامضة، لأنهم أبوا التنازل عن أراضيهم، واستولى عليها.

والخلاصةُ أنّه دخل (جمة) والمسلمون يمتلكون من الأراضي (٩٠٪)، وغادرها وهم لا يملكون غير (٢٥٪). وكان نصيبُه في ذلك من لا شيء إلى (٢٥٪)، والباقي موزَّع بين الحكومة والعائلة المالكة والمهاجرين الأمهريين.

ولم يقف في ظلمه عند هذا الحد من اغتصاب أموال الشعب وأراضيه، بل اخترع طريقة أخرى، هي أنه لا يُجنى البنّ إلا إذا أصدرَ أمراً بذلك، في الوقت الذي تجنى فيه مزارعه الواسعة، وتجفّف وتُباع بأسعارٍ مرتفعة، لأنها في هذه الحالة ستكونُ المعروضة الوحيدة في السوق، وبعد أن ينتهي من ذلك، يكون قد تَلِفَ أكثرُ محصول البن في المزارع الشعبية، إما بتساقطه، أو بأن تلحقه الأمطار،

ويستغلّ هذه الفرصة أيضاً ليبعثَ سماسرته في القرى والأرياف لشراءِ البنّ بأثمانٍ زهيدةٍ، وفضلاً عن ذلك فقد أقام مصافي للبن، ولا يمكن لإنسان أن يصفّي بنّه في غير هذه المصافي، ولا يمكنُ أن تحمل العربات إلا من هذا المكان، ولا يمكن أن يقدَّر رطلٌ واحدٌ من البن دون أن يحمل الإيصال الذي يشهد له بأنّه قد صُفِّي في ذلك المكان، ولا عربة دون أن يكون لها إيصال يكون بموجبه قد دفعت ستين دولاراً عن كل شحنة، وهذه الأموال الطائلة لا تذهب إلى خزينة الحكومة، بل إلى جيبه.

والمعلوم أنَّ المسلمين من أصحاب البلد وغيرهم من العرب هم الذين يتّجرون، وبذلك يضمن إفقارهم، وهذا ما حدث فعلاً.

وقد أثرى ثراءً فاحشاً حتى أصبح مليونيرَ الحبشة، فمزارعه التي اغتصبها يستخدم فيها مساجين المسلمين دونَ مقابل، وقد ارتفعت درجته لدى الإمبراطور لأنّهما يتقاسمان تلك الأرباح، فمن درجة (صاغ) إلى (لواء) في الرتب العسكرية. ومن درجة (فينازماترس) إلى (رأس) وهي أكبرُ مرتبةٍ مدنية بعد الإمبراطور، ثم عُيِّن وزيراً للداخلية. وفي خلال حكمه رأت (جمة) المسلمة أفظعَ أنواع الحكم والاضطهاد، وكان كل من يقوم في وجه التبشير المسيحي يوضع في حفرة عميقة، ويقذفه الجنود الأحباش بصخور وحجارة كبيرة.

وقد أَجْبَر المسلمين على بناء (كنيسة مريم)، واعتقل الذين لم يتبرّعوا، وصادر أملاكهم.

وهـو الذي استنَّ بناء كنيسـة على مدخل كل مدينة مسـلمة حتى يُظنّ أنَّ الحبشة كلها مسيحية.

* * *

كانت التجارة هي الطريق الوحيد الذي بقي للمسـلمين بعد ما سُـلبت الأراضي الزراعيـة من أيديهم، غير أنّ قيوداً ثقيلـةً فُرضت على هذه التجارة، ومنحت امتيـازات التصديـر والاستيراد للأجانب، وبذلك أخذ المسـلمون يتدهورون اقتصادياً ومعنوياً.

ليس هذا فحسب، بل أخذوا يتدهورون خُلقياً بعد تشعّب طرق محاربتهم؛ فقد سمحت الحكومة للعاهرات بالهجرة إلى كلٍّ من (هرر) و(جمة) وجميع

المدن الإسلامية الأخرى، وفتحت بيوت الدعارة بتشجيع من البلدية المحلية من كل مقاطعة، وفي كل شارع كبير من شوارع المدن، وانتشرت الحانات، ولعلّ أفظع منظر هو الذي يطالع المرء حول جامعي (هرر) و(جمة) حيثُ تحيطُ بهما بيوت الدعارة والحانات، وقد حاول المسلمون أن يحتجّوا، وأن يقفوا ضدَّ هذا الوباء الخُلُقي، لكنّهم باؤوا بالفشل.

وقد أخذ التضييق على إقامة الشعائر الدينية يزدادُ يوماً بعد يوم في السنين الأخيرة، فالأعيادُ ممنوعٌ إقامتُها إلا في المدن الرئيسية بعد تقديم طلب بالسماح، ويحدث ألا يسمح بها في الوقت المعين، وترجأ إلى ما بعد يومين أو ثلاثة من الميعاد.

أما الحجّ فأمرُه معروف، إذ منعوه صراحة، ولا يحجّ إلا عدد محدود، توفّرت فيه الشروط التي تكفل إغلاق فمه، وهذا العدد المحدود يقل كل عام.

وفي العام الماضي أصدر وزير الداخلية (مشفن شلسي) ووزير المالية (مكنن هبت ولر) أمراً بمنع الحجاج من مغادرة الأرض الحبشية، وفي آخر لحظة سمح الإمبراطور لعدد معين منهم بعد شكاوى وعرائض قُدِّمت، وكان هو نفسُه وراء هذا المنع!.

وفي العام نفسه نُشِر كتاب (الإسلام وإفريقية) لمؤلّفه القسّ الإنكليزي (جودي فريل ديل)، ترجمه وعلّق عليه القسّ الأمهري (جونزي طافطا)؛ وهذا الكتاب - من أول حرفٍ فيه إلى آخر حرفٍ - تهجُّمٌ صريحٌ على الإسلام، وسبٌّ فاضحٌ لنبي الإسلام والتشهير به.

فأجيزَ المترجم، واحتفلتْ به الأوساط الدينية، وعلى رأسها كاهن الحبشة الكبير (باسليوس) وهو أعدى أعداء الإسلام، الذي يدبِّر هذه المآسي كلها ضد حرية العقائد والأديان، ومعه الإمبراطور.

* * *

أما لماذا وكيف لا يثور المسلمون؟ فهناك أسباب كثيرة، ولو أنهم قد فعلوا في حدود ضيقة لاسيما في (هرر).

منها أنَّ معظم المسلمين متأخرون، بسبب فرض الحصار على تعليمهم،

وأنَّهم غير مركَّزين في إقليم واحد، فهم متباعدون جداً، وأقاليمهم تفصل بينها أراضي الأمهريين.

ومنها بثّ روح التفرقة التي تشنُّها الحكومة فيما بينهم بإحياء التعصّب القبلي، وإثارة الخلافات الدموية بسبب الحدود الوهمية التي تصنعها كل قبيلة.

ومنها حكمهم حكماً إرهابياً أفقدهم الثقةَ بأنفسهم، وقتل فيهم الروح المعنوية، فضلاً عن عدم حيازتهم للأسلحة.

ومنها يأسهم من مساعدة إخوانهم المسلمين في العالم الإسلامي عامة، وفي مصر خاصة.

ومنها العجز الاقتصادي، الذي مُنُوا به في السنوات الأخيرة، وضغط الحكومة عليهم من كل ناحية، حتى فقدوا الإحساس بالظلم نفسه.

ولعلَّ الإنسان يفقد إحساسه بكلِّ شيءٍ حينما يصل به الألم والظلم إلى نقطة معينة من التشبّع به.

وأسبابٌ كثيرةٌ أخرى صارت عقبة في طريق تقدّمهم وتحرّرهم.

وآخر صورة من صور التعسّف هي إجبارُ الفلاّح الهرري على بيع أبقاره إلى شركة (إنكودا) اليهودية، بعد أن اكتشف أنَّ هذه الأبقار لا تذهب إلى مصر، وبالطبع لم نستطع إزاء ذلك أن نفعل شيئاً.

هذا هو موجز لحال المسلمين في الحبشة عامة، وفي (هرر) خاصة.

واسمحوا لنا بتقديم أنفسنا كهاربين من هذا الاضطهاد والإرهاب والظلم والوحشية.

ذلك أننا اشتركنا في كثير من المقاومات السرية ضد الحكومة، وانتقلنا إلى كثير من البلدان الإسلامية نفتتحُ فيها المدارس الصغيرة لتعليم اللغة العربية، ونعرّف الأهالي ما يهدّد مستقبلهم ومستقبل أبنائهم.

وحينما كان يُكشَفُ أمرُنا كان إغلاق المدارس والاستجوابات والسجن أحياناً هو الجزاء لهذه الأعمال.

وقد ذهبنا إلى (هرر) ثم (دسي) ثم (عروس)، وأخيراً ذهبنا إلى (دريدوه) حيث افتتحنا مكتباً للقرآن والقراءة العربية، واستطعنا أن نصمدَ أكثر من سنة، وهيّأنا بذلك أسبابَ الاستمرار، وجعلنا الشعب يلتف حول هذا العمل. .

ثم عرفنا أنّ الحكومة تسعى إلى تلفيق تهمةٍ هي وجود علاقة ضارّة بالبلاد بيننا وبين مصر، فحاطتنا بشبكة من الجواسيس، وكان ـ لحسن الحظ ـ لنا من بينهم أصدقاء أنقذونا في آخر لحظة، وكان الخيط الوحيد الذي أمسكت به الحكومة ـ لتبني عليه حكمها ـ أنَّ كلاً منّا كان في مصر مدة من الزمن، وعاد ليواصل الكفاح في الإجازة، وهكذا بقينا مراقَبين مدة طويلة، واستطعنا أخيراً الهرب، ولم يكتشفوا ذلك إلا بعد وصولنا إلى السودان، ذلك لأننا خرجنا في أيام كانت أعياداً مسيحية متوالية، وتلتها أعياد إسلامية، فانتهزنا هذه الفرصة للهرب، وقد أخطروا السفارة الحبشية في السودان للاتصال بحكومة السودان لإعادتنا، ومن حسن الحظ أننا عرفنا ذلك في الوقت المناسب ووصلنا إلى مصر.

وكنا نعتقد أننا سنجد آذاناً صاغية، وقلوباً رحيمة، ورجالاً يفهمون قضيتنا، لكننا أينما ولينا وجوهَنا قوبلنا بفتورٍ وقلّة اكتراث، حتى كدنا نشكُّ في أننا مسلمون، أو أنّنا بين مسلمين!.

وأخيراً طلبنا العونَ لكي نحيا فحسب، طلبناه من كل هيئة تهتمّ بالشؤون الإسلامية، وفي مقدّمتها المؤتمر الإسلامي، الذي تركنا نتردّد عليه أكثر من سبعة أشهر، ثم قال لنا أخيراً: ليس لدينا عونٌ نستطيعُ تقديمه لكم! وعجبنا لماذا لم يصارحنا بهذه الحقيقة مِنْ أوّل الأمر؟!.

إنَّنا نأسف إذ نقول: لقد اكتشفنا أنَّه مؤتمرٌ اسميٌّ لا إسلامي، وأنّ قضايا المسلمين ـ ومن بينهم مسلمو الحبشة ـ آخر شيء يهتمُّ له المؤتمر.

كنا نأمل أن يأخذ بيدنا، ويوجّهنا إلى ما فيه خيرنا وخير أمتنا.. ولكن هيهات.

والتحقنا بالأزهر، فوجدنا فيه ما يحفظُ علينا أنفسنا ـ أو بتعبير أدقّ ـ ما يقيمُ أَوَدَنا.

وما لهذا جئنا، فإنَّ علينا واجباتٍ كثيرة، نريدُ أن ننهضَ كيما نحرر أمتنا، ونصون عقيدتنا.

إنَّ (الأزهر) يعطينا ما يسدُّ الرمق، فمن أين نأتي بما يعيننا على إنجاح قضيتنا وإنقاذ إخوتنا؟!.

إنَّنا لم نأتِ طلبةَ علمٍ فحسب، بل جئنا ليرانا العالم على حقيقتنا: مآسي تَعرضُ نفسها في صمتٍ، علّها تجدُ دمعةً تترقرق لوطنٍ منكوب، وإسلام مستباح، أو لسانٍ يقول: أوقفوا هذه الجرائم في الحبشة، واحموا حرية العقائد، واكفلوا حقوق الإنسان.

جئنا لنطالبَ (الأزهرَ) ـ وغيرَ (الأزهر) من الهيئات الدينية ـ ليبعثَ بعوثاً علمية إلى المسلمين هناك، المسلمين المحجوبين عن النور والعدل، المتطلّعين إلى الإنصاف والرحمة، إنّنا نطالِبُ المسلمين هنا بأداء هذا الحق إن كان لديهم ذرة من الحمية الدينية أو الأخوّة الإسلامية أو العاطفة الإنسانية، ولو كلّفهم ذلك تقديم شكوى إلى الأمم المتحدة (فرع حقوق الإنسان).

وإذا كانت حريةُ التبشير مكفولةً للجميع، فمن حقِّ (الأزهر) أو (المؤتمر الإسلامي) أن يطالبا بذلك أسوة بالآخرين.

ثم ما الذي يمنعُ أن تكونَ الروابطُ بين مسلمي الحبشة و(الأزهر) مثل الروابط بين الكنيسة الحبشية وأقباط مصر؟!.

إنَّ الحكومةَ المصرية لم تمنع تدخّل البعثة التي قدمت أخيراً لحل المشاكل المعلّقة بين الكنيستين، لماذا لا يطالب (الأزهر) ـ أو غيره ـ بحقّ النظر في شؤون المسلمين الأحباش؟!.

إنَّنا نأمل أن نجد مَنْ يتبنَّى هذه القضايا، ويبذل الجهد لإنجاحها، وقد أودعنا صدوركم هذه الأمانة، وعسى أن يوفّقكم الله لحملها.

نرجو أن تُسمِعوا شكوانا كلَّ أُذُنٍ، وأن تلفتوا إليها كلَّ قلبٍ، وأن تنتهزوا لنشرها كلَّ فرصةٍ، وألا تكفُّوا عن شغل الأذهان بها ـ وإن كان دأبكم دائماً ـ لعلَّ الله يكشف الغمّة، وينير الطريق.

* * *

وليس لديَّ ما أقوله إلا أن يراجعَ المسؤولون موقفهم من هذه الدولة

الجائرة الكنود، وأن يُميطوا اللثام عن سياستها الجائرة ضد الكثرة المسلمة المغلوبة على أمرها، وأن يفضحوا النفاق الذي يبرزُ به البعض حين يتّصلُ بنا كأنّه صديق، وهو مع الاستعمار ضالع، ولأعداء العروبة عونٌ، وللإسلام وأهله خصوم، خبيث العداوة حقير الأسلوب.

إنَّ كارثـة المسلمين في الحبشـة يجبُ أن تطوفَ أنبـاؤها العالم، وأن تنكشف تفاصيلها للقريب والبعيد.

ولا بأسَ أن يضيفَ المسلمون بها جديداً إلى معارفهم، فهم وإن ألفوا من سورات التعصّب ما ألفوا ـ ينبغي أن يتأملوا في هذا الدرس الجديد، وأن يقارنوا بين معاملة ومعاملة، وسياسة وسياسة.

ولله عاقبة الأمور.

* * *

ليست الصليبيّة والصهيونيّة ديانات

معروفٌ أنّه من تمامِ اعتقادِ المسلم التصديق برسالتي موسى وعيسى عليهما السلام، والإيمان بأنهما مثل (محمد) ﷺ في التلقّي عن الله، وإبلاغ هداياته للخلق، وأنّ توجيه أيّ انتقاص لقَدْر واحد من أولئك الأنبياء العظام يُعدُّ خروجاً عن الإسلام، وجحداً لكتابه . .

والمسلم ـ إذ يؤمن بموسى وعيسى ـ يعتقد أنَّ الوحيَ الذي نزل عليهما حق، وأنَّ القرآنَ نزلَ مصدِّقاً له، كما يعتقد أنَّ الرجال الذين اتّبعوهما هم عبادُ اللهِ الصالحين، وأنَّهم نصروا الله ورسله، واستحقّوا على ذلك الجزاء الأوفى.

فالمسلم يرى أنّه موصول الحبال بموسى وعيسى، موثق الصلات بالرجلين الكبيرين وبغيرهما من المرسَلين، وأنّه أحقّ بالنسبة إليهم من أولئك المزوَّرين الذين يزعمون الانتماء إليهم وهم ـ بما يفعلون ـ كاذبون ومكذّبون ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

أجل . . إنَّ محمداً ومَن معه هم على الطريق العتيدة، التي مضى فيها من قبلُ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

* * *

أما **اليهودية** بعدما تحوَّلت صهيونيةً، وأمَّا النصرانية بعدما تحوّلت صليبيةً، فقد انخلعتا من كلِّ شعارٍ يربطهما بأنبياء الله، وينسبهما إلى السماء . .

وأحوال الفريقين الآن على النقيض التام من أحوال السلف الصالح الذي صحب موسى وعيسى عليهما السلام.

كان اليهود الأقدمون ضحايا الجبروت والاستعلاء، وكانوا مستباحي الدماء والحُرُمات، وكان فرعون ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ [القصص: ٤]، فاتّجهت جهودُ أنبياء الله إلى تحرير رقابهم، واستنقاذهم من العذاب الهون.

فانظر إلى الأرقّاء بعد ما أعتقوا.

لقد تحوّلوا اليوم إلى فراعنة، يعلون في الأرض، يستضعفون مَنْ وقع في براثنهم.

أي أنَّ الرسالة التي بدأت باستنكارِ الفساد والعدوان قد حوَّلها اليهودُ إلى أداةِ إفساد واعتداء.. أما كان أولى بهم أن يتمسّكوا بالعدل ويلتزموا الإنصاف؟!

وأما **المسيحية** فإنَّ أبرز خلال رجالها الأولين الرقة واللُّطف، وقد وصف الله عيسى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

واستخراج الرأفة والرحمة من قلوب الصليبيين الآن يشبهُ استخراجَ المياه من الصحراوات القاحلة.

إنَّ صناعات الموت، ووسائل الفتك، وأسباب المحن والرزايا، ما تجود الآن في مكان مثل ما تجودُ في أقطار الغرب الصليبي.

وما ابتأستْ بلادٌ بدخولِ قومٍ فيها مثل ما ابتأسَتْ الأقطارُ المتخلّفة بدخول الرواد والمكتشفين الغربيين، لقد تحوَّلت الرأفة والرحمة إلى لعنة وهمجية.

ونحن حين نستقرئ أخبار المستعمرين والفاتحين الأوروبيين والأمريكيين نزدادُ يقيناً بأنَّ القومَ لا علاقةَ لهم بعيسى عليه السلام ولا بكتابه، إنَّ البونَ بعيدٌ بين وحي الله، وما في أيدي القوم الآن من تراثٍ روحيٍّ مضطرب.

ولندع الصهيونية جانباً لنتأمل في المسيحية..

فإنَّ الصهيونيةَ لا تكيدُ كيدَها اليوم إلا وهي في حماية دول أوروبة القوية، أو على الأصح بتحريضها السافر.

تُرى ماذا دهى المسيحية حتى صادقت اليهود، وخاصمت الإسلام، وقرَّرت إيذاء أهله وتحطيم آمالهم؟!.

هل للانحراف الذي دخلَ على النصرانية أثرٌ في قسوتها على خصومها، ورغبتها في الاستئثار بالسلطان واجتياح المعارضين؟.

إننا نكادُ نَجزمُ بأنَّ ذلك هو السرّ الكامن وراءَ التعصّب البالغ الذي عُرفَ به تاريخ القوم.

فقيام عقيدة ما بعيداً عن قواعد المنطق معناه رفضُ الجدل في أساسها، ومنع الفكر من التعرّض لها، وخلق جوٍّ لا يسمَحُ بالعيش لغيرها.

وذلك في نظرنا هو السبب الوحيدُ لسياسةِ الإكراه والتزمُّت والأثَرَة التي برزت في تاريخ المسيحية، كما لم تبرز في تاريخ دين آخر.

ونحب أن ننقلَ هنا ـ دون أن نناقشَ ـ ما كتبه الفيلسوف الفرنسي (هنري دي لاكروا)[1] في شرح أصول المسيحية، وطرق سيرها إلى الضمائر والعقول.

قال: «ولننظر في الاعتقاد المسيحي: إلـهٌ ينزل إلى الأرض ليفتدي الإنسانَ، وإلـهٌ واحدٌ في ثلاثةِ أشخاص..!.

هذا الاعتقادُ لا يماشي العقلَ، ورجالُ اللاهوت أنفسُهم يعلمون ذلك حق العلم، والمؤلّهة[2] أنفسهم يترددون بإزاء إلـهٍ كهذا مكوَّن من ثلاثة أشخاص، إلـه له طبيعتان: طبيعة إلـهية وطبيعة بشرية، يتردّدون بإزاء كائنٍ خالدٍ صمدٍ يصبحُ إنساناً، فيتألّم كالإنسان ليفتدي خطايا البَشر..!!.

إنَّ في المسيحية أنواعاً من المعتقدات العجيبة، يلقى أرسخ المدافعين عنها أكبر الصعوبات في تسويغها.

ومعنى ذلك أنّ الاعتقاد بشيءٍ غير عقلي قد تؤمنُ به أحياناً لأسباب عقلية، وأحياناً أخرى لأسباب غريبة عن العقل!.

ومن ثَمَّ فالإيمانُ الدينيُّ لا يمكنُ أن يكونَ إيماناً عقلياً محضاً.

ومع ذلك يسعى هذا الإيمانُ إلى أن يكون عقلياً! لماذا؟

لأنَّه بدون مسوّغ عقلي لا يمكنُ لأيِّ اعتقاد أن يبدو شيئاً مشروعاً.

وإذا كنّا نستطيعُ أن نؤمنَ معفين أنفسنا من فحص أدلّة ذلك الإيمان، فلماذا لا نؤمن عندئذٍ بكلِّ الخرافاتِ التي ترويها الأساطير القديمة؟!.

---

(١) عن كتاب (من القديم إلى المواطن الحديث) ترجمة وتعليق الدكتور محمد مندور.

(٢) المؤلهة: هم الذين يقولون بوجود الله، وينكرون الوحي والرسالة، ويمثّلهم بفرنسة في القرن الثامن عشر: روسو، وفولتير، ومونتسيكيو.

ومن هنا وجبَ أن تكونَ لدينا أسبابٌ معقولةٌ لِما نؤمنُ به، وأن نبسطها للآخرين».

ثم يقول: «ولكنّه إذا كانت الأسبابُ مسرفة الوفرة، خرج الإيمان الديني عن أن يكون قلبياً حقاً، صادراً عن إلهام من الروح المقدّسة!.

وهنا الحيرةُ التي يقعُ فيها المسيحي فيما يتعلّق بالإيمان».

ونحنُ نقول: أيُّ حيرةٍ تُنتظر إذا كثرتِ الدلائلُ على صحّة شيءٍ ما؟!.

لا حيرةَ أبداً، بل إنَّ النصرانية يعوزُها كلَّ الإعوازِ أن تُقيمَ كيانها الأدبي على أثارةٍ من علم.. ولذلك فهي تجنحُ إلى جعلِ الإيمان أمراً من أحوالِ القلوب، فراراً من سطوة العقل عليها، وهو يفنّدُ أصولها، ومن ثَمَّ نراها تبني دعايتها العامة وأسلوبها الخاص في التربية على ما يلي:

١ ـ أزِح العوائقَ الفكرية أمامَ سيرِ الإيمان، وعوّد نفسَك الاستسلام للترّهات، واغضُض الطرف عما يضيقُ به عقلك، فذلك تمهيدٌ فعَّالٌ لحُسنِ التديّن.

٢ ـ لا تعوِّل على قيمةِ العقل، ولا تربط ثقتك بأحكامه، فالعقلُ قاصر.

٣ ـ الإيمانُ منحةٌ لا كسبٌ، أي أنَّ الإنسان مهما اجتهد فمستقبله مرهونٌ بعوامل خارجية هي الحاسمةُ في مصيره.

وهاك ما يذكره في تفسير هذه الأمور الثلاثة (هنري لاكروا). قال: «لكي ننفثَ شيئاً من الحياة في هذا العرض النظري، دعنا نأخذ (بسكال)[1] كمثل، وهو

---

(١) بسكال عالم الرياضيات والطبيعة: فيلسوف فرنسي شهير، حدثت له حادثة بجوار جسر بُنِيَ على مقربة من باريس، ومنذ ذلك الحين أخذت تتراءى له مشاهد هذيانية، يرى فيها هوة إلى جانبه يكاد يسقط فيها، فاتّجه منذ ذلك الحين إلى الدين، واعتزل في (دير بودرويال) حيث أخذ نفسه بالتقشف والزهد، وقد دافع عن مذهب (جنسينيوس) في (خطاباته الريفية) وهاجم خصومه الشيوعيين أعنفَ هجوم، وهو كاتبٌ مفكر ذو عبقرية فذة، ولقد مات قبل أن ينتهي من إتمام (دفاعه عن المسيحيين) فنشرت الأجزاءُ التي كتبها بعنوان (الأفكار). ولد سنة ١٦٢٣م ومات سنة ١٦٦٢م، وآراؤه التي يبسطها المؤلف موجودة في (الأفكار).

قد حلَّل الإيمان المسيحي تحليلاً بالغ العمق، فقال بوجود ثلاث وسائل للإيمان المنشود هي: (العقل، والعادة، والإلهام).

فالعادة وسيلةُ ما سمَّيتُه بالإيمان الضمني، **والعقل** وسيلةُ الإيمان العقلي، **والإلهام** في نظر الباحث النفسي وسيلةُ الإيمان العاطفي.

للعُرف أو للعادة عند (بسكال) فضلٌ كبير، إذ يمحو العقبات من سبيل الإيمان.

فالرجلُ الذي يأخذُ ـ قبل أن يؤمنَ ـ في تأدية الشعائر كما يؤدّيها المؤمن يُعِدُّ نفسَه بعمله هذا للإيمان، وذلك أولاً لسبب سلبي، هو محوه لنوع من الحياة لا يتفق وطبيعةَ الإيمان، وأنتَ إذا أسلمتَ نفسَك للذات والشهوات لن تصلَ إلى الإيمان مهما أجهدتَ عقلك.

وعلى العكس من ذلك: عِشْ كما لو كنتَ مؤمناً، وأرغم نفسَك على ذلك النوع من الحياة، ترى أنك قد حطمتَ العقبةَ الأساسيّةَ، إننا بعمل ما يعمله المؤمن نصلُ أحياناً إلى أن نوحي لأنفسنا بالإيمانِ نفسه، وهذه ملاحظةٌ نفسية بالغةُ العمق، ونحن نعلم أنّه في تصنّع عاطفة ما بدءٌ بالإحساس بها.

فإذا عملنا على التمكين لذلك الموقف، وأخذنا في تنمية البذرةِ لن نلبثَ أن نخلص من عملنا هذا بصورةٍ تخطيطيةٍ صادقةٍ لتلك العاطفة.

وكذلك الأمرُ في الإيمان، فالرجلُ الذي يرغِمُ نفسَه، ويَسْتَبِلهُ، فيأخذُ من الماء المقدّس، يمكن أن يبدأَ في الإيمان بتصنّعٍ صادقٍ، ومن ثَمَّ يصبحُ في النهاية وقد أحرز إيماناً قوياً.

وللعادة أثرٌ آخرُ، فهي تمكّن للاعتقاداتِ، وتثبت في النفس أعرق النتائج والحُجج التي تصل إليها ـ بعد الجهدِ النظري.

وليس هذا مبدأ آخر، وذلك لأننا لسنا الآن بإزاء إرغامنا لأجسامنا ـ وإنّما نحنُ إزاء مؤمن اجتمعت لديه أسباب للإيمان، ثم أتت العادةُ فثبّتت في نفسِه أعرقَ النتائج التي استخلصها مما لديه من حجج، وبذلك أعفته مِنْ وضعها باستمرار نُصْبَ عينيه.

والوسـيلة الثانيـة هي **العقل**، و(بسكال) ـ بلا ريب ـ لم يترك له إلا مجالاً ضيقاً، وسوف ترى لماذا فعل ذلك، ومع هذا فإنَّه يستخدمه».

إنَّه يستخلص من الانتقادات التي يوجهها العقلُ لنفسِه سبباً للإيمان.

وما هي العقبة الكبرى التي تعترض المسيحي؟.

أليست العقل الذي يناقش الدين؟!.

لكنَّ العقل بنقدِه لنفسِه لن يلبثَ أن يعترفَ بوجود عدد كبير من الحقائق التي تتجاوزه، فيعجز عن إدراكها، وبذلك يُسلّم بأنَّ الحقيقة المطلقة ليست في الواقع في متناوله.

فإذا صحَّ ذلك، فلماذا لا نُسلِّم بأنَّ الاعتقاد الذي يعدو العقلَ يمكنُ أن يكونَ صحيحاً؟.

و(بسكال) يحاول أن يُظهر أنَّ اليقينَ نفسَه، وأنَّ الوضوحَ نفسَه فيهما شيءٌ لا يمكن التدليلُ عليه، ثم يقول: «إنَّنا نُسلِّم بنوعٍ من الجبر الداخلي الذي لا يمكن تعليله، وهو أشبهُ ما يكون بالغريزة»، ثم يقول بعد ذلك كلِّه: «إنَّ للقلبِ حججهُ التي لا يعرفها العقل».

قلب وغريزة ومبادئ...!..

وعالم الهندسة هذا يزعمُ أنّه يصلُ في نهاية برهانه إلى أشياءَ من الوضوح بحيث لا تقبل برهاناً، وهو يُسلِّم بها بحافز شعوري، لا بإيمان عقلي يمكن تبريره، ومن ثَمَّ فإنَّه لما كان القلبُ عند (بسكال) هو الذي يحسّ بوجود الله لا العقل، فإنَّ ذلك الإلـه الذي يدركُه القلبُ يصبحُ إلـهاً مشروعاً أمامَ العقل بحكم نقدِ ذلك العقل لنفسه...

وهذا ليس معناه عدم وجودِ أسبابٍ للإيمان كما يرى!.. فهناك ـ مثلاً ـ معجزات (المسيح) وفيها يرى (بسكال) سبباً للإيمان. ولكن العقل يقبَلُ الشكَّ فيها، لما فيها من ضياء وظُلمة، وفي ضيائه أحياناً من الاضطراب ما يمنعنا من أن نستسلم إليه طائعين. ومن ثم يعجز بنفسه عن أن يحملنا على التسليم.

وإذن فأسباب الإيمان ليست حاسمةً بالنسبة إلى المؤمن، ووظيفة العقل

الأساسية في الإيمان العقلي ليست إلا في نقده لنفسِه .

وهذه الفكرة قد استخدمها رجال الدين مرّات كثيرة، محاولين تحطيم العقل بالعقل نفسه وذلك خدمةً للإيمان! .

هل انتهيتَ من قراءةِ هذا الدفاع المتين عن الدين بعد انفصالِه عن العقل؟ إنَّ هذا الكلامَ المنمَّق المزوَّق اسمُه فلسفة، وأول تلك الفلسفة أن تتباله وتتغابى لتبلع النقائض المستعصية وتتعوَّد الإيمان .

وثانية : أن تقتحم على العقل مكانَه العتيد، وتقول : ما أنت؟ .

وهنا مغالطة مكشوفة تضمُّ ما يَستعصي على العقل فهمُه إلى جوار ما يَحكم جازماً باستحالته .

والبون بعيد .

فما يعجزُ العقلُ بطبيعته عن إدراكه والحكم فيه ـ لأنَّه وراء ما قلته ـ شيءٌ غير ما يمكنُه تصوّره، والبتّ فيه برأي حاسم .

واتّهامُ العقل بالقصور في المسائل الأخيرة، لأنَّه عاجزٌ في المسائل الأولى كلامٌ فارغ، وما نظنُّ (بسكال) إلا مخبولاً ساعة قاله . . ولكنَّ هذا الخبل فلسفة دين! .

ثم تجيء وسيلة أخرى للإيمان .

«والوسيلة الأخرى هي **الإلهام**، والإلهام عند (بسكال) هو الشعور القلبي الذي يحمِلُ الإنسانَ على أن يهبَ نفسه .

يهبها هبةً تامةً كما يفعل المؤلّهون .

والإيمانُ أشبه ما يكون بالوله، ولكنّ الإلهام أيضاً التفاتة إلـهية، إنَّه فيضٌ من الله» .

أقول : وهذا أسلوبٌ في الفهم والإقناع لا قِبَلَ لنا به .

وأخوفُ ما نخافه ـ بعد الزعم بأنَّ الإيمان هبة عليا ـ أن يعتبر المحرومون من هذه الهبة أنجاساً تستأصل شأفتهم، وتستباح حرياتهم وحقوقهم، لأنَّ بركات السماء لم تحل بهم .

ويظهر أنّ نظرة النصارى إلى معارضيهم في قصة التثليث والصلب تأخذ هذه الوجهة المعينة.

وهنا يقوم السيف مكان الحُجَّة، ويقوم الإرهاب مكان الإقناع، وتلجأ الكنيسة في معاملة خصومها إلى الاضطهاد والمصادرة، ومن وراء هذه السياسة شعور بأنَّ المعارضين قومٌ خلتْ قلوبُهم من نفحاتِ السماءِ، وحلَّت مكانها أرواحُ الشياطين، ولذلك ينبغي أن يُضربوا دون هوادة.

* * *

إنَّ الحياةَ الإنسانية سوف تمرُّ بأدوارٍ طويلة من الشقاء ما بقيت هذه الأفكار تسودها.

ونحن نعلم أنَّ الصليبية جرَّبت سياسة القوة والعنف أزمنةً متعاقبةً، أو جرَّبت سياسةَ الخَتَلِ والمداراة التي تسندُها المدافع والقاذفات، كما يحدثُ في ذلك العصر.

فهل لها أن تجرِّب سياسة الأدب والملاينة، واحترام العقل، وقبول العيش إلى جوار مبادئ أخرى؟.

وسواء قبلت أم رفضت. . فإنَّ الإسلام لن يدعَ سبيلاً يبقى عليه حق العبادة إلا سار فيها.

فإن كانت السلمُ، فبها ونعمت، وإلا استقتل في الذود عن حقيقته وحماه.

* * *

من تزوير التاريخ على نطاق واسع ـ بدوافع من التعصب الأعمى ـ إنكار فضل العرب والإسلام على أوروبة وعلى حضارتها العلمية وتقدّمها الفكري والصناعي.

حتى إنَّ كثيراً من المتعلمين الجُدد يجهلون أنّ هناك أثراً ما لحضارة العرب في حركة الإحياء التي عمَّت الغرب من بضعة قرون ونقلته من حال إلى حال!.

وهذا الجحود المطبق لا يستندُ إلى أثارة من حق، بل لا سناد له إلا الحقد على الإسلام وأهله، ومحاولة انتقاص هذا الدين، والغضّ من شأنه، وتجريده من كل خير، ثم إظهاره وكأنَّ العالم لم يجنِ من وجودِه إلا الشوك والحنظل!.

وللكتَّاب الصليبيين جهدٌ غيرُ مشكور في إشاعة هذا الزور، فقد علَّموا قومهم أنَّ (محمَّداً) ﷺ . . . كافر! وأنَّ أتباعه همج مخرّبون، وأنَّ دينه في القرون السالفة لفَّ الدنيا في ليل ما له فجر!.

ومع أنَّ ضياء الحقيقة الكبرى بدَّدَ هذه الأوهام، وجعل الألوف المؤلَّفة من أصحاب النظر السليم يحتقرون مصدرها، ويزرون عليه، إلا أنَّ العوام وأشباههم من ضعاف الرأي لا يزالون يكرهون الإسلام ونبيّه من آثار هذه الدعايات البذيئة.

وهم يظنون المسلمين أمة تعبدُ محمداً ﷺ، وتعالج نوعاً مبهماً من الطقوس الوثنية، وتعاشِرُ الرذائل بنَهَم، وتكره المعرفة، وتتنكّر للحضارات، وتقوم بتخريبها إن واتتها فرصة!.

وإن كان لفيفٌ من رجال الكنيسة القدماء والجدد، يشتغلون بترويج هذه السخافات عن الإسلام، فماذا نقول؟ وبماذا نردّ[1]؟.

---

(١) انظر كتاب المؤلف (صيحة تحذير من دعاة التنصير)، وهو من منشورات دار القلم بدمشق. (ن)

وإذا كانت صياغة التاريخ الإنساني قد خضعت لهذا السقوط الخُلُقي فكم من الجهود نبذل لنصحح الأوضاع ونجرف الأباطيل؟ .

نحن نعلم أنَّ هناك أوروبيين استيقظوا من ضلالهم، واطَّرحوا هذا العبثَ في تصور الإسلام وتاريخه.

بَيْدَ أنَّ الجماهير لا تزالُ تجهل حقيقةَ فضلِ الإسلام على العالم منذ ظهر إلى يوم الناس هذا.

إنَّه لولا الإسلام ـ لبقيت أوروبة كما عاشت خمسة عشر قرناً لا تحسن شيئاً ألبتة من دين الله ولا من دنيا الناس.

نعم.. لولاه لظلَّت الأحوال الخُلُقية والاجتماعية والعلمية والعملية كما غبرت طول هذه القرون جامدة بليدة، ولبقيت (أوروبة) هذا الدهر الطويل ـ كما بقيت أواسط إفريقية منذ القِدَم إلى أن اكتُشفَت ـ تحيا على نسقٍ واحد، ويشملها ـ على اختلاف الليل والنهار ـ مستوًى إنساني محدود.

لولا أنَّ الإسلام دخل (أوروبة) كما دخلت الحضارة الحديثة بلادَ الزنوج ما عرف الأوروبيون شيئاً عن المدنية، ولا نالوا قسطاً من ارتقاء.

والفارق بين الحالين أنَّ الإسلام لم يضنّ على الأوروبيين بنور يمشون عليه، أما الغربيون فهم يُسخِّرون اليوم تفوّقهم في إذلال الآخرين واستغلالهم.

كان كل شيء في (أوروبة) راكداً كالمستنقع الآسن، وكان يمكن أن يبقى كذلك إلى يوم النشور لولا العرب المسلمون الذين سكنوا الأندلس وجنوب إيطالية، وشرعوا يصدّرون الرقي والازدهار إلى قبائل الغال والقوط والوندال والسكسون والجرمان وإلى غيرهم من شعوب أوروبة.

إنَّ الأصول العقلية والنفسية للحضارة الحديثة لم تنبت من داخل أوروبة، وكلّ مطَّلع على طبيعة الحياة الأوروبية في الخمسة عشر قرناً الأولى للميلاد يجزم بأنَّ أوروبة وحدها ـ بما تألف من أفكار ومشاعر ـ لا تستطيع أن تكون شيئاً يُذكَر.

وأنَّه لولا ما وفد عليها من فكر خارجي، وهِمَّةٍ لا عهد لها بها، ما استطاعت أن تتغيَّر وترقى.

لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية ـ لأوروبة ـ كمواد الخصب ولجج الماء العذب بالنسبة للصحراء كي تزدهرَ وتنتجَ، وإلا فستبقى الصحراء لا تنفح إلا السموم، وستبقى أوروبة كما عاشت ألفاً وخمسمئة سنة بعد الميلاد، لا تطفحُ إلا بالعمى والجهالة. . ولا تقدِّم لها النصرانية بصيصاً من نورٍ وهداية.

ودعكَ من الكنود القذر، الذي تواصى به الأحبار والرهبان لغمط هذا الفضل وإنكاره على ذويه.

على أنَّه كما وُجِدَ في حاشية فرعون مؤمنٌ ينكر ألوهيته، وُجِدَ بين مفكّري أوروبة مَن أنصفَ العرب، ونسب إليهم فضلهم المنكور، وعاب على قومه هذا الجحود الغريب.

وإنني أوصي كل قارئ عربي بمطالعة كتاب (فضل العرب على الإنسانية) الذي ألَّفه (روبرت بريفال)[1]، وسيبهرك في هذا الكتاب الصغير أن تجدَ العرب هم وحدَهم الأساتذة الذين علَّموا أوروبة ما لم تكن تعلم، حتى لتحسبَ أنَّ ازدهارَ أوروبة الآن هو التكملة الطبيعية والامتداد العادي لرقي العرب الأوائل، وطول باعهم في شؤون العمران وأصول الحياة.

وإنَّ انحطاط المسلمين الآن هو التكملة التبعية والامتداد العادي لجهالة أوروبة القديمة وقصورها الفكري والاجتماعي.

ولا غَرْوَ فإنَّ المسلمين من قرون طوال لم يُقدِّروا النعمةَ التي حبَتهم بها المقادير فعبثوا بالإسلام، وزاغوا عن هديه، وناموا في ضحاه الغامر. كأولاد الغني الذين ورثوا كنوزه دون كدح، ثم شرعوا يبعثرونها بسفهٍ، على حين يوجدُ حولهم نفرٌ من الفقراء، الذين عرَّفتهم الحاجةُ قيمةَ المال، فهم يحرصون عليه، ويجمعون منه ما يُفرقه الورثة المخبولون.

وتمرّ السنون على تلك الحال، فإذا أغنياء الأمس صعاليك، وإذا صعاليكه ملوك، ولا بأس على ملوك اليوم أن يختلقوا لهم أنساباً عريقة، وأن يرموا خصومهم بكل موبقة ويجرّدوهم من كلّ شرف.

* * *

---

(١) ومثله كتاب زيغريد هونكه الكاتبة الألمانية: شمس العرب تسطع على الغرب.

ولنلقِ نظرةً على كتاب (فضل العرب على الإنسانية): إنَّه يتّسمُ بالطابع العلمي المجرَّد، وإن كان صاحبه لم يخلص كلَّ الخلوص من بعض رواسب البيئة التي عاش فيها، فانساق ـ دون تعمّد ودون غرض ـ إلى إرسال بعض الأحكام على الإسلام، لم يطرد فيها ـ للأسف ـ النسق العلمي الجميل الذي شاع في سائر بحثه، والذي ترقرق في فصوله كلّها طولاً وعرضاً.

بَيْدَ أنَّ الهنات لا تمنعنا من تقدير الحقيقة العظيمة التي جلاّها هذا المؤلّف الكبير، وأبرزها في إطارٍ من الأدلّة الحاسمة، دلّت على سَعة نفسه، واستبحار علمه، وشمول نظرته ونقاء صحيفته، تلك الحقيقة هي فضل العرب على التقدّم العلمي في الغرب، وأثر حضارتهم الزاهية في حركة البعث التي أحيت أوروبة من موتٍ طويل.

لقد ظلّت أوروبة سبعةَ قرون قبل ظهور الإسلام وثمانيةَ قرون بعد ظهوره، وهي لا تعرفُ شيئاً طائلاً عن فلسفات العالم القديم، بله أن تستفيدَ من هذه الفلسفات في رفع مستواها الذهني ودعم مكانتها الأدبية، ثم تحرّكت (أوروبة) وبدأ عصر النهضة يهزّها من سُباتها، فما الذي جَدَّ عليها؟.

وما الذي بدَّل حياتها من جهلٍ إلى علم، ومن ظلامٍ إلى نور؟.

يقول أصحاب الغرض ومنكرو الفضل: إنَّه تراث يونان وأثر أثينة ورومة...

عجباً.. فقد كان ذلك أجمع ركاماً مندثراً في أعماق الماضي، ظللتم بإزائه دهراً طويلاً فما حبسكم عنه؟ وما منعه عنكم؟.

يقولون: لقد جاء به إلى الغرب علماءُ دولة الروم الشرقية بعدما سقطت عاصمتها في يد الترك، ومنذ هاجروا بدأ عصر الإحياء.

نقول: لقد ظلّت دولة الروم الشرقية ومعها هذا التراث ألفاً من السنين فما صنعت به؟ إنَّها ما رفعت به رأساً، ولا أعلى مستواها الماديَّ والأدبيَّ في قليلٍ ولا كثير.

الحقيقة التي أراد الغرضُ السيِّئ ـ أو الحقد الرديء ـ أن يطويها هي فضل

العرب على الإنسانية كلّها وعلى الفرنجة خاصة.

إنَّ نهضة العرب الكبرى إبّان العصور الوسطى كانت الأصل الأول لحركة البعث العلمي والإصلاح الاجتماعي والمدني في أوروبة.

وإنَّ الأندلس وجنوب إيطالية وشرق أوروبة كانت معابر فيّاضة بالنشاط الإنساني الراقي لتمدين بلادٍ غبرت عليها العصور، وهي لم تتذوَّق طعماً للمدنية، بعدما طاحت رومة وأثينة، وعفَّى على آثارهما الزمن.

ونحن نستغرب هذا الكنود، ونرى لزاماً علينا أن نُذكِّر أبناءنا به، لا لشيء إلا ليعلموا ما لهم من حقوق، وما تكنّه أفئدةُ الآخرين من عقوقٍ وحسب.

ويسرُّنا أن يوجدَ علماء منصفون من رجالات الغرب يروون الحقيقة العلمية غير مشوبةٍ بلوثات التعصّب الأعمى، ومن بين هؤلاء العلامة (روبرت بريفال) الذي ملأ كتابه بالأدلة القاطعة على ما للعرب من أيادٍ سابغة، أهَّلهم لأدائها تفوّقهم العظيم على العالم كله يومَ كان أزمّة العالم في أيديهم..

فهذا العالِم المنصِف يستعرض تاريخ أوروبة في القرون الأولى للميلاد إلى عصر النهضة الحديثة استعراضاً مستوعباً نفاذاً، ثم يجزمُ في ثقة العالِم المستبصر ـ بأنَّ المقدّمات التي تُنتزع من دراسة هذا التاريخ يستحيلُ أن تنتجَ ما يدَّعيه بعضُ المدَّعين من أنَّ النهضة الحديثة كانت جنيناً تمّ تكوينه في أحشاء أوروبة. كلا. كلا..

إنَّها نهضةٌ مجلوبةُ البذورِ من الخارج، واسمع ما يقول:

«إنَّ النورَ الذي اشتعلت منه الحضارة مرة ثانية لم يُشرق من جذوة الثقافة اليونانية الرومانية التي استخفَتْ بين خرائب أوروبة، ولا من الحيِّ الميت على البسفور (يعني بيزنطة).. إنَّه لم يظهر من الشمال ولا من الهاجمين على الإمبراطورية من الجنوب، بل بزغ من العرب».

ثم يقول: «إنَّ النهضة الحقيقية لا ترجعُ إلى القرن الخامس عشر فحسب، بل إلى تأثير العرب والمغاربة في إنهاض الثقافة.

ولم تكن إيطالية مهداً لحياة أوروبة بل الأندلس (إسبانية)، لأنَّ أوروبة ـ

بعد هبوطها المتواتر في الحالة الوحشية من أدنى إلى أسفل ـ كانت قد بلغت الأعماق من الجهل والفساد، بينما مدنُ العالم العربي (بغداد) و(القاهرة) و(قرطبة) و(طليطلة) كانت وحدَها مراكز الحضارة والنشاط العقلي، ومن ثَمَّ ظهرت الحياة الجديدة التي نَمَت في شكل ارتقاءٍ إنساني جديد، ومن امتداد الزمن الذي أثَّر فيها نفوذ ثقافتهم بدأت الحياةُ الجديدةُ تتحرّك».

ثم قال: «وهنا أمرٌ قد ذُكِرَ مراراً، ولكنّه مع هذا قد أُهمِلَ بالعناد، واستَخَفَّ به الإصرارُ.

إنَّ دَين أوروبة (للكلب الكافر) طبعاً لم يجدْ محلاً في نسقِ التاريخ المسيحي.. والتزوير الموصول قد غلب جميع التصورات اللاحقة..

حتى المؤرّخ (جيبون) قد عامل الإسلام بما لا يستحقه، وهذا مثال لسلطان التقاليد العُرفية على أفطنِ مخالفيها. فلم يكن هناك إلى القرن الماضي شيءٌ يوصل إلى العلم الصحيح بتاريخ العرب وثقافتهم..

وأما التقارير التي نُشرت عن محمد ﷺ، وعن الإسلام قبلَ بداية القرن التاسع عشر، فإنّها تستحق أن تُعتبَر تحفاً أدبية محضة[1].

واليوم كذلك حين سهلَ الوصولُ إلى أصحِّ العلم وأوسعه، يندرُ أن يعترفَ تاريخٌ من تواريخ القرون الوسطى برعاية الثقافة الإسلامية للعلم إلا اعترافاً موسوماً بالتحقير.

إنَّ تاريخ بعث (أوروبة) من مواتها قد كُتِبَ دائماً دون إشارة إلى نفوذ الحضارة العربية اللهمَّ إلا بيان (فوز الصليب على الهلال) أو (مطالبة إسبانية بالتحرر من نير العرب)...

كما أنّ الدكتور (أوسبرن تايلو) قد أتمَّ ـ ببراعة ـ مجلّدين كبيرين عن نشوء العقل في القرون الوسطى، ولكن من دون تنويهٍ ما ـ بوجود الثقافة الإسلامية ولا بآثارها العظيمة»!!.

* * *

(١) انظر تاريخ القرون الوسطى في سلسلة تاريخ كمبردج.

ونحن لا ندري متى ينتهي حقد (أوروبة)، ونعجبُ لاطّراد هذا الأسلوب في غَمْطِ حقّنا وجَحْدِ فضلِنا . . ! وقد تكونُ ميادينُ السياسةِ ملأى بالأطماع والمآربِ الصغيرة، لكن أما كان الأجدر بميادين العلم أن تتنزَّه عن أحقادِ الساسةِ وهي تخطُّ تاريخ الإنسانية؟! .

ثم إنَّ الإسلام فتح ذراعيه للعلماء من كل دين! ورفعَ مكانتهم في بلاده دون تحرّج، بل إنَّ الإسلام ترك لكل ذي هِمَّةٍ من أبناء الأديان الأخرى أن يتابع نشاطه، وأن يظفرَ بثمارِ جهودِه من غير تنقّص ولا هوان، أفما كان يجب أن يلقى مثل هذه المعاملة أو بعضها؟! .

إنَّ الأستاذ المؤلّف لا يسعه إلا الاعتراف بهذه الحقيقة في كتابه حيث يقول: إنَّ اليهودَ كانوا يشتركون تحت التسامح التام من قِبَلِ حكومة العرب في الارتقاء الثقافي لدولة الخلافة . .

وعندما انتشروا في أوروبة على الأخص بعد انتصار الموَحِّدين، حملوا تلك الثقافة إلى أبعد أراضي ألبيرية، ونحن نجدُ أنهم كانوا يُعلّمون ويتباحثون بحرية مع ساكني الصوامع المنعزلة، الذين غلبَ على تعصّبهم الديني إعجابُهم بتلك العلوم العربية . . .

فرهبان فرنسة وألمانية كانوا ينالون منهم كتبَ هذه العلوم الجديدة حتى الراهبات المتعلّمات في صوامع (نورنجيان) مثل: (هيلديغارد) الشهيرة و(هروسوتيا) لم تَزْوَرَّا عن الاستفادة من علومهم .

وقد أنشأتا مدارس كثيرة فيما بعدُ مثل مدرسة (كيم هيس) و(بن عذرا) في (ناريون) حيثُ كانت العلوم العربية رائجةً، والعنايةُ بترجمة الكتب العربية قائمة . وكثيرٌ من اليهود تبع (وليم النورماندي) إلى إنكلترة، ونالوا حمايته، وبنوا هناك لأول مرة البيوت الحجرية التي يمكن أن تُشاهَد إلى الآن في (لنكولن) و(سان أندموند سيري) ثم أنشؤوا مدرسةً للعلوم في أكسفورد .

وبإشراف خلفائهم في مدرسة (أكسفورد) ـ هذه ـ تعلّم (روجر بيكون) اللغة العربية والعلومَ العربية .

* * *

أقول: وأثرُ العربِ المتغلغلُ في الفكر الأوروبي، لا يقلُّ عنه أثرهم في التقدّم العمراني والارتقاءِ الفني، إنَّ هؤلاء المتدينين القدامى من حملة الإسلام هم أصحابُ اليد الطولى في إيقاظ اقتصاديات أوروبة!!.

يقول المؤلّف تحت عنوان (تجديد أوروبـة): «إنَّ الحركة الصناعيـة والتجارية للشرق وللعرب في الأندلس وصقلية هي التي خلقت تجارة أوروبـة وصناعاتها».

ومنها تقدّمت الثروة، وتضاعفت القوة لطبقات التجار، ونشأت المدن التجارية، ثم تقوّت الهيئات النيابية، إلى أن اشتبكت بسلطات النظام الإقطاعي، فنشأت قوة جديدة للجمهوريات الحرة ومجالس الشورى قوَّضت ظلم النظام الباروني وعدوانه.

وهكذا دخلت الحريةُ السياسيةُ والنظمُ أوروبة مثل دخول الثقافة، مع رزم الأمتعة من سواحل بحر الروم الشرقية.

وقبل أن تنمو التجارة والصناعة، وقبلَ أن تكبرَ المقاطعات في الجوهر والمعنى بواسطة التجارة الشرقية، لم يكن هناك مجالٌ للثروة، ولا كانت هناك المدن.

إنَّ المدن على سواحل (قلطالونية) و(برانس) كانت أَوْلى تقدّماً وأبرزَ في الأهمية والحياة بوساطة الاتّجار مع العرب.

وكانت الجمهوريات المستقلة قد تأسست في (مارسيلية) و(آرل وينس).

والمصدر الذي صدرت منه تلك الثروة من أقدم الزمن يمكن أن يُستنبط من بيان بطريرك أورليانز (ثيوذولف) في وصف رحلته إلى جنوب فرنسة بوصفه أحد موفدي شارلمان، إذ يقول هذا البطريرك:

«إنّه عند وصولنا إلى مرسيلية جاء الناسُ من الرجال والنساء والأولاد والشيوخ أفواجاً أفواجاً حاملين معهم هدايا، مقتنعين بأنّهم يُقدمونها إلينا ليقضوا بُغيتهم، فأحدهم كان يقدّم البلُّورات واللآلئ الشرقية، والثاني كومةً من قطع الذهب، كانت تلمعُ عليها حروف وعبارات عربية، والثالث كان يقول: عندي

ثيابٌ عربية، لا يمكن أن يكون أي شيء آخر أحسنَ منها في ثباتِ اللون وجودةِ الصناعة، والآخر كان يرينا جلوداً مدبوغة من قرطبة، بعضها أبيض ناصع، وبعضها أحمر قان، بينما الثاني كان يقدّم لنا السجاجيد . . ».

لله ما كان أعظم تقدّمنا! .

* * *

ونتمنّى أن يقع الكتاب بين يدي القارئ حتى يستطيعَ أن يستبينَ من سطوره أطرافَ الموضوع كله في إيجازٍ ودقة ووفاء، وتلك خطة في حرية البحث تُحمَد للمؤلّف الكبير، وتُعَدّ في مجال الصدق العلمي مثلاً يُحتذى. والمترجم السيد (أبو النصر الحسيني) مسلم هندي فاضل، تعرَّض للترجمة حتى أخرجها في هذا الثوب الحسن، ثم تتبع بتعليقات يسيرة بعضَ الأفكار التي التبسَ فيها الأمر على صاحب الكتاب، فشرحها على ضوء ما يعرف المسلمون دينهم من مصادره وحدها.

وأملنا أن تتحقّق بنشر هذا الكتاب غايةٌ كريمةٌ، لا يختلفُ عليها الناس، وإن تباينت مذاهبهم وأهواؤهم. . .

إنَّ الحقيقة التي يحاول التعصّبُ طمسَها ـ ولن يتيسّر له ذلك ـ هي **أنَّ العربَ وصلوا ما انقطعَ من تفكير الإنسانية الراقي، وتناولوا تراث الأقدمين العقلي والروحي بعناية، فصوَّبوا ما يستحق التصويب، وخطَّؤوا ما يستحق التخطئة، وأنَّ ظهورهم كان يُمناً على العالم، وبركة في هذه الأرض، وأنَّ أوروبة لم تستفد منهم ما دعم كيانها المادي والأدبي فحسب، بل ما خلقَها خلقاً جديداً، لم يخطر على بالِ سكانها القدماء، خلقاً لم تكن لتتهيأ له قط لو وُكلت إلى نفسها، وتُركت مع ظروفها.**

لكن فضل الإسلام على أقطار الدنيا شيء تضيق به الكنيسة أشد الضيق وتسخط عليه السخط كله، وهي في يوم الناس هذا تبذلُ كلَّ ما أتيحَ لها من وسائل الدعاية لتوهِمَ الأجيالَ الجديدةَ أنَّ الإسلامَ دينٌ لا يستحقّ البقاء، وأنّه يجب القضاء على أهله، ورمي آمالهم بالخيبة، وقضاياهم بالفشل، وحظوظهم بالنحس، وأنَّ الإسلام ـ في حاضره القريب ـ مرهوبُ العدوان. . مخوفُ

التعاليم! وأنّه ـ في البعيد ـ قليلُ الخير، قريبُ الظلم، ومن ثمّ ينبغي الخلاصُ منه بأيِّ وسيلة.

وبهذا المنطق المسودّ الغشوم الجحود يرادُ تصوير تاريخنا، وتصوير ديننا، ومعاملـة الألوف المؤلّفـة التي تعيـشُ به راضيةً وتُنْعِـشُ العالم بتقاليد النبل والفضل، هذه التقاليد التي نحيا في نطاقها من قرون. .

الحقّ يقال: إنّ أضغان الصليبية على الإسلام وأهله أعيتْ المداوين، وانتشر سوادها في الأولين والآخرين، ولا بدّ من أن يفتح المسلمون عيونهم، ويأخذوا حذرهم. . .

وفي الحرب الباردة الناشـئة الآن بين الشـرق والغرب، أراد (الجنـرال أيزنهاور) أن يتلطَّف بشيء من فضل العرب الأولين على المدنية الحديثة، وأشاد بما قدّموا للعلم من أيادٍ مذكورة.

والرئيس (أيزنهاور) هو قائدُ الولايات المتحدة، إحدى الدول الكبرى الثلاث التي تحمي إسرائيل بعد إقامتها من الوهم.

ويسرّني أن أثبتَ تعليقَ الدكتور (سعيد عبده) على هذه الشهادة، قال: «أعجبني في كلمة الرئيس (أيزنهاور) أمام الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قوله: إني عندما أنظر إلى المستقبل أرى دولاً عربية تبرزُ وتُسهم في أمور هذا القرن إسهاماً يفوقُ ما نستطيعُ أن ننساه لأسلافها الماضين، إننا ما زلنا نذكر أنَّ علمَ (الحساب) وعلم (الجبر) الحاليين مدينان بالكثير إلى العلوم الرياضية العربية، كما نذكرُ أنَّ العربَ قد وضعوا أسسَ العلوم الطبية والفلكية التي تمتَّع بها الغربُ الآن، وفوقَ ذلك. . فإننا نذكر أنَّ الشرق الأدنى كان مهبط الديانات الثلاث».

إنها كلمة حق جاءت متأخرة بعد إنكار طويل يكاد يكون متفَقاً عليه بين الكُتَّاب الغربيين، إنكارٌ لفضل العرب على حضارة العصر الحديث.

إنَّ الوسام الأكبر الذي كان هؤلاء الكُتَّاب يُنعِمُون به على العرب، هو أنّهم سُعاة بريدٍ بين حضارتين، أي مجرّد مترجمين ونساخين لحضارة الإغريق.

بَيْدَ أنَّ هناك ـ إلى جانب أفضال العرب التي ذكرها الرئيس (أيزنهاور) ـ

فضلاً آخر لم يتنبّه إليه الرئيس، وربما كان ـ في الظروف الدولية الحاضرة ـ أولى بالذكر والتنوَيه من الفلك والطب والكيمياء والجبر والحساب، وهذا الفضل هو أنَّ العرب هم الذين وضعوا سياسة (سيف المعز وذهبه). وهذه السياسة التي حاولت الدول الغربية كما يحاول الرئيس (أيزنهاور) الآن فرضها على العرب في مشروعه الأول، الذي ماتَ في عمر الزهور، وفي مشروعه الثاني الذي ابتُلي بالإجهاض يوم الحمل.

إنَّ الدول العربية تُدرك تماماً ما وراء السيف والذهب، إنها عملةٌ ضُربت عندنا منذ قديم الزمن، ومن المحال أن تخدعنا مهما بُذِلَ فيها من زيف وتمويه، والدول الغربية التي ما زالت تحاوِلُ فرض هذه السياسة على العرب، **سياسة الإرهاب والرشوة**، أو الرفاهية في الأقفاص الذهبية، والأغلال المصنوعة من الحرير، إنما تحاول أن تبيع (التمر) في أسواق (مكة) أو أسواق (بغداد).

* * *

برنامج للارتداد

إنَّ التديّنَ المريضَ إذا تسلَّطَ صنعَ المآثم، وإذا تعصَّب عميَ عن القيم كلّها، ولم يعترف لخصومه بحمًى يأوون إليه.

ونحن - المسلمين - نسائِلُ مَن سبقونا مِنْ أهل الكتاب: إنّ اللهَ واهبُ الحياة لنا ولكم، فكيف تستكثرونها علينا؟!.

ومَهَّدَ الأرض لنا ولكم، فكيف تحتازونها دوننا؟!.

ومنحنا وإياكم الفكر، فكيف ترضون لأنفسكم ما ترون من رأي، وما تذهبون من مذهب، ثم تغضبون أن نرى ما لا ترون، وأن نذهبَ إلى غيرِ ما تذهبون؟!.

مَن الذي خصَّكم بالعصمة، وأخطاؤكم زحمت البرَّ والبحر؟!.

وهبوا أنَّ الحقَّ تاهت معالمه بيننا وبينكم، فلماذا لا نلتقي على خِطَّةٍ سواء، تسعُ كلَّ امرئ وما يعتقد؟.

يا قوم! ماذا يصنع المسلم إذا كنتم تُرخصون دمه، وتُهدرون كرامته، وتعوِّقون دعوته، وتُسَوِّئون سُمعته، ولا ترضون منه إلا أن يدعَ دينه، وهو يوقنُ من أعماق قلبه بصحته وسلامة منهجه، ورضى رب العالمين؟.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٩].

هل يصدّقُ القارئ أنَّ أحقاد أوروبة على الإسلام لم تهدأ في قرنٍ من القرون القديمة أو الحديثة، وأنَّ عاطفتها هذه ضدَّ الدين النقيّ الطيب، قد ترجمت عنها فيما شرعت من قوانين، لا لتعاقِب بها المسلمين كأفراد، بل لتنكرَ وجودهم الإنساني كجماعاتٍ ودول!.

إنَّ هذه هي الحقيقة الكالحة.

ولقد رُسمت هذه الخطة، ثم وُكِّلَ إلى القادة العسكريين والزعماء السياسيين، وإلى حشدٍ هائلٍ من رجال القلم ودهاة الأمم أن يُنفِّذوها في أمدٍ يطولُ أو يقصُر حسب الظروف المتاحة والمقاومة المتوقعة.

ونجحت (أوروبة) ومعها (أمريكة) في إلحاق نكبات فادحة بالإسلام، كما استطاعت نفثَ دخانٍ كثيفٍ في آفاقه، وإلحاقِ أذًى كثيرٍ بسمعته، ونجحت (أوروبة) ومعها (أمريكة) في تخسير القضايا الإسلامية، وإسقاط قيمتها في المجال الدولي، بل إنّهما بعد أن تآمرتا على ذبح المسلمين في فلسطين ـ لأنهم مسلمون فحسب ـ حظرت عليهم أن يرسلوا أنيناً، أو يُقدّموا شكاةً بهذا العنوان البغيض، عنوان الإسلام المضطهَد المستباح أهلوه، فليتظلموا مما أصابهم باسم العروبة مثلاً. وفي هذه الحالة يُقبل التظلّم شكلاً، ولكنّه يُرفض موضوعاً.

أجل.. يُقبل شكلاً احتراماً لمراسم المدنية الحديثة، ويُرفض موضوعاً **لأنَّ سحق المسلمين، ومحو دينهم من العالمين هدفٌ استعماري يتواصى الكلُّ بضرورةِ الوصول إليه.**

وقد رأينا (أوروبة) و(أمريكة) يتّخذان للقضاء على الإسلام الخطّة الآتية[1]:

١ ـ كان الخليفة العثماني ـ يشبِهُ بابا رومة ـ في أنَّه رمزٌ ديني لمئات الملايين من الأتباع المنتشرين على الأرض، وقد أمكن في الحرب العالمية الأولى طردُ الخليفة، والقضاء على الخلافة، ومحو هذه الشارة التي تترابطُ على بريقها الباهتِ فلول الإسلام المهزوم.

٢ ـ اتّجهتْ جهودُ الاستعمارِ بعدَ ذلك إلى تفكيك الأمة الإسلامية حتى يتلاشى كيانُها المادي والأدبي، فقسَّمها إلى عشرات من الدول الصغيرة، وأقام بين كل دولة وأخرى حدوداً لا تعدوها.

٣ ـ جعل القومية الخاصة شعارَ كلّ دولة من هذه الدول المصنوعة، ومنع

---

(١) انظر تفصيلاً أكثر في كتاب المؤلف (قذائف الحق)، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

ـ في صراحةٍ حيناً وفي التواءٍ حيناً آخر ـ أن يكون الإسلام روحاً للدولة أو دعامةً لنظمها.

٤ ـ حظر الاحتكام إلى قوانين الإسلام في الشرائع المدنية، والجنائية، والتجارية، وما إليها، وترك قوانين الأحوال الشخصية ريثما تسنحُ فرصةٌ للقضاءِ عليها هي الأخرى.

٥ ـ فصل الدين عن التعليم العام، ليخلقَ أجيالاً مبتوتةَ الصلة بالإسلام، أجيالاً تتردَّد بين الجهلِ به والجحود له.

٦ ـ فصلَ الإسلام عن تقاليد المجتمع في البيت والشارع والأماكن العامة والخاصة، حتى ينظرَ إلى الإسلام وكأنه من الآثار القديمة التي يجب إطراحها، أو يمكن الاستغناء عنها.

٧ ـ تمكين الآفات العلمية والخلقية من نهش الإسلام، ونقد أصوله وفروعه والعبث بمقدساته وشعائره، مع إبراز الأديان والمذاهب الأخرى في إطار من الهيبة والكرامة.

والواقع أنَّ الاستعمار لم ينقطع له دأبٌ منذ احتلَّ بلادنا كي يحيلَ الإسلامَ ركاماً من الأنقاض، وأهلَه أوزاعاً من العبيد، وبذلك يخلص منه ومنهم على السواء، ولو أنَّ الأمورَ سارت وفقَ ما يشتهي لكان الإسلام اليوم أثراً بعد عين.

إنَّ عنايةَ اللهِ أدركتنا قبل أن ينتهي دينُنا وننتهي نحنُ معه، وقد لحقتنا هذه العناية والمعركة بين المغيرين والمدافعين تنتقلُ على عجلٍ من دورٍ إلى دور، وتأخذ صوراً شتَّى.

ومن الخير أن نستبينَ مواقفنا استبانةً جيدةً، فإنَّ الأمة الإسلاميةَ المترامية الأطراف إن كانت قد أحرزتْ مكاسبَ قليلة هنا وهناك، فالحقيقةُ المريرةُ لا تزالُ قائمة، وهي أنها ضعيفةُ الأخذِ لنفسِها وسطَ عداةٍ يُضيّقون عليها الخناق، وينسجون لها الأكفان.

إنَّ (ريتشارد) و(لويس) وغيرهما من قادة الصليبية القديمة قد عادوا للحياة مرّةً أخرى يحملون أسماء غير الأسماء.

ولكنّ أحقادَهم واضحةٌ، ونيّاتهم لائحة، وخططهم لم يُغيِّرها إلا فارقٌ من الزمن فحسب.

لا بُدَّ من أن نراجعَ أنفسنا وأحوالنا، وأن نحصيَ مغارمنا ومغانمنا، وأن نتفرَّسَ في ملامح خصومنا، ونتغلغلَ في طواياهم حتى نبني دفاعنا المستقبل على ركائز قويمة.

الأخطاء التي ارتكبها أسلافنا فسقطوا لا يجوزُ أن نقع فيها، والحيل التي جرَّبها أعداؤنا فظفروا لا يجوز أن ننخدع بها.

لقد كنّا كجسمٍ فارغٍ رائع، نشبت فيه حُمّى مهلكة، ما يُصابُ بها أحدٌ وينجو، إلاَّ أنَّ الدَّاء الذي طوى العماليق نجانا الله منه، والاستعمار الذي أباد أجناساً أخرى في قارات الدنيا بطلَ كيدُه عندنا، وأفلحت الأمة الإسلامية في استردادِ سلامتها منه، وهي لم تزل من عقابيل العلة تجاهد في طلب العافية التامة. ونحن لا نريد أن تعروها نكسة، أو يُؤخِّرَ شفاءَها تهاون. لذلك نكتبُ هذه الكلمات، استقصاءً لأسبابِ العافية، وتتبعاً لأعراض المرض وجراثيمه ومكامنه ومساربه حتى نبرأ إلى الأبد منه.

* * *

الإسلام طريد القانون الدولي

كان بالنا ـ نحن المسلمين ـ خالياً حين استقبلنا هذا العصر، وكان تفكيرنا قريباً، وأخذُنا للأمور من أيسر جوانبها.

وصحيحٌ أننا وجدنا الأوروبيين جاسوا خلال ديارنا، ووضعوا أيديهم على مقاليدها، وغصبونا كثيراً من الحُريات والحقوق التي تقرّرها الفطرة لنا، بَيْدَ أنّ ذلك ـ كما فهمنا بادئ الرأي ـ كان غُلبُ القوي على الضعيف.

وللغُلب المادي منطقٌ حيواني يؤذي المشاعر، ولكنّ علاجه قصير، والخلاص منه تقرّره جولة أو جولتان.

لم تكن المشاعر التي صرفت الناس في القرون الوسطى تمرُّ بأذهاننا، أعني: لم تكن الخصومة بسبب الدين مظنّةَ الجور علينا واحتلال أرضنا، كذلك كنا نفكّر.. حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، **فوجدنا الأوروبيين الغزاة يطوون أفئدتَهم على جميع المشاعر التي حرّكت أسلافهم الأقدمين حين حاربونا باسم (الصليب) زهاء قرنين من الزمان.**

إنهم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقص، بل ظلّت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضراماً.

كل ما أفادوه من تقدّم علمي إبّان غفوتنا الأخيرة، أنّهم غيَّروا الوسائل، وأضافوا إليها مقداراً أكبر من الختل والخبث، وطوَّروا السلاح، ليجعلوه أشدَّ فتكاً، وأوسعَ إهلاكاً. ثم حشدوا كل ما لديهم ليُجهزوا ـ في سكونٍ أو ضجيجٍ ـ على الكتاب والسُّنَّة، أي على رسالة محمد ﷺ عدوِّهم الألدّ، ثم ليمَزِّقوا أمّته شرَّ ممزَّق، فيسلّطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثَّر في طلب النجاة دون جدوى.

إنَّ الأمة الإسلامية ظلّت دهراً، وهي في نظر الغرب لا يُعترَفُ لها بكيان أدبي، ولا تتوارث الأجيالُ غيرَ كراهيتها والسطو عليها.

صحيحٌ أنّه قام الآن بناءٌ للأمم المتحدة يسوّي في عنوانه بينَ أهلِ الأرضِ،

ولكنَّ هذا العنوان شيءٌ غير ما يُخفي تحته، إنَّه يعتبرُ قيامَ (إسرائيل) على أنقاض العرب حقيقةً محترمةً، ويرى الدفاعَ عن وجودها قانوناً مُلزِماً، ويرى عودة أهل (فلسطين) إلى بلدهم أمراً ضدَّ النظام العالمي والأمن الدولي!.

إنَّ هذا التفكير بقيةٌ من ضغائن الغرب على الإسلام وأتباعه، وهي بقيةٌ تنكمش الآن أمام الظروف المحرجة، وعندما تواتيها الفرصةُ، فسوف تمتدُّ لتجتاحَ أقطار الإسلام كلها.

وهناك الوضع القانوني (لدار الإسلام) كما شرحه الدكتور (محمد حافظ غانم) في كتابه (المجتمعات الدولية الإقليمية)[١] تحت عنوان: **(العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها)**.

قال: «ومنذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقرّرها هذا القانون[٢]».

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبينَ في اعتبارِ الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية.

فـ(جروسيوس)[٣] أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوبِ غير المسيحية على قدمِ المساواة مع الشعوب المسيحية، ومع أنَّه يرى القانون الطبيعي يُجيزُ عقد معاهداتٍ مع أعداء الدين المسيحي إلاّ أنّه نادى بتكتّل الأمراء المسيحيين ضدّ أعداء العقيدة.

و(جنتيس)[٤] هاجم (فرنسوا الأول) ملك فرنسة لعقدِه معاهدةً مع السلطان سليمان العثماني في سنة ١٥٣٥م، مع أنَّ المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدّةَ

---

(١) المقرر على (معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية).

(٢) راجع (Majid Khadury) المقال السابق، ص٣٦٢.

(٣) راجع: (De Jure Belli ac pacis) Glo Crrotius سنة ١٦٢٥م.
وراجع أيضاً: (A'history of the law of Nations - Wallser) سنة ١٨٩٨م: ١/ ٣٠٠، ٣٠٦.

(٤) راجع: (De jure Bell Lib I.C.R - Gentilis) سنة ١١٥٨م؛ Wallser المرجع السابق، ص٣٥٤ـ٣٧١.

حياة الملكيين، وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقرَّرةً على غيرِ المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام، ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية، وذلك على أساس أنّ هذه المعاهدة تقيمُ تعاوناً بين ملك مسيحي، وبين غير المؤمنين[١].

بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنّه من الممكن إقامةُ سلامٍ دائمٍ في أوروبة على أساسِ تكتيل الدول المسيحية ضدَّ العثمانيين، فظهرت عدة مشروعات من هذا النوع في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كمشروع (وليام بن)[٢] ومشروع (الكاردينال البروني)[٣].

كما أنَّ الدول الأوروبية من ناحيتها لم تكن راغبةً في إشراك (الدولة العثمانية) في العائلة الدولية، فحيثما وضعت أسس القانون الدولي في مؤتمر (وستفالية) سنة ١٦٤٨م لم تشرك الدولة العثمانية في هذا الشأن.

وفي القرن الثامن عشر تبيَّن للدول الأوروبية ضعفُ قوة الدولة العثمانية، وتنافست فيما بينها على التهامِ أملاكها، ولم يكن من مصلحتها أن تمنحَ هذه الدولة الحقوقَ للدول في القانون الدولي العام، بل إنَّ الدولَ الأوروبية في تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظرُ إليها كجماعاتٍ همجيةٍ غيرِ جديرةٍ بالتمتّع بقواعد قانون الحرب[٤]، لقد اعتبر الاستيلاء على أراضي المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر[٥].

وبعد انتهاء الحرب النابوليونية فكّرت بعض الدول في دعوة (الدولة

---

(١) انظر: (A'history Diplomacy in the futernational devel) - Hill opment of Europe نيويورك سنة ١٩٠٦م، ص٤٣٥ ـ ٤٣٩.

(٢) انظر: (Essay on the present and the future peace - William pen) of Europe لندن، سنة ١٦٩٣م.

(٣) انظر مقال: (Theodore Henchels) (Cardinal Alberonil's Scheme for reducing the Turkish Empire to the obedience of christian Princes) المجلة الأمريكية للقانون الدولي سنة ١٩١٣م، ص٨٣ ـ ١٠٧.

(٤) راجع مقال: (Majid Khadury) المرجع السابق، ص٣٦٥.

(٥) انظر مقال: (The bombardment of Damascus) Wright المجلة الأمريكية للقانون الدولي سنة ١٩٢٦م، ص٢٢٦.

العثمانية) إلى مؤتمر فيينة سنة ١٨١٥م حتى يمكنَ تخفيفُ المنافسة بين الدول الأوروبية على اقتسام أملاك هذه الدولة.

ولكنَّ هذا الاتجاه لم يلقَ قبولاً لدى الجميع، وبقيت الدولةُ العثمانيةُ خارجَ الجماعة الدولية[١].

ومع أنَّ الدولة العثمانية تبادلت التمثيلَ الدبلوماسيَّ مع الدول الأوروبية، ومع أنَّها عقدت معها معاهدات متعددة، إلا أنّ فقهاء القانون الدولي ظلُّوا ينكِرون خضوعَ الدول الإسلامية للقانون الدولي العام، فقرر (سير وليام سكوت) أنَّ القانـون الدولي لا يُطبَّق على الشـعوب التي توجـد خارج أوروبة، وذكر أنّه من الصعب مثلاً مطالبة مراكش باحترام قواعد القانون الدولي كما تسري بين الدول الأوروبية[٢].

وقرَّر (هولاند) أنَّ اختلاف مستوى الحضارة بين الدول الأوروبية وبين الشعوب غير الأوروبية يمنعُ المساواة بينها[٣].

ومع ذلك وُجِدَ من الفقهاء مَن قـرَّر أنه نظراً لأنَّ الدولـة العثمانيـة عقدت المعاهدات، وتبادلت التمثيلَ الدبلوماسيَّ مع الدول الأوروبية، فإنَّ القواعدَ العامة للقانون الدولي تُطبَّق عليها.

ويخلص مما تقدَّم أنَّه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أي دولة إسلامية أخرى تتمتّع بحقوق القانون الدولي.

وقرَّر (ويتون) في سنة ١٨٤٥م أنّه: «فيما يتعلَّق بالعلاقات بين الدول المسيحية وبين الدول الإسلامية كانت المسيحيةُ في بعض الأحوال تقبَلُ القانونَ الإسلاميَّ، أو تعدِّل القانونَ الدولي للمسيحية في علاقاتها مع المسلمين، فكانت مثلاً تقبَلُ فديةً للأسرى»[٤].

---

(١) عارض القيصر (ألكسندر) في قبول العثمانيين في المؤتمر، مقرّراً أنّهم يكوِّنون في أوروبة شرّاً، وأنّه يجب إبقاؤهم خارجَ الجماعة الأوروبية.

(٢) راجع: Cases on International Law) H. E. Jeager, I.B.Scott) سنة ١٩٣٧م، ص٦٢ ـ ٦٤.

(٣) انظر: Lectures on International Law) Holland) طبعة (Wallser) سنة ١٩٣٣م.

(٤) انظر: History Of The Modern Law Of Nations) Henry Wheaton) سنة ١٨٤٥م، ص٥٥٥.

وفي خلال حرب القرْم (سنة ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦م) اتّضح للدول الأوروبية أنَّ استمرار استبعاد الدولة العثمانية من العائلة الدولية يزيدُ الصراعَ فيما بينها على الاستيلاء على أملاك الرجل المريض.

ولهذا دُعِيَ السلطان العثماني باتفاق جميع الدول الموقعة على صلح باريس سنة ١٨٥٦م إلى الاشتراك في القانون العام وفي الجماعة الأوروبية[١].

ولقد فسَّر أغلبُ الفقهاء الأوروبيون نصَّ هذه المادة على اعتبار أنّه يمنحُ (تركية) كلَّ مزايا القانون الدولي[٢]، ويفيد دخولها في العائلة الدولية، وبذلك بدأ اشتراكُها في وضعِ قواعد القانون الدولي.

١٩ ـ الدول العربيةُ لم تشترك في وضع القانون الدولي:

من الجليِّ أنَّ الدول العربية لم تساهم في وضع القواعد التقليدية للقانون الدولي العام.

فمن ناحيةٍ.. ظلَّتْ هذه الدول مستبعَدة عن العائلة الدولية فترةً طويلة ـ كما قدَّمنا ـ على اعتبار أنَّها كانت جُزءاً من دار الإسلام.

ومن ناحيةٍ أخرى.. حينما قُبلت بعضُ الدول الإسلامية في العائلة الدولية كانت أغلبُ الدول العربية غير مستقلّة، إذ إنها كانت تخضعُ للسيادة العثمانية، أو للاستعمار الأوروبي. وكان من اللازم أن تنتظر أكثرُ الدول العربية حربين عالميتين حتى تحصلَ على استقلالها[٣].

وعلى هذا النحو قبلت كلُّ دولة عربية، بمجرَّد تخلّصها من الحكم الأجنبي والاعتراف بسيادتها كلَّ قواعد القانون الدولي كشرطٍ لدخولها في العائلة

---

(١) المادة السابعة من صلح باريس ورد بها دعوة الدولة العثمانية إلى: To Participate in The Public Law and concert of Europe.

(٢) كان من اللازم أن تخلص الدولة العثمانية من الامتيازات الأجنبية حتى يمكن القول بتمتعها بكافة مزايا القانون الدولي العام.

(٣) انظر فيما يتعلق بتطور الدول العربية نحو الاستقلال: مؤلفنا (مبادئ القانون الدولي العام) سنة ١٩٥٦م، ص١٧٠ وما بعدها.

الدولية، علماً بأنَّ كثيراً من هذه القواعد لا يمكن تبريرُها إلا على أساس كونها تلائم مصالح الدول الأوروبية.

فالقانون الدولي التقليدي يعترف بالاستعمار، ولا يعتبر حق تقرير المصير، ويعترف بشرعية المعاهدات التي تُفرض على الشعوب بغير رضاها، ولا يضمن حقوق الإنسان، ولا يكفل حماية تملُّك كل دولة لمواردها الاقتصادية.

ويضع أنظمةً تُبيح تسلّط الدول الكبرى على أنواع من مياه الدول الداخلية والإقليمية.

كلُّ هذا يفسِّرُ عدم رضاء الشعوب العربية ـ وهي تتّفق في هذا مع كافة الشعوب الآسيوية والإفريقية ـ عن كثير من قواعد القانون الدولي العام[1].

ولا جدال في أنَّ اشتراك الدول العربية في المجتمع الدولي الحديث سوفَ يتيح لها مناقشة قواعد القانون الدولي، والاشتراك في تعديلها، وهذا أمرٌ اتّضح بالفعل من خلال اجتماع المؤتمرات الدولية، كمؤتمر (سان فرانسيسكو) سنة ١٩٤٥م وفي مناقشات وقرارات المنظمات الدولية، حيث كانت الدول العربية تحاول على الدوام أن تجعل قواعد القانون الدولي تتمشّى مع مصالحها ومصالح الشعوب الآسيوية والإفريقية، ومبادئ المساواة والعدالة واحترام حقوق الإنسان.

ونحن نعتقد أنّه من اللازم أن تبذل الدول العربية قصارى جهدها في هذه المرحلة الانتقالية للقانون الدولي العام، لكي تراجع ـ بصفة عامة ـ كافة قواعد هذا القانون، ولكي تساهم في تطوير القانون الدولي بشكل يتفق مع احتياجاتها وظروفها ومع الصالح العام للمجتمع الدولي.

ولا ريب في أنَّ قيام الفقهاء العرب بإظهار فقهٍ عربيٍّ أصيلٍ في ميدان القانون الدولي سوف يُسَهِّل هذه المهمة، ومن الواضح أنَّ الأزمة الطاحنة التي يمرُّ بها القانون الدولي العربي الآن ما هي إلا مظهرٌ من مظاهر تدهور الثقافة

---

(١) انظر في عدم رضاء الشعوب التي استقلّت حديثاً عن القواعد: (القانون الدولي العام) المرجع السابق، ص٥١.

الغربية، وزوال سيطرتها على العالم[1].

ونحن نأمل أن تساهم الثقافة الإسلامية والثقافات غير الأوروبية بصفة عامة في وضع نظام جديد لحكم العلاقات الدولية، لا يستمد مصدره من حضارة قارة بعينها أو جنس بمفرده.

* * *

أقول: وربَّما حَسِبَ القارئ أنَّ أوروبة تراجعت عن تعصّبها، وهذَّبت من سلوكها حين رضيت أن تكون الدول العربية والإسلامية معها جنباً إلى جنب، أو أنَّ آلام حربين كبيرتين هي التي أثمرت هذا الاعتدال في السياسة، وأوحت إلى الأخلاف أن يتركوا سياسة الأسلاف.

الواقع ينطق بغير هذا.. إنَّ العرب انضموا إلى الحلفاء في الحرب الأولى فجُوزوا على صداقتهم بوعد (بلفور).

وانضموا إليهم في الحرب الثانية فجوزوا بتنفيذه، وخلق (إسرائيل)، وقيل بعدما أنشئت: إنها خُلِقَت لتبقى، إذن ما سر هذا التحوّل الظاهري؟.

والجواب أنَّ حقدَ (أوروبة) على الإسلام وأتباعه لم ينقصْ إن لم يكن زاد بقدر ما يلقى الاستعمارُ في الدنيا من كفاحٍ ومقاومةٍ.

وكلُّ ما حدثَ أنَّ أوروبة اصطنعت أساليبَ جديدةً لمحو الإسلام من داره، واستئصاله ـ كما تزعم ـ من جذوره.

وهي لم تفتح المجال الدولي أمام العرب وسائر المسلمين إلا بعدما اطمأنَّت إلى أنَّ هؤلاء وأولئك قد استُدرجوا للانسلاخ عن دينهم، والتخلّي عن حضارتهم، والبراءة من ماضيهم.

وأنّها قد طبخت الأمور في الداخل والخارج، وهيَّأت من وسائل اللُّطف والعنف، واللذة والألم، ما يجعلُ المسلمين صائرين ـ حتماً ـ إلى ما رسمه الغرب لهم.

---

(١) راجع مقال: Josef kunz: (La Crise et Iestrausformations du droit des gens) مجموعة دروس لاهاي سنة ١٩٥٥م، ص٢٠ ـ ٢٣.

والواقع أنَّ النظرة السطحية كانت توحي بأنَّ الإسلام قد أدبرت دولته وسقطت رايته، وأنَّ التعلُّق به ـ خصوصاً في أوساط السادة والقادة ـ أمسى شيئاً غير مستساغ.

وما زلتُ أذكر أنَّ (مصر) لما سارعت إلى الاعتراف بأندونيسية عقب تحررها من الاحتلال الهولندي قالت إحدى الصحف الغربية: إنَّ ذلك لوحدة الدين، فانبرى رجال خارجيتنا يريدون ـ بحماسٍ وغضبٍ ـ قائلين: **إنَّ عامل الدين لم يخطر لهم ببال في هذا الاعتراف!!**.

يا للسفالة!! وماذا يُنكر علينا إذا تمسّكنا بهذا الدين، واهتممنا أشدَّ الاهتمام بأحوال إخواننا فيه؟!.

لكنَّه الاستعمارُ الثقافي ـ بعد الاستعمار العسكري ـ فعل فعله في نفوس الكثيرين، وجعل أوروبة تحسب أنها قد بذرت في دار الإسلام فتناً لا تنتهي إلا بانتهاء هذا الإسلام المضطهَد.

بيْدَ أنَّ الذخائر الروحية في أمتنا لا تنفد، وها هي ذي تقومُ من سقطتها، وتقاوِمُ خصومَها، وتتشبَّثُ بالحياة العزيزة، وتتهيَّأ لأداء رسالتها الكبرى مرّة أخرى.

* * *

معنى انتشار الإسلام

الإسلامُ شهادةٌ بأنَّ الله حقّ، وشهودٌ لآثارِ ألوهيته في صحائف الكون، وصوغٌ للحياة النفسية والاجتماعية وفقَ ما أوحى الله لرسله صلوات الله عليهم أجمعين، وإعدادُ أجيال البشرية الحاضرة والمستقبلة للسير على هذا الصراط، ما نبضَ في أبدانهم عِرق، وخالجَ أفئدتهم شعور . .

والإسلام من قبلِ ذلك علاقةٌ عامةٌ بين الكائنات كلِّها وبين بارئها الأكبر جلَّ جلاله، فالعالم أجمع ـ من عرشه إلى فرشه ـ فقيرٌ أبداً إلى ربه، قائمٌ به، خاضعٌ له، عانٍ لأمره، وتلك حقيقةٌ علميةٌ لا يماري فيها إلا أحمق.

ومن ثَمَّ فإنَّ التمرُّد على الله شذوذٌ مستغرَب، والازورار عن دينه خطأ مبين ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

إنَّ الإسلام لله هو الصلة الطبيعية الفذَّة بين المخلوق والخالق، وإذا كان البَشر في هذا العصر يتواضعون على حقائق هندسية وكيماوية وفلكية مقرَّرة، ففي صدر هذه الحقائق يجبُ أنْ يعرَف أنَّ الله واحد، وأنَّ السيرة التي يرتضيها من عبادِه دلالة على انقيادهم له، وتحقيقاً لما يحبه لهم من خير، هي سيرة محمد بن عبد الله ﷺ، فهو الإنسان الكامل الذي التقت في شخصه المثلُ الرفيعةُ للإنسانية كلِّها.

إنَّ الشهادة بأنَّ الله واحد بيانٌ لحقِّ الخالق على المخلوق، والشهادة بأنَّ محمداً رسوله بيانٌ للطريق التي يسير فيها المخلوق كي يُرضيَ الخالقَ، وهاتان الشهادتان هما الدعامة الأولى للإسلام.

* * *

وقد فهم المسلمون من نصوص دينهم أنَّ صاحبَ الرسالة الخاتمة جاء متمِّماً لما مهَّد إخوانه الأنبياء السابقون صلوات الله عليهم أجمعين، وأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا دعاةً للإسلام بمعناه الشامل العميق، وأنَّ مر الزمان وتفريط الأتباع

طمسا معالم الرسالات السابقة، وأتاحا للغو والابتداع والتحريفِ أن تعدو على طبيعة الدين ووجهته.

فلم يكن بُدٌّ من رسالة عامة ثابتة تُعيدُ الحقَّ إلى نصابه، وتردُّ الكلمَ إلى مواضعه، وتجلو كلَّ ما غشى وجه الفطرةِ من خرافةٍ وهوًى، وتضمن ألا يتكرّر في المستقبل ما حدثَ في الماضي من زيغٍ وشرودٍ، فكان هذا القرآن الذي غلب الزمن، وبقي محفوظاً من كل ريبة، وكان رسوله ﷺ الذي نشر الحق إلى أبعد مدًى يبلغُه جهدُ بَشر، والذي صدَّع أركان الباطل فماتت بعد لأي: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٣ ـ ٦٤].

* * *

وانطلقَ صحابـةُ محمّد ﷺ وأتباعـه في أقطار الأرض، يحملون البلاغ السماويَّ الأخير.

انطلق الصُّوَّام والقُوَّام الخاشعون المُخبِتون إلى كلِّ فجٍّ عميق، يعرضون الإسلام على الناس باللغة العالمية التي يفهمها أهل الأرض كلهم جميعاً، لغة الخُلق الزكي والسلوك العالي.

نعم إنَّ السَّلَف الذي حملَ الإسلام، وعبرَ به الأبعاد الشاسعة، أرى الناسَ من نفسه نماذج رائقة، فدخل الناس في دين الله عن إعجابٍ ورغبة.

وما كادوا يتعمّقون هذا الدين، ويتعرَّفون دخائله، حتى صاروا حِرَاصاً على دعوته العامة، مثل العرب الذين جاؤوا به، أو أشدّ. . .

وقد وقع قتالٌ في أثناء سعي العرب لتحرير الشـعوب السـجينة، وفـكِّ الأغلالِ عنها.

وهل كان يمكن قمعُ الاستعمار القديم أو الحديث إلا بالسلاح؟.

إنَّ أنبل قتالٍ وقع على ظهر الأرض هو ما خاضه أتبـاعُ محمد ﷺ لـردّ (الرومان) إلى أوروبة من حيث جاؤوا، ولكسر شوكة المجوسية في فارس.

ولكن كيف يتصوّرُ امرؤٌ راشدٌ أنَّ أربعة آلاف عربي مثلاً يصلحون قوة عادية لفتح مصر، وتوطين الإسلام فيها جيلاً بعد جيل؟!.

إنَّه لولا انبهارُ الأمم بالدين الجديد، وتجاوبها معه، وإحساسها بأنه هدية الأقدار إليها، ما دانتْ لأهله، ولا دخلت فيه..

ماذا عسى يصنع أربعة آلاف رجل في قُطرٍ كمصر، أمامَ عشراتِ الألوف من جند الرومان، ومشايعيهم؟!.

وهَبْ أنّهم جِنٌّ في الوغى، وأنَّ خصومهم هباء، ما الذي جعل جماهير الشعب تسالم الوافدين، ثم تشرحُ صدراً بعقائدهم، ثم تهبُّ هي لنصرتها بعدما اعتنقتها؟!.

إنَّها طبيعة الحقِّ عندما يُحسَنُ عرضه، وتنزاحُ العواقب أمام الرغبة فيه.

وما مصر إلا مثلاً لشقيقاتها التي كانت عانيةً في أسر الرومان، ثم شامت أنوار الصدقِ في هذا الدين، فهوتْ إليه قلوبها، ثم حملت لواءه إلى يوم الناس هذا عن اعتزاز وحب.

* * *

وعمرُ الباطل يطولُ بين الناس بمقدار ما تطولُ غيبةُ الحقِّ عنهم، ولعلَّ لهم عذراً في البقاءِ عليه ما داموا لا يعرفون غيره.

وقد كان الناسُ على نِحلتهم الأولى قبل الإسلام بين راضٍ بها عن قصور، أو راضٍ بها عن اقتناع.

فلمّا ظهر الدينُ الجديد، وتيسّرت المقارنة والمقابلة، بدأ التحول العظيم يشمل سواد الشعب هنا وهناك، فما مضى قرنٌ على البعثة حتى كان الإسلامُ ملءَ السمع والبصر، وكانت أجهزة الدولة الإسلامية ترقبُ هذا التحوّل من بعيدٍ وهي دهشةٌ، بل إنّ بعض الولاة استبقى ضريبةَ الجزية على مَن يدخل في الإسلام! كأنّ وظيفةَ الحاكم تعويقُ الناس عن الإيمان لا إغراؤهم باعتناقه[1].

---

(١) وقد ردَّ عليه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بقوله: إنّ الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً. (ن)

وما نذكرُ هذه القصة إلا لنشيرَ إلى كذب مَن يزعمون أنَّ شائبة إكراه وقعت في انتشار الإسلام.

إنَّ الدولةَ لم تستخدم في الإسلام قَط أداةَ قسرٍ على ترك دين واعتناق آخر، كما وقعَ ويقعُ في أقطارٍ أخرى، لخدمة أديانٍ أخرى.

وما حاجةُ الإسلام إلى الإكراه، ومبادئه تنسابُ إلى القلوب من تلقاءِ نفسها، لأنَّها الفطرة، وتعاليمُه تنساقُ إلى العقول كما تنساق البديهات التي يلقاها الفكرُ بالتسليم ولا يستطيعُ أمامها مراء.

إنَّ البيئـةَ الحرَّة أخصبُ مكـانٍ لازدهار الإسلام، ولولا شقوةُ الناس ما نصبوا العوائق أمامَ رسالته، ولتركوها تبينُ عن طبيعتها في هدوء..

* * *

ومنـذُ أيامٍ وقع في يـدي كتابٌ من هذه الكتب التي يـؤلّفها المبشّـرون والمستشرقون، ويملؤونها بالطعون في الإسلام، والضغن على نبيه ﷺ، ولما كنتُ ألفتُ تهجُّم القومِ، فإنني لم أفزعْ لما وردَ في الكتاب من تهمٍ، أعرف ويعرفُ غيري قيمتها، لكنَّ الكتاب الذي قرأتُه تضمَّن عباراتٍ في التعليق على انتشار الإسلام أرى من المصلحة إثباتها، لأنّها تردُّ نجاح الإسلام وارتفاع شأنه إلى خلل طـارئ على القوى التي واجهها، لا إلى صلاحيته الذاتية، وأصوله النفسـية والفكرية.

قال المؤلف المذكور: «إذا أمعنا النظر فيما كتبه مؤرخو الكنيسة منذ القرن الثالث للميلاد ألفينا حالَ الأمةِ النصرانية لذلك العهد بعيدةً جداً عما وصفَها به بعضُ المصنّفين من تقوًى وصلاح، وذلك أنها فضلاً عن كونها لم تكن مؤيَّدة بالنعمة الفعَّالة والغَيرة والتقوى، ولم تكن راسخةً على أساس التعليم الصحيح، وعلى الاتحاد وثبات الإيمان كما زعموا، وكان رعاتها مشتغلين بالمطامع الشخصيـة، يتخـذون العـويـصَ مـن مسـائـل الـديـن ذريعـةً للمشـاجـرات والمماحكات، وقد انقسموا فيها إلى فِرق وبدع لا تُعَد، ونفوا من صدورهم ما ندب إليـه الإنجيل من الموادعة والمحبة والمؤاساة، وعدلوا إلى المناوءات والضغائن وسائر المفاسد، حتى إنّهم بينما كانوا يتماحكون في أوهامهم في

الدين، أضاعوا جوهر الدين نفسه، وكادت مشاجراتهم فيه تستأصله بتةً.

ومعظم ما ننكره الآن على بعض فرق النصرانية من باطل العقائد إنّما نشأ وتأصّل في تلك الأعصر المظلمة، فعاد بالنفع على الإسلام وأعان على انتشاره.

ونخصّ من تلك العقائد بالذكر عبادةُ القدّيسين والصور، فإنّها كانت قد بلغت وقتئذٍ مبلغاً يفوقُ كلَّ ما نراهُ اليومَ عند بعض فرق النصارى[١].

أما الكنيسةُ الشرقية فإنّها أصحبتْ بعدَ انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكةً بمناقشات لا تكاد تنقضي، وانتقض حبلُها بمحاكمات الآريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع.

على أنّ الذي ثبت بعد البحث أنَّ كلاً من بدعتي النساطرة واليعاقبة كانت بأن تُدعى اختلافاً في لفظ التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافاً في المعتقد نفسه، وبأن تدعى حجةً ينعت بها كلا المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سبباً موجباً لالتئام مجامع عديدة يتردّد إليها جماعة القسس والأساقفة، ويتماحكون ليُعلي كلٌّ واحد منهم كلمته ويحيل القضايا إلى هواه[٢].

ثم إنّ نافذي الكلمة وأصحاب المكانة في قصر الملك، كان كل واحد منهم يختصّ نفراً من قوّاد الجيش أو أصحاب الخطط، يكون له عليهم الولاء، ويتقوّى بهم، وبذلك صارت المناصب تُنال بالرُّشى، وصارت النُّصفة تُباع وتُشترى جهاراً.

أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها مِنْ تهالك (داماسوس) و(أورسكينوس) في المشاحنة على منصب الأسقفية ـ أي أسقفية رومة ـ ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفكِ الدماء بين حزبيهما، حتى إنّ الوالي لمّا رأى أنّه لا قِبَلَ له بقمع هذا

---

(١) لا تزال التماثيل تملأ الكنائس في الشرق والغرب إلى يومنا هذا، وهي تماثيل تُرمَقُ برهبة وحب، وتُقَبّل أقدامُها التماساً للبركة.

(٢) حاول الإمبراطور (هرقل) الدخول في النزاع بين المذهبين المتنافرين، واقترح حلاً ثالثاً وسطاً لجمع الكلمة، ولكنّ الأمور ازدادت تعقيداً، ورفض المصريون وغيرهم الانقياد له، فحكّم السيف لفضّ النزاع، وظهر الإسلامُ والأمور بهذه المثابة، فكيف يقال: إنّ الخلاف لفظي؟! إنّه حقيقي نابع من طبيعة العقيدة.

الشر انصرف عن المدينة، وترك المتنازعين وشأنهما، وكان الفوز بعد ذلك لـ(داماسوس).

قيل: إنّ القتلَ استحرَّ في الناس في هذه النازلة حتى بلغَ عددُ القتلى في كنيسة (سيكينيوس) مئة وسبعة وثلاثين في يومٍ واحد.

ولم يكن من العجيب أن يشتدَّ حرصهما على تبوّء ذلك المنصب المهم، لأنّه كان مَن يتبوّأه يصبحُ ذا دنيا عريضة، وينال من صِلات السيدات الرومانيات ثروةً وافرة، فيخرج في المواكب والأبهة بالمركبات والمحفّات مسرفاً في ترف العيش أكثر من إسراف الملوك لما كان عليه أساقفةُ المدن الصغيرة من الاقتصاد والزهد، ولو بعض الشيء[1].

وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسِهم، ولا سيما القيصر (قسطنطيوس) فإنَّه إذ لم يقدر أن يميِّز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز أربك الدين بكثير من المسائل الخلافية بدلاً من أن يلمّ شعث أهل الخلاف فيه، فأسعر بذلك نار مشاحنات عديدة، كلَّما خمدت أضرمَها بغيرِها مما لا نهاية له.

ثم ازدادت هذه الحالُ سوءاً على عهد (يوستنيانيوس) فإنَّه لم يؤثر أن يقصر في الغيرة على الدين عن أساقفة القرن الخامس والسادس حتى كان إذا قضى بقتل مَن يخالفه في المذهب لا يرى أنه جاءَ شيئاً فرياً.

فلمّا فشا في أولياء الأمور وأرباب الدين هذا الفساد في العقائد والأخلاق والسيرة، نشأ عنه بالطبع فساد سيرة العامة من الناس، فأصبحوا على اختلاف طبقاتهم، وليس لأحدهم هَمٌّ سوى جمع الأموال من الوجوه المحلَّلة أو المحرَّمة، ثم إتلافها في سرفِ العيش وانتهاك حرمات الله[2].

---

(١) تدبّر قول الله تعالى في استنكار مسالك هذا النفر من رجال الدين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقد رفض الإسلام أن يكون هناك رجال دين يشتغلون وسطاء بين الله وخلقه، وبذلك حسم الداء من أساسه، فما بقي رجال الكهنوت بسلطاتهم الروحية والرسمية، فأمر الأمم إلى بوار.

(٢) هذه حال جماهير الناس في أورروبة اليوم، إنَّ المذاهب المادية تسيطر على أخلاقهم =

هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب.

أما حالها في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا ـ يقصد بلاد العرب ـ فلم يكن خيراً من ذلك، فقد اشتهرت هذه البلاد منذ القديم بكثرة البِدع، ولعلَّ ذلك ناشئاً عن حرية القبائل واستقلالها، فكان في نصارى العرب قومٌ يعتقدون أنَّ النفسَ تموتُ مع الجسد، ثم تُنشر معه في اليوم الآخر، وقيل: إنّ (أريجانوس) هو الذي دسَّ فيهم هذا المذهب.

وكم وكم من بدعةٍ انتشرت في جزيرة العرب، لا نقولُ نشأت فيها، فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم، ويعبدونها كأنما هي الله، ويقرِّبون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها (كليرس)، وبها سُمّي أصحاب هذه البدعة (كليريين).

وهذه المقالة بألوهية مريم كان بعضُ أساقفة المجمع النيقاوي يقولون بها أيضاً، فإنَّهم كانوا يزعمون أنَّ مع الله الآب إلـٰهين هما عيسى ومريم، ومن هنا كانوا يُدعون بـ(المريميين).

كان بعضُهم يذهب إلى أنّها تجرّدت عن الطبيعة البَشرية، وتألّهت، وليس هذا ببعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتُهم، حتى صاروا يدَّعونها تكملة الثالوث، كأنّما الثالوث ناقصٌ لولاها، وقد أنكر القرآنُ هذا الشطط لما فيه من الشرك[1] ولا جَرَمَ، ثم اتخذه محمدٌ ذريعةً للطعن في عقيدة التثليث[2].

= وأحوالهم، وفنون الإباحية تجعلهم عبيدَ شهوات، والسرّ عدم وجود (الإيمان الصحيح) الذي يملأ فراغهم النفسي والفكري، وهذا المؤلف وأمثاله يطعنون في الإسلام بدل أن يخلوا له الطريق ليحل المشكلة.

يا باريَ القوسِ برياً ليس يُحسنُهُ لا تظلمِ القوسَ، أعطِ القوسَ باريها

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

(٢) هذه البدعة التي يرى المؤلّف أنها انتشرت بين العرب قديماً، ليست ـ في الحق ـ من مخترعات القدماء وحدَهم، بل إنّ العصر الحاضر شهدَ مجمعاً مسكونياً في رومة جعل مريم فوق البَشر!!.

وفضلاً عن ذلك، فقد اجتمع أيضاً في جزيرة العرب عددٌ وافرٌ من الفِرق المختلفة لجؤوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة، فأدخلَ محمّد كثيراً من عقائدهم في دينه كما سترى[1].

أمّا اليهود الذين كانوا في سائر البلاد أذلاّء لا يُعتدّ بهم، فقد قويتْ شوكتهم في بلاد العرب، حيثُ لجأ كثيرٌ منهم على إثر خراب بيت المقدس، وهوَّدوا كثيراً من ملوك العرب وقبائلهم.

ولذا كان محمد في بادئ أمره يداريهم، حتى إنّه أخذ عنهم كثيراً من مقالاتهم ورسومهم وعاداتهم تألّفاً لهم، لعلّهم يشايعونه، لكنّهم جرياً على سننهم المألوفة في العناد لم ينقادوا له، بل ناصبوه العداوة، وكانوا من أشدِّ خصمائه، يحاربونه ويكايدونه دائماً، ولم يتأتَّ له قهرهم إلاّ بعد المشقة والعناء وتعريض نفسه لمهالك أودت بهم آخر الأمر[2].

وما ذكرناه من شدة بغضهم له، وَلدَ في قلبه آخرَ الأمر بغضةً لهم تضاهيها، فصار يعاملهم في باقي عمره بأقبح مما كان يعامل به النصارى، ويُكثر الطعن فيهم في قرآنه.

وقد تابعه المسلمون على ذلك إلى يومنا هذا، فهم يفرِّقون بين اليهود والنصارى، ويعدُّون اليهود أحقرَ أمةٍ على وجه الأرض وأذلّها.

وقد قال بعضُ مَن اشتهر بسداد الرأي في السياسة: إنَّه لا يتسنّى لأحدٍ أن يسودَ قوماً وينشئ دولة ما لم تساعدْه الفرص، فإذا علمتَ هذا جزمتَ بأنَّ اختلال أحوال النصرانية كان من الفرص التي أعانت محمداً من الجهة الواحدة على نيل مأربه، كما أنَّ وهن قوى الروم والفُرس أطمعه من الجهة الأخرى في الظفر بمرادِه فيما يقدم عليه من هاتين المملكتين اللتين كانتا قبل ذلك من القوة على ما هو

---

(١) هذا هُراء يشيعُ بين جمهرة المبشّرين والمستشرقين، والبراهين متكاثرة متضافرة على تفاهته.

(٢) الإسلامُ يُحسِنُ إلى أهل الكتاب جميعاً ما دامت مسالكهم معتدلة، فإذا أبوا إلا إهانته والإساءة إليه فلا بد من أن يدافع عن نفسه ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

معلوم، ولو كانتا باقيتين على بأسهما لكانتا ولا شك حطمتا الإسلام وهو في مهده، لا جَرَمَ أنه لم يكن له أعْوَنُ على النشوء من النجاح الذي فازت به العرب حينما تصدّوا لفتحهما، وهم ينسبون فوزهم ذلك إلى دينهم الجديد والعون الإلـٰهي الذي وصل إليهم بسببه[1].

أما مملكة الروم فكانت قد أخذت في الوهن والانحطاط من بعد (قسطنطين) حتى كان أكثرُ خلفائه لا يُعرَفون إلا بذميم الخِلال، ولاسيما الجُبن والفظاظة.

ولما ابتدأ أمر الإسلام كان برابرة القوط قد أغاروا على القسم الغربي من المملكة الهنكارية وتغلَّبوا عليه.

وأما القسم الشرقي فكان برابرة التُّرك يغزونه من الجهة الواحدة، والفُرس من الأخرى، حتى أصبح وليس للروم فيه طاقة على دفع عدو قوي يهاجمهم؛ فلذا اضطر القيصر (موريقس) أن يؤدي الجزية إلى خاقان التُّرك.

ولما خرج الدمستق (فوكاس) على هذا القيصر وقتله، أثار بعضُ الجند على بعض فتفانوا عن بكرة أبيهم.

حتى إنّ (هرقل) لما تبوّأ منصبَ العاهلية بعد ذلك بسبع سنين لا غير، ورام أن يجمعَ قلبَهم لم يجد حياً سوى اثنين فقط من كل الجنود الذين كانوا تحت السلاح حينما اغتصب (فوكاس) السلطان.

ومع أنّ (هرقل) هذا كان ولا شكّ رجلاً هُماماً ذا رأي وتدبير، وقد أفرغَ جهدَه في لَمِّ شعثِ الجيش، وردَّه إلى الطاعة، وظهر على الفُرس، حتى أخرجهم عما كانوا قد استولوا عليه من بلاد الروم، وتغلَّب أيضاً على قسم من بلادهم، إلا أن مقاتل المملكة قد أصيبت[2]، حتى لم يكن قَط وقتٌ أشأمَ عليها من هذا

---

(١) مسكين هذا المؤلف!! إنّه يحاولُ حجبَ الشمس بكفّه، كيف يتصوَّر عاقلٌ أنّ العرب من غيرِ الإسلام كانوا يستطيعون هزم الروم والفُرس مهما ضربت الحربُ بينهما واشتدّ الخلاف، ولنفرض أنَّ بين الروس والأمريكان نزاعاً دامياً، فهل معنى ذلك أن تستطيع تركية أو ليبية الاستيلاء على الدولتين الكبيرتين؟! إنَّ الإسلامَ خلقَ العربَ خلقاً جديداً، وبه ـ وحدَه ـ وقعت معجزة الفتح.

(٢) إنَّ معارك الفتح كما يحكي جمهور المؤرّخين لم تكن نُزهةً للعرب، كما يقعُ في وهمِ مَن=

ولا أيمنَ منه لِمَا كان العرب تنويه بها.

فكأنَّ الله جَلَّت حكمتُه رام أن ينتقمَ من نصارى المشرق لتنكبهم على نهج الدين الأقدس الذي وضعه لهم، فأرسل عليهم هؤلاء العرب يضربهم بهم».

* * *

ونحن نُثبت هذه العبارات على طولها، لأنّها تتضمَّن دفاعاً حاراً ضدّ الإسلام، دفاعاً لا ينقصُه الذكاء ولا الجهد.

إنَّ الرجلَ ينسِبُ انتشارَ الإسلام على حساب الرومان ـ خاصة ـ إلى ما ساد بينهم من اختلاف مذهبي، وشهوات بدنية ونفسية، ويرى أنّ هذا الاختلاف لفظي لا حقيقي، وأنّ تلك الشهوات موقوتةٌ لا دائمةٌ.

ونحن نُصدِّقه في نصف ما قال، ونخالفه في النصف الآخر، أو نُصدِّقه فيما قاله، ونخالفه في العلل التي ذكرها.

إنَّ التثليث مولِّدٌ ذاتي للخلاف والغموضِ على تراخي العصور، ومشكلاته حقيقية لا شكلية.. وذلك بخلاف التوحيد المطلق الذي قرّره الإسلام.

ثم إنَّ الإنسانية بعد نموّها الفكري الظاهر، الذي لم يُعهَدْ مثلُه في تاريخها الأول تحتاجُ في إقناعها العقلي، وتربيتها النفسية، وتنظيمها الاجتماعي والسياسي، إلى دين يكافئ هذا الامتداد في مواهبها وخصائصها، دينٌ يشبع جوعها الروحي، وتألقها الذهني، إنها بحاجة إلى الدين الذي تعاون النبيون جميعاً على إبلاغ أصوله، وتوطيدِ أركانِه، ثم جاء صاحب الرسالة الخاتمة محمد ﷺ فأعطاه صورته النهائية المقنعة المشبعة.

= يقرأ هذا الكلام، لقد خاض المسلمون قتالاً مريراً، وقدَّموا للهِ ألوفَ الشهداء، وسفكوا في سبيل كسر الروم والفرس دماءً غزيرة، وما تركت كلتا الدولتين قوةً تستطيعُ بها استبقاء سلطانهما إلا حشدتها، ولكن الله أراد الخيرَ للإنسانية، فانكسرتْ صفوفُ الاستبداد الأعمى، وانفتحَ المستقبلُ للدين القيّم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وإذا لم تعترف أوروبة بهذا الدين، فستبقى آخر الدهر فريسةَ المذاهب المادية شرقيةً كانت أو غربية، وستبقى صريعة الشهوات، التي تغتالُ الطُّهْرَ في الأنفس، والعدلَ بين الأمم، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

* * *

حول الخلافة الغاربة

كنتُ طفلاً في السابعة من عمري عندما طُرِدَ (السلطان عبد المجيد) آخر الرجال الذين حملوا لقب خليفة في الآستانة.

وسقوط الخلافة الإسلامية (الاسمية) في العصر الحديث يشبِه سقوط (رومة) قديماً في البرابرة، كان له دويّ بعيدُ المدى، وإن لم نحسّ نحن به في طفولتنا، ولا شعرنا ـ بعدُ ـ بآلام ذلك الحدث الخطير، فقد تعلّمنا في ظلّ الاحتلال أنّه ليس من الضروري أن تكون للأمة الإسلامية جامعةٌ عامةٌ ولا خلافة قائمة!!.

ثم إنَّ المآسي التي اقترفها الأتراك، والمهازل التي صنعها السلاطين المدّعون للخلافة أعانت على تقبّل الأمة لما وقع، وتخاذُل الجهود لمداواة آثاره السيئة.

وأرى لزاماً على الكاتب المسلم أن يشرح لأمته ملابسات ذلك السقوط الشنيع والنتائج التي تمخّض عنها:

أ ـ إنَّ منصب الخلافة ـ على جلالته ـ استمكن منه ـ في عصور طويلة ـ أناسٌ لا ترشِّحهم خلالُهم[1] أبداً له، والوظيفةُ تُظلَم إذا وليها مَن يعجز عن أمانتها، ومن ينزل بخلائقه عن مكانتها، وعلاجُ هذا الاضطراب لا يكونُ بإلغاء المنصب، وإنما بمضاعفة الضوابط التي تحول دونَ وصول المغموصين إليه.

وتاريخ العالم السياسي حافلٌ بسير الملوك والوزراء الذين نالوا مناصبهم الكبيرة بطرقٍ صغيرة، وعندما تيقّظت الشعوبُ لمنعِ هذا الخلل شُرعت الدساتير، التي تكفَل اختيار رؤساء صالحين، ولم تُصدِرَ أحكاماً قاضية بإلغاء الرياسات كلها.

---

(١) خلالهم: صفاتهم وأخلاقهم.

وقد كان سلاطين (آل عثمان) ملوكاً على حظ كبير من الغشم[1]، ولا يصلحون ـ بداهةً ـ للنيابة عن رسول الله ﷺ في إقامة شؤون الدين والدنيا، إلا أنّ ادّعاءهم للخلافة فيه اعترافٌ بأنّ المنصب المرموق باقٍ يحمِلُ المعاني المنوطة به، وعلى الذين يبتغون الإصلاح أن يزيلوهم عنه ليجيئوا بأفضل منهم.

أما الحكم عليه وعليهم بالإعدام فذلك ما لا مساغ له.. لكن القائد التركي (مصطفى كمال) قرر طرد الخليفة (السلطان عبد المجيد) لا لأنه حَط من قدر منصبه، بل لأن السيد (مصطفى) كان متفقاً مع دول أوروبة على إزالة الخلافة نفسِها من تركية. والقائد التركي عندما ألغى الخلافة لم يقصد فقط إلى فصم الروابط التي تصل تركية بالعالم الإسلامي، بل كان ـ إلى جانب ذلك ـ يريد فصل الإسلام نفسه عن جهاز الدولة كلها، وإقامة حكومة لا دينَ لها، أي أنه ـ بضربةٍ واحدةٍ ـ حقّق أماني (أوروبة) التي تسعى لها من بضعة قرون، لقد قال لإنكلترة وفرنسة وسائر الحلفاء: **دعوني أصنع بيدي ما تصبو إليه أنفسُكم.. فتركوه.. وانطلقت الدعايات بعد ذلك تردّد أنَّ تركية انتصرت، وأنَّ الحلفاء الصليبيين انهزموا!!.**

ب ـ وإزالة الخلافة وإقصاء الإسلام عن الدولة لم يتمّا بجرّة قلم، فإنَّ جمهور الأتراك يحترمُ دينَه، ويخضعُ لسلطته عن طواعية، وقد ضحّى هذا الشعب المؤمن كثيراً طوال خمسة قرون في سبيل العقيدة التي ارتضاها.

غير أنَّ تضحياته الجمّة ضيعها فسادُ الحُكّام وسفه (آل عثمان) وعِوَجُ السياسة التي رسموها لأنفسهم وللأمة الإسلامية معهم[2].

وقد ركب (مصطفى كمال) الصعبَ والذلول لتنفيذ مأربه، واقترفَ صنوفاً من الغشّ والاحتيال، والظلم والقتل، لحمل الأمة على قبول فكرته، وسخَّر جهازاً من الأُجراء والمنتفعين لتلويث سمعة خصومه، وتلفيقِ التهم ضدّهم، ولن

---

(١) سلاطين آل عثمان الأوائل كانوا رجالاً عظماء، وقادة سادة، فلما جاء دور الانحطاط وتحكم الصدور في مقاليد الأمور أصبحت السلاطين مجرّد صور. (ن)

(٢) كان هذا في أواخر عهدهم عهد الاتحاد والترقي، انظر: (تاريخ الدولة العثمانية) للأمير شكيب أرسلان، ط دار ابن كثير بدمشق. (ن)

يُعرَفَ مقدار ما صنع (الكماليون) لتثبيت نظامهم الجديد إلا إذا انقضى هذا الحكمُ، وانكشفت الصحائف التي يطويها الآن عامداً.

وحسبنا أن نلقي نظرة عجلى على الطريقة التي وُلِدَت فيها جرثومة هذا النظام الخبيث لنتبين أسلوبه في السير والإقناع.

* * *

عندما اقترح (مصطفى كمال) فصل الدين عن الدولة، وتقدّم بمقترحه هذا إلى مجلس النـواب، رأى أغلب الأعضاء أن يناقشـوا الفكرة، وأن يتعرّفـوا حقيقتها، وأن يزنوا نتائجها بضمائرهم وأفكارهم. . . خافَ صاحب الاقتراح عقبى البحث والدرس! وطلب أخذ الرأي دون نقاش، ووافقه على ذلك أصدقاؤه من النوّاب، إلا أنَّ المجلس قرّر إحالة الاقتراح على لجنة الشؤون القانونية لتبدي أولاً وجهة نظرِها فيه، ثم تعرِضه بعد ذلك على المجلس، وهذا إجراءٌ دستوري سليم، وذهب الاقتراح إلى اللجنة التي عكفت على دراسته، ولم تبلث طويلاً حتى رأت مخالفته الجليّة لأصول الإسلام فرفضته.

قال الشيخ (تقي الدين النبهاني): **لكنّ (مصطفى كمال) يريد فصل الدين عن الدولة استجابةً لطلب الحلفاء، الذين يبغون القضاءَ على آخر معالم الدولة الإسلامية، ولهذا فإنّه ـ ما إن رأى اتجاه اللجنة إلى الرفض حتى فقد سيطرته على أعصابه، وقفز فجأةً، ثم اعتلى مقعداً وهو يتميز من الغيظ وصاح: «أيها السادة! لقد اغتصبَ السلطان العثماني السيادةَ من الشعب بالقوة، وبالقوة اعتزمَ الشعبُ أن يستردّها منه.**

إنَّ السـلطنة يجب أن تُفصَل عن الخلافة وتُلغى، وسواءٌ وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا!.

كلُّ ما هنالك أنَّ بعضَ رؤوسكم سوفَ يسقطُ في غضون ذلك. . .»!.

وكان يتكلّم بلهجة الدكتاتور فانفضَّ اجتماعُ اللجنة، ثم دُعيت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح وتُبدي رأيها فيه. . وأحسَّ (مصطفى كمال) أنَّ الاتجاه السائد يميل إلى رفض هذا الاقتراح، فجمع أنصاره من حوله، وطلب أخذ الرأي عليه برفع الأيدي مرةً واحدةً!.

فاعترض النوّاب على هذه الخطّة وقالوا: إن كان لا بد من أخذ الرأي فليكن مناداة بالاسم.. فرفضَ (مصطفى كمال) وصاح ـ وفي صوته رنة التهديد ـ قائلاً: «أنا واثق من أنَّ المجلسَ سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء، ويكفي أخذ الأصوات برفع الأيدي».

ثم طُرِحَ الاقتراحُ على الأعضاء، فلم ترفع غير أيدٍ قليلة لتأكيده، لكن النتيجة أعلنت أنَّ المجلس أقرَّ الاقتراح بالإجماع!!.

فدُهِشَ النواب لذلك، وقفزَ بعضُهم فوقَ مقاعدهم محتجّين صارخين: هذا غيرُ صحيح، ونحن لم نوافق.. فصاح بهم أنصارُ الغازي يسكتونهم ويتبادلون معهم الشتائم...!![1].

* * *

ونحن لا ينقضي لنا عجبٌ من شيء واحد، جُرأة هؤلاء المستبدين على الكلام باسم الشعب، وهم يعرفون معرفةَ اليقين أنَّ الشعبَ ينبِضُ بكرههم، ويمسي ويصبحُ في لعنهم.

إنَّ هذا (المصطفى كمال) يزعم أن الخليفة اغتصبَ وجودَه الأدبي من الشعب التركي.. وأنَّ هذا الشعبَ وكّل إليه استرداد حقه المغتصب، مع أنَّ الشعبَ ـ ممثلاً في نوابه ـ أعلنَ كراهيته واشمئزازه من سياسية (مصطفى كمال) وأفكاره وأساليبه، فباسم أي شعب يتكلّم هذا الرجل؟!.

إنّه يدري أنَّ الأتراك يمقتونَ شخصَه وحكمَه، ويودّون الخلاصَ منه في لمح البصر، ومع ذلك يقف هذا القائد الفاجر ليقول: باسم الشعب التركي آمرُ بكذا، وأنهى عن كذا.

قال الشيخ تقي الدين: تيقَّنَ الناسُ أنَّ حكام أنقرة الجُدُد كفرةٌ ملعونون، صاروا يلتفون حولَ الخليفة (عبد المجيد) يحاولون رجعَ السلطة إليه، ليكونَ

---

(١) انظر في مسألة إلغاء الخلافة كتاب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري (النكير عن منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) ط دار القادري بدمشق؛ وكتاب (الرجل الصنم)، ط مؤسسة الرسالة. (ن)

الحاكمَ الحقيقي في البلاد، فيقضي على هؤلاء المرتدين، وأدرك (مصطفى كمال) الخطر مجسّماً، وعرفَ أنّ كثرة الشعب تكرهه، وتَصِمُه بالزندقة والإلحاد، فنشطَ في الدعايةِ ضدَّ الخليفة والخلافة، وأثار حماسة الجمعية الوطنية، حتى سنَّت قانوناً يقضي باعتبار كلّ معارضٍ للجمهورية، وكل ميل إلى السلطان خيانةً عقابها الموت.

وشرع (الغازي) يهيِّئ الأجواء لإلغاء الخلافة، فقام بعض النواب يتحدّثون عن فائدة الخلافة لتركية من الوجهة السياسية العامة، فقاومهم (مصطفى كمال) وقال: «أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك، وماتوا طيلة خمسة قرون؟.

لقد آن أن تنظُرَ تركية إلى مصالحها وحدَها، وتتجاهل الهنود والعرب، وتنقذ نفسها من زعامة المسلمين».

كذلك سار (مصطفى كمال) في دعايته ضد الخلافة، ثم تابع حملاته على الخليفة، فأبرزه هو وأنصاره في صورة الخونة، الذين يشتغلون لحساب الإنكليز.

ولم يكتفِ بذلك، بل خلق موجةَ إرهاب ضدَّ النواب الذين يريدون استبقاء الخلافة في تركية، فإنَّ أحدهم صرّح بضرورة الخلافة، ووجوب المحافظة على الدين، فما كان من (مصطفى كمال) إلا أن كلَّف شخصاً باغتياله في الليلة التي تحدَّثَ فيها، فاغتيل هذا النائب المسلم وهو راجع إلى بيته من الجمعية الوطنية.

وألقى نائب آخر خطبةً إسلامية، فأحضره (مصطفى كمال) وهدّده بالشنق إذا فتحَ فمه بمثلها مرة أخرى. وبذلك نشر الرعب في طول البلاد وعرضها، وضمن ألا يشغب عليه معارض.

ثم أرسل إلى حاكم إستانبول يأمره بالتشديد على الخليفة، وإنذار أتباعه كي يتخلّوا عنه.

وتحرّكت الغَيْرَة الإسلامية في قلوب بعض الكماليين الذين توجَّسوا الشرَّ من إلغاء الخلافة، فعرضوا على زعيمهم أن ينصِّبَ نفسَه خليفةً للمسلمين فأبى، ثم جاء وفدان أحدُهما من (مصر) والآخر من (الهند) وطلبا إليه أن ينصِّب نفسه

خليفة للمسلمين فكرّر إباءه، ثم استعدَّ للضربة القاصمة، وأعلن للعالم إلغاء الخلافة في أيار (مايو) ١٩٢٤م.

وقد يتساءل البعض: لماذا رفضَ هذا القائد أن يكون خليفةً للمسلمين؟. أليس ذلك أمارة على كرهه الخاص لذلك النظام، وشعوره بلزوم التخلّي عنه؟.

ورأينا أنَّ الرجلَ كان منطقياً مع رغبته في الحكم، وفي مستقبله السياسي عندما أصرَّ على إبعاد الخلافة عن تركية وعن شخصه أيضاً، ولو أنَّه رضيَ أن يكون خليفةً لعاودت قواتُ الحلفاء هجومها، وثابرت على القتال حتى تسقطَ بقيةُ الحياة الإسلامية في الميدان الدولي.

إنَّ أوروبة المتعصبة تحارب بالسيف وبالمال وبالعلم والقلم كلَّ زعيمٍ شرقي تشمُّ في قيادته رائحة يقظةٍ إسلامية. والغازي (مصطفى كمال) لم تكنْ لديه الطاقةُ النفسيةُ ولا العقليةُ لتحمّل هذا العداء، ولذلك آثر الجبانُ أن يحاربَ أمّته بدلاً من أن يحارب دول أوروبة، وأن يقضي على دينها ليظفر هو بالبقاء[١].

* * *

قال المرحوم أحمد شوقي يرثي **الخلافة**، ويبكي فقدها، ويندِّد بسياسة (مصطفى كمال) نحوها:

ضَجَّــتْ عَلَيْــكِ مَــآذِنٌ ومَنَــابِــرٌ ... وَبَكَــتْ عَلَيْــكِ مَمَــالِــكٌ وَنَــواحِ

فــالْهِنْــدُ وَالِهَــةٌ، ومِصْــرُ حَــزِيْنَــةٌ ... تبْكِــي عَلَيْــكِ بِمَــدْمَــعٍ سَحَّــاحِ

والشَّــامُ تَسْــأَلُ وَالْعِــرَاقُ وَفَــارِسٌ ... أَمَحَـا مِـنَ الأَرْضِ الخِـلافَـةَ مَـاحِ؟

وأتَــتْ لَـكِ الجَمْعُ الجَلائِـلُ مَأْتَمـاً ... فَقَعَــدْنَ فِيْــهِ مَقَــاعِــدَ الأَنْــوَاحِ

يــا لَلْــرِّجَــالِ لحُــرَّةٍ مَــوْؤُوْدَةٍ ... قُتِلَــتْ بِغَيْــرِ جَــرِيْــرَةٍ وَجُنَــاحِ

إنَّ الـذيْـنَ آسَـتْ جِـرَاحَـكِ حَـرْبُهُـمُ ... قَتَلَتْــكِ سِلْمُهُــمُ بِغَيْــرِ جِــرَاحِ

هَتَكُـوا بِـأَيْـدِيْهِـمْ مُـلاءَةَ فَخْـرِهِـم ... مُــوْشِيَــةً بِمَــوَاهِــبِ الفَتَّــاحِ

---

(١) إنَّ أتاتورك ونظامه هو النموذج الذي صنعه الغرب للعالم الإسلامي كي يحذو حذوه، وقد تكون الخطوات نحو هذا النموذج سريعة أو بطيئة حسب ظروف كل قطر، فبورقيبة كان أسرع من غيره، لكن القادة من الحكام جميعاً يسيرون على نهج أتاتورك، وهذا يفسّر الاستماتة في الدفاع عن نموذج الحكم اللاديني في تركية. (ن)

نَـزَعُـوا عَـنِ الأَعْنَـاقِ خَيْـرَ قِـلاَدَةٍ ... وَنَضَـوْ عَـنِ الأَعْطَـافِ خَيْـرَ وِشَـاحِ
حَسَـبٌ أَتَـىٰ طُـوْلَ اللَّيَـالِـي دُوْنَـهُ ... قَـدْ طَـاحَ بَيْـنَ عَشِيَّـةٍ وَصَبَـاحِ
وَعَـلاقَـةٌ فُصِمَـتْ عُـرَىٰ أَسْبَـابِهـا ... كَـانَـتْ أَبَـرَّ عَـلائِـقِ الأَرْوَاحِ
جَمَعَـتْ عَلَـى البِرِّ الحضُـوْرَ وَرُبَّمَـا ... جَمَعَـتْ عَلَيْـهِ سَـائِـرَ النُّـزَّاحِ
نَظَمَتْ صُفُوْفَ المُسْلِمِيْنَ وَخَطْوَهُمْ ... فِـي كُـلِّ غَـدْوَةِ جُمْعَـةٍ وَرَوَاحِ
بَكَـتِ الصَّـلاةُ، وتِلْـكَ فِتْنَـةُ عَـابِـثٍ ... بِـالشَّـرْعِ عَـرْبِيْـدِ القَضَـاءِ وَقَـاحِ
أَفْتَـىٰ خُـزَعْبَلَـةً وَقَـالَ ضَـلالَـةً ... وأَتَـىٰ بِكفْـرٍ فـي البِـلادِ بَـوَاحِ

ثم قال يصف (مصطفى كمال):

أدّوا إلـى الغَـازِي النَّصِيْحَـةَ يَنْتَصِـح ... إنَّ الجَـوَادَ يَثُـوبُ بَعْـدَ جِمَـاحِ
إنَّ الغُـرُورَ سَقَـىٰ الـرَّئِيْـسَ بِـرَاحِـهِ ... كَيْـفَ احْتِيَـالُـكَ فـي صَرِيْـعِ الـرَّاحِ؟
نَقَـلَ الشَّـرَائِـعَ وَالعَقَـائِـدَ والقُـرَىٰ ... والنَّـاسَ نَقْـلَ كَتَـائِـبٍ فـي السَّـاحِ
تَـرَكَتْـهُ كَـالشَّبَـحِ المُـؤَلَّـهِ أُمَّـةٌ ... لَـمْ تَسْـلُ بَعْـدُ عِبَـادَةَ الأَشْبَـاحِ
هُـمْ أَطْلَقُـوا يَـدَهُ كَقَيْصَـرَ فِيْهِمُـو ... حَتَّـى تَنَـاوَلَ كُـلَّ غَيْـرِ مُبَـاحِ
غَـرَّتْـهُ طَـاعَـاتُ الجُمُـوعِ وَدَوْلَـةٌ ... وَجَـدَ السَّـوَادُ لَهَـا هَـوَىٰ المُـرْتَـاحِ
وإذَا أَخَـذْتَ المَجْـدَ مِـنْ أُمِّيَّـةٍ ... لَـمْ تُعْـطَ غَيْـرَ سَـرَابِـهِ اللَّمَّـاحِ

ثم قال:

لا تَبْـذُلُـوا بُـرْدَ النَّبِـيِّ لِعَـاجِـزٍ ... عُـزلٍ يُـدافِـعُ دُوْنَـهُ بِـالـرَّاحِ
بِـالأَمْسِ أَوْهَـىٰ المُسْلِمِيْنَ جِـرَاحَـةً ... واليَـوْمَ مَـدَّ لَهُـمْ يَـدَ الجَـرَّاحِ
فَلَتَسْمَعُـنَّ بِكُـلِّ أَرْضٍ دَاعِيـاً ... يَـدْعُـو إلـى (الكَـذَّابِ) أو لِسِجَـاحِ
وَلَتَشْهَـدُنَّ بِكُـلِّ أَرْضٍ فِتْنَـةً ... فِيْهـا يُبَـاعُ الـدِّيْـنُ بَيْـعَ سَمَـاحِ
يُفْتَـى عَلَـى ذَهَـبِ المُعِـزِّ وَسَيْفِـهِ ... وَهَوى النُّفُوْسِ وحِقْدِهَا المِلْحَاحِ

* * *

جـ ـ إنَّ قصَّةَ إلغاء الخلافة تفتحُ لنا بابَ الكلام عن صلة المسلمين بدول أوروبة وأمريكة، تلك التي تُسمّى دون حياءٍ ـ دول العالم الحر.

هذه الدول تؤمنُ بالحرية لنفسِها كي تصنعَ ما تشاءُ بخصومِها، وهي تمقتُ الحريةَ أشدَّ المقتِ للآخرين، خصوصاً المسلمين.

ومن ثَمَّ فهي إنْ لم تباشرْ إذلالهم بحكام من دمها وجلدتها بحثتْ عن الحكام الخونة، الذين يتسلّطون على شعوبهم بالحديدِ والنارِ، ثم تعاونت معهم سرّاً وعلناً.

إنّ الحريةَ مرادفةٌ للإسلام، فإنَّ الإنسان في نظرِ هذا الدين لا يعرفُ له إلا رباً واحداً يخضعُ له، ويحتكمُ إليه، ويناصب العبادَ طرّاً أمامه. وأزماتُ الحريّةِ في بلاد الإسلام نشأتْ قديماً، وتنشأ أبداً من ضعف الإيمان، ورقّة العقيدة، واضطراب معنى التوحيد، ولذلك استمات المصلحون في محاربة الاستبداد ومظاهره، وتوفير الحريات كلها للأمة الإسلامية.

إذ إنّهم بذلك لا يضمنون الخيرَ للناس فحسب، بل يضمنون بقاء الدين فيهم، وبقاءهم على الدين.

إن تقلص الحرية معناه سيادةُ الوثنية، وذهاب الإسلام، أو تزوير صور له بعيدة الصلة بجوهره.

وقد اجتهد المسلمون في أواخر دولة الخلافة كي يُرسوا القواعد لحياة دستورية سليمة، وكادوا يُفلحون، حتى جاء ذلك الأفّاك التركي (مصطفى كمال) فألغى الخلافة، ومحا الشورى، وأحال النظام الدستوري أنقاضاً، وتحوّلت تركية ـ للأسف ـ إلى دويلةٍ تافهةٍ لا وزنَ لها ولا خطر.

وتعلَّمت دول العالم الحر أنَّ الاستبداد هو وسيلتها الفذّة لتحويل الشعوب المسلمة عن دينها، فقرّرت أن تعبثَ بالدساتير في كلِّ بلدٍ إسلامي، وأن تظاهِرَ حكاماً بينهم وبين الجماهير فجوات بعيدة القرار، ذلك أنه في غيبة الحرية وسطوة القهر يمكن إلغاء مظاهر إسلامية كثيرة.

أما والشعوب تُحسِنُ الأخذَ لنفسِها والتعبيرَ عن مشيئتِها، فهي لا تدعُ الإسلامَ أبداً، ولا تقبل التفريطَ فيه.

إذا كان الإسلام قد تأذّى في الماضي من كبتِ الحريات، فهو لم تنتقص أطرافه في الحاضر القريب إلا تحت وطأةِ الاستبداد.

ودول العالم الحر ـ كما تتسمّى ـ تعرفُ أنَّ لها علاقاتٍ بحكامٍ لو ملكتْ

شعوبُها شيئاً من الأمرِ لطوّحت بهم تحتَ صفائح القبور، ولكنّها دولٌ يشدُّ بعضُها إلى البعضِ الآخر حقدٌ دفينٌ على الإسلام، وغِشٌّ خبيثٌ لأهلِه، مَنْ كانوا وأين كانوا!.

إنَّ الاستبداد غولُ الأفراد والجماعات، غولُ الذمم والكرامات، وهو ـ لا شك ـ سيبرز لك وحده، وستبدو جرثومته الخبيثة عندما تبحث عن السر في تأخر المسلمين، وتخلّف قافلتهم منذ عدة قرون.

أجل.. فإنّ العلمَ لا يزدهر، والأدبَ لا ينهض، والقوى البَشرية لا تنشطُ، والمواهب العليا لا تزكو، وسوق المناقشةِ لا تقوم.. إلا في سعة الحرية.

إنَّ الحكمَ الفرديَّ المطلَق قد يظهرُ لماماً في بعض البلاد، وقد يكون علاجاً موقوتاً لبعض الحالات، وقد يكونُ بعض الرؤساء عباقرة على حظٍّ كبيرٍ من الذكاء الخارق والقدرة الرائعة، ومع التسليم بصلاحية هذا النوع من الحكم في ظِلِّ الضرورات التي تدعو إليه كما يقولون، فنحن نجزم بأنَّ المسلمين على مرِّ العصور لم يستفيدوا منه يوماً، وأنَّ المستبدّين الذين تداولوا حكماً كانوا نفراً من الفراعنة، دمّروا على الناس معاشَهم ومعادَهم..

* * *

ونحن نعرف أنّ الحكم في روسية فردي، ومع ذلك فإنَّ صاحب هذا الشأن يُعلن نفورَه من نزعات الأثرة التي تقارنُ سيطرةَ القادة.

ويقول: إنَّه لا يملك ـ من نفسه ـ حق الحكم، وإنّما يملك باسم الحزب!!.

نشرت الصحفُ تحت عنوان (أسباب إقصاء الماريشال زوكوف عن منصبه): أعلن (خروشوف) لأوّل مرة أسباب إقصاء الماريشال (زوكوف) وزير الدفاع السابق عن منصبه، وذلك في حديثه الخاص لمدير (يونايتد برس) في موسكو، فقال:

«إنَّ (زوكوف) كان فظّاً تتجه أساليبُه إلى الديكتاتورية، لقد كان ينفردُ بالرأي غالباً دون التشاور مع زملائه، لقد كان هذا مغتفراً في وقت الحرب، ولكنّ ذلك لا يُغتفَر في وقت السلم، وعلى الرغم من ذلك، فالماريشال (زوكوف)

جنديٌّ ممتاز، ولكن إذا كان (زوكوف) عظيماً، فإنَّ الحزب الشيوعيَّ أعظمُ منه وأكثرُ أهمية».

ومضى (خورشوف) فقال: «إنَّ ظهور شخصيةٍ أخرى كشخصية (ستالين) أو إحياء مبدأ تقديس الشخصية أصبح أمراً مستحيلاً في روسية، وقد أبعد (زوكوف) عن منصبه بواسطة الهيئة الرئاسية، واللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وليس بواسطة قوّاد الجيش».

وأردف يقول: «لقد كانت أساليب (زوكوف) ديكتاتورية، ولكنّه لم يصل إلى مرتبة (ستالين) أو إلى نصف ما وصل إليه ستالين».

والغريب أنَّ خرافة تقديس الشخصية التي يتمرَّد الروس عليها، أو يتبرّؤون من وصمتها ـ هذه الخرافة يُرادُ بها أن تعيشَ في الشرق الإسلامي، وأن تمتدّ جذورُها في تربته، مع أنَّ الإسلامَ أبعد شيءٍ في العالمين عن هذه السخافة، ويستحيل أن تعيشَ في كنفه أو تحيا ويحيا معها حياةً صحيحةً.

* * *

تحقير الإسلام في بلادنا

استغلَّ الغربُ تفوّقه السياسي والعسكري، وسقوط أغلب الأقطار الإسلامية في قبضته، ليمحوَ من النفوس والأذهان كلَّ إعزاز لهذا الدين، أو إحياءٍ لتعاليمه، ورسم خطة شاملة واعية للقضاء عليه نظرياً وعملياً، واجتثاث جذوره عنواناً وموضوعاً، وتوهين روابطه في الأفراد والجماعات، وإثارة فوضى عامة في كيانه المادي والأدبي تنتهي ـ حتماً ـ بزواله، وإن استغرق زمناً طويلاً أو قصيراً.

واختلفت دولُ الغرب في طرائق إجهازها على الإسلام، فمنها **المتعجِّل**، الذي يريد ذبحه بالسكين، والقضاء على أهله بالسرعة التي تُقرِّب الغاية المنشودة. ومنها **المتأنّي**، الذي يذبح بغير سكين، ويقتلُ من غير أن يسفكَ الدماء، ويلجأ إلى العُنف في الفترات التي تستعصي فيها الضحية، ولا يبقى من التكشير عن الناب بدٌّ.

وكانت سياسة (إنكلترة) في مصر من الطراز الأخير، استطاعت هذه الدولة الماكرة أن تطعن الإسلامَ في صميمه دون أن تفتعل ضجةً، وما عَزَّ عليها بلوغه بنفسها، وكَّلت إلى صنائعها تنفيذه وهي مختفية!.

وفي نصف المدة التي احتلَّت فيها مصرَ تمكَّنت من طي رقعة الإسلام عن آفاق واسعة، وخلقت طوائف شتّى: بعضُها غريبٌ على الإسلام، وبعضُها عدوٌّ له، وبعضها يؤمِنُ بجزء من تعاليمه ويكفرُ بجزءٍ آخر.

واستشرت الجراءةُ على هذا الدين جملةً وتفصيلاً؛ فهذا ينكر **أصل الإيمان**، وهذا يماري في **حقيقة النبوّات**، **وإمكان الوحي**، وهذا يتساءل: **لم تُحرَّم الخمرُ** مع فائدتها للصحة؟ ثم يقول: إنّ تحريمها خطل!.. وهذا يرى **الوقاع الجنسي** مادام بتراضي الطرفين لا شيءَ فيه، ويستغربُ تسميته زنى. وهذا يمضي **فوائد الربا**، ويسخرُ من حظرها. وهذا يصف **الصلوات الخمس** بأنها مضيعةٌ للأوقات، ومشغلةٌ عن الواجبات. وهذا يستنكف من التذكير **باليوم الآخر**، ويظن الحديث عنه رجعية.

واطَّرد نشاط الإنكليز في هذا المجال! وشدَّدوا النكير على بقايا الإسلام المهزوم في القلـوب الخاوية والصفوف المتراخية، وكان تخلّف المسـلمين الحضاري ثغرةً ينفذُ منها أولئك المتربصون، حين يتساءلون في خُبث: كيف تبقون على الإسلام وقد اكتشف الغرب الكهرباء؟!.

لماذا لا تتخلعون عن تاريخكم وتقاليدكم وأنتم تستوردون حاجاتكم كلّها من بلادنا؟!.

وقد ينضمُّ إلى هذا التساؤل السمج وسواسٌ آخر، يدلفُ إلى نفس الشباب في مكرٍ ودهاء يقول له: افتح ذراعيك لهذا الجديد الغالب، ودعْ عنك ربَّـك ونبيّك وقومَك، إنَّ المستقبل الدافئ السخي المأمون لا تكفلُه إلا هذه الحياة الوافدة، ولا ينمو إلا في ظل أصحابها المنتصرين.

سبعون سنة والإنكليز الحُمر، والإنكليز السُّمر ـ أعني صنائعهم من أبناء جلدتنا ـ يتابعون حملاتهم على الإسلام، ويلحُّون في تقصير خطوطه، حتى وصلوا آخر الأمر إلى نتائج مروّعة، نثبتها هنا ليعرفَ أولو النُّهى من أين أتينا؟ وكيف النجاة؟.

أفلحَ الاستعمار في تكوين جيلٍ يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يُرى وهو يقومُ بشيءٍ من شعائره، خصوصاً بين المثقّفين الكبار، والطبقات التي تُهيَّأ للحكم والنفوذ.

الواحدُ من هؤلاء يحبُّ أن يراه الناس خارجاً من حانةٍ، ولا يحبُّ أن يروه خارجاً من مسجدٍ، ومن السهل عليه أن يُوصَف بأنه زنى بعشر نسوة، لكن وجهه يسودّ لو قيل: متزوج من اثنتين، أما أن يُفكِّر في تلاوة آيات القرآن، أو يرجع إلى شيء من سُنَّة رسول الله ﷺ، فذلك ما لا يخطر له ببال... إنَّ الغزو الثقافي احتلَّ أقطار نفسه جميعاً، وزلزل ثقته بدينه، أو هدمها عن آخرها، فهو محسوب على الإسلام باسمه فحسب، بل هو يجتهدُ أن يُبعِد أولاده عن الإسلام بصلة الاسم التي لزقها القَدَر به.

ولذلك لا يسمي ابنه محمداً ولا عبد الله ولا حسناً ولا ما أشبه ذلك، بل يختار أسماء تجعل صبغة الإسلام بعيدةً عنهم، بناتٍ كانوا أم بنين!.

هذا الصنف من المتعلمين لا يكاد يخلو منهم ميدان، وكنودهم للإسلام، ونأيهم عنه، ظاهران أتمَّ الظهور في حياتهم الخاصة والعامة. . وهم يقرؤون في الصحف أنَّ واعظ (أيزنهاور) ـ مثلاً ـ حضرَ إلى القاهرة، وأنَّ **رئيس الولايات المتحدة لا تفوته صلاة بالكنيسة**، وأنَّ رئيس لبنان ذهب إلى البطريرك الماروني ليطلب منه البركة. . . وأنَّ. . وأنّ. . فيظنّون أنَّ كلَّ دين في الأرض له أهله الذين يتمسّكون به ويتعصّبون له. . أما الإسلام فلا، كذلك علّمهم الاستعمار!!.

من حقِّ عابدِ العجْل في الهند أن يُعلنَ ديانته، ومن حقِّ تابع التوراة في (إسرائيل) ان يقدّس كتابه وتلموده، أما الإسلام فيجب أن تفرغَ النفوسُ من ذَرَّة توقيرٍ له، أو رعايةٍ لحرماته!!.

إنَّ وطأة الغزو الثقافي في الأجيال التي أنشأها وغذّاها الاستعمار ثقيلة أشدَّ الثقل، إنه صنعها على عينه، ورسالته الكبرى حَطْمُ هذا الإسلام، والإتيان على بنيانه من القواعد. . .

وقد تبقى عند نفر من الناس بقايا من التديّن تثبت سلوكهم، وتضبط تصرّفهم، ولكنّ الدعاية الهائلة ضدَّ الإسلام تجعلهم يعجزون عن إتيان ما يأتون تحت عنوان الدين الذي يعتنقون.

ونسأل: ما سبب هذا الفتور في الإقبال على الدين، والمعالنة بالتمسُّك بآدابه والأخذ بهديه، فلا نجدُ جواباً شافياً، أو دليلاً مقنعاً.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: «إنّ كثيراً من الناس عندنا قد يطوون قلوبهم على احترام الدين والتمسك به، لكنهم ـ حين يضمُّهم مجتمعٌ من مجتمعات الحياة التي يغشاها علية القوم وكبار الناس ـ يتصاغر في أنفسهم هذا الشعور بالدين، ويضمر في كيانهم هذا الإحساس». ويرون من الخير ستره عن الناس، حتى لا يُقال: إنّهم متديّنون، وحتى لكأنَّ الدينَ عارٌ يزري بأهله، وسُبَّة يفرُّ الناسُ منها.

هذا أمرٌ واضحٌ لا ينفع فيه إنكار. . فحيثُ تكون الحياة وتكون النعمة

والوجاهة، ينكمش الدين، ويتعرّى منه حتى أهله خوفاً من أن يُقال: إنهم أهل دين!!.

فما مرجع هذا؟ وهل في طبيعة الإسلام ما يعوقُ سيرَ الحياة ويسدُّ الطريق على الآخذين بأسباب الوجاهة والجاه؟.

إنَّه لظلم عظيم أن يُفهم الدين هذا الفهم!.

وإنّها لخيانة غليظة لأنفسنا أن نُنزل الإسلام في حياتنا هذه المنزلة، فلا نتوِّج به رؤوسنا، ولا نتّخذه أوسمةً نُحلِّي بها صدورنا في كل مجتمع، وفي كلِّ موقف كريم من مواقف الحياة.

إنَّ الدين يتطلَّب النفوسَ الكبار.. وقد صغرت نفوسُنا فصغُرَ فيها كلُّ معنًى كريمٍ أو مثلٍ فاضل.

إنَّ النفوسَ المريضة تنقلبُ فيها حقائقُ الأشياء كما تنقلِبُ صورةُ المرئيات في العين المريضة، وكما تنحرفُ مذاقاتُ الطعوم في الفم السقيم!.

ونحن قد أُصبنا في القرون الأخيرة بعلل وأوجاع أفسدت حياتنا، وأنزلتنا منازلَ الهُونِ في دنيا الناس.

وكان مِنْ خداعِ المستعمرين أن صوَّروا لنا الدين في صورة العدوِّ الذي دخل علينا بهذا الضعفَ والهوان، وكان السبب في هذا التأخر الذي صرنا إليه.

ولقد عمل الاستعمار جاهداً على أن يمكّن لهذا الضلال من نفوسنا، بما أذاع فينا بأساليبه وصنائعه من مفترياتٍ على الدين، وتهجّم عليه، وازدراء بأهله واستخفاف بمنازلهم في الحياة، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها.

ونحن اليوم في بعثٍ جديد.. حطّمنا قيود الاستعمار، وأزحنا معالم الضعف من مرافقنا المادية، ولا زال موقفنا من الدين كما كان من قبلُ، لم نحاول أن نجد فيه قوة دافعة نستند إليها، ومجداً عظيماً نحرص عليه، ولا زالت نظرتنا للدين والمتدينين نظرة باردة فاترة لا تغني شيئاً ولا توحي بشيء.

ماذا في الدين؟ ولِمَ نخاف صحبته في انطلاقنا مع الحياة؟.

هل الدين شيء، والحياة الكريمة الرفيعة شيء آخر؟.

لندع الأصولَ العامة للإسلام، ولنترك ما قرر من مبادئ المساواة المطلقة بين الناس، وما قرر من صيانة الدماء والأموال والأعراض، فذلك أوضح من أن يحتاجَ إلى بيان.

إنَّ المقياسَ الصحيحَ في هذا العصر للرقي الإنساني، هو فيما يبلغه الإنسان من رقة الحس ورفاهية الوجدان وذكاء العقل، وقد ارتفعَ قدرُ الأمم الغربية في نظرنا لما بلغتهُ مجتمعاتها من منزلة عالية في هذه الصفات. وكان غاية طلاب الكمال عندنا أن ينالوا حظاً في هذه الصفات ليجدوا في أنفسهم طمأنينة الرضا، وليجدوا أنهم شيءٌ في عالم التمدّن والرقي.

وفي أدب الإسلام مناهج دقيقة محكمة لمراسم الذوق السليم، والحس المرهف، والوعي اليقظ..

لقد تحوَّل الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جلفة، وبداءة صلدة شائكة، إلى حياة مخصبة بأرق العواطف، وأنبل الأحاسيس، حتى لكأنَّ رجل الجاهلية التي عاش بها عمراً طويلاً قد خلقه الإسلام خلقاً آخر في شهور أو سنوات عاشها في الإسلام.

ما ترك الإسلامُ شيئاً يتجمَّل به الإنسان ويبلغ به مراتب الكمال في عقله وخُلُقه إلا كان ذلك من صميم دعوته ونهج تعاليمه.

* * *

إضعاف الوازع الدّيني

إنَّ إعادة بناء الأمة الإسلامية مرة أخرى بعدما خرّب الاستعمار عامرَها، وجفَّف غامرَها **أمرٌ** يحتاجُ إلى جهود مضنية.

وليست الإعادة المنشودة شقُّ شوارع تقوم القصور المنيفة على أكنافها، ولا تجميلُ شواطئ الأنهار والبحار وبثّ الأرائك المريحة حولها. كلا.. ولا هي نقلُ المصانع والآلات وتشغيلُ ألوف العمال فيها.

إنَّ ذلك ـ وإن مسّت إليه الحاجةُ ـ لا يعني بناءَ أمةٍ تنفعُ نفسَها إذا كان الغزو الأجنبيُّ قد نجحَ في تخدير أعصابِها، وإماتةِ ضمائرِها، واستلالِ اليقينِ من أفئدتها والهدف العالي من ضمائرها..

ذلك أنَّ الأمم تفتقر قبل كل شيء إلى العقيدة التي توقد نشاطها، والغاية التي تكدح لبلوغها، والحَداء الذي يهوِّن عليها مصاعب الطريق، والعزاء الذي يصبّرها على لأواء الحياة.

فإذا جفَّت هذه المعاني في أمة لم يغنِ عنها شيء ما، وهي صائرةٌ حتماً إلى إدبار!.

إنني عندما أرى دبّابة تسيرُ في الميدان يعجبني هيكلها المتين، وبناؤها الحصين، وأنظر إلى هذا الحديد المتشابك المتراكب، وهو يتهادى وئيداً شديداً يطحنُ أمامه الصخرَ ويقذف باللهب فأقول: ما أروع هذا البرج وما أسرع فتكه في أجسام العدا.

لكنّي ـ وأنا أهمس بهذه الكلمات ـ يعاجِلُني شعورٌ آخر بالتريُّث والاسترخاء: إنَّ المهم قائدُ الدبابة، لا الدبابة نفسها.

إنَّ مصير المعركة مُعلَّقٌ بالرجال الذين يملؤونها، ووثاقة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وطول صبرهم، وبشاشة رجائهم.. إنّ ذلك هو اللبنة الأولى في النصر.

وعنـدمـا كنـتُ أرى أبنيـةَ قصـر العينـي فـي القـاهـرة، وألمـحُ الأدوات والاستعدادات لمداواة المرضى، تأخذني الدهشة لضخامة هذا المستشفى، ورحابة غرفه وكثرتها، ووفرة وسائل التمريض وأسباب الشفاء، ثم ذلك الجيش الكثيف من الأطباء والأعوان والخدم، وذلك المدد الدافق من النفقات المبذولة والمطالب الميسّرة.

ومع هذا المظهر المطمئن فإنَّ الفؤادَ لم يكذب إذا أبدى قلقه، وأسـرَّ وجلَه.

حدثني أولاً: هل تتوفَّر مشاعرُ الرحمة وعناصر الأمانة؟.

وهل ينضبط سير الأمور تلبيةً لنداء الواجب، وأداءً لحقّ الجماعة، وحياطةً لكرامة الإنسان؟.

إنّني أمرُّ أحياناً بالليل قريباً من هذا المستشفى فأتساءل: تُرى أهناك عينٌ ساهرةٌ ترعى المرضى، أم عينٌ زائغة لموظّف شاب يبحث عن فتاة تطاوعه؟.

إنَّ الغزو الثقافي الأوروبي بذل جهودَه كلها حتى يوجِدَ شباباً لا إيمان له، شباباً لا يعرفُ الله، فضلاً عن أن يخشاه أو يطلب رضاه.

نعم.. لقد ركَّز الاستعمار ضغطه كلّه على القلوب أولاً، حتى تُفرَّغ من العقيدة، واستبدَّ به الجنون، وهو يُخرِّب كلَّ ما أودع الإسلام في القلوب من تقوى ورعاية.

إنّه مستـميتٌ في تكوين أجيـال تُضَيِّع الصلاةَ وتتَّبع الشـهوات..

إنَّـه مستميتٌ في تكوين أمةٍ تستثيرها الغرائز الدنيا، وتذهَلُ عن معاني الأمور، وتتّبع سفاسفها.

وعندمـا يحقّق هذه الأمنيـة يعلمُ أنّـه قضى القضاءَ المبـرَمَ على الأمّـة الإسلامية.

فما قيمة ثقافةٍ لا تعتمدُ على إيمان، ولا يحصّنها خُلُقٌ، ولا يشدُّها مثلٌ أعلى؟.

عندما سرقَ الاستعمار (الإسلام) من قلوب الشباب، الذين طعموا من

موائده، وربـوا في حجراته، كان يعلمُ أنّه سـرقَ الوقود من خزان السيارة أو القطار.

والشاب الذي لا عقيدة له يمكن أن يُدفع بالأيدي إلى الأمام، بَيْدَ أنَّه لن يندفع من تلقاءِ نفسه، وهيهات أن يقطع شوطاً، أو يبلغ هدفاً. . ومن هنا نرى ألوف التلامذة من المسلمين كُسالى، وكذلك ألوف الموظّفين، وألوفاً أخرى من هنا وهنالك.

إنَّ الاستعمار الذي احتلّ البلاد الإسلامية منذ قرنٍ أحدثَ ثقوباً شتَّى في صدورهم، تسرَّب منها اليقين، وتسرَّب معه النشاط والإقدام.

ومن المستحيل أن تنهض أمةٌ دونَ إيمان ما. .

إنَّه لكي تنهض أمتنا لا بدَّ من ردّ الاعتبار إلى هذا الدين المُهانِ.

لا بدَّ من إعادة الاحترام إلى الإسلام الذي يتسلَّى أيُّ وغدٍ باللغط عليه والنيل منه.

لا بدَّ من الاعتماد على هذا الإسلام في شؤون التربية، ومن توفير القداسة لنصوصه وتعاليمه، التي استقتل الغربُ في تهوينها، كي يخلقَ أمةً معتلةً، لا جهدَ لها ولا أمل، ولا رجاءَ فيها ولا معوّل عليها.

إنَّ إضعافَ الوازع الديني بلاءٌ ذريعُ الفتك بكلِّ ما نحرص على بقائه وصيانته، بل هو أقصر الطرق إلى إفناء أمتنا مادياً وأدبياً.

وقد نزل الاستعمارُ بالشرق، فوجدَ به يهوداً ونصارى ومسلمين، فاستبقى كلا الفريقين من يهود ونصارى على ديانته، واجتهدَ في سلخ المسلم من عقيدته، حتى يشبَّ المرء المسلم وهو سقيم الضمير، فارغ اللبّ، مبلبَل الفكر. وبذلك يكونُ غيرُه مرتبطاً بعقيدة يتحمّس لها، وينشط لخدمتها، ويحبُّ اتّباعها.

أما المسلم ـ بعد ما مسخه الاستعمار على النحو الذي ذكرنا ـ فهو يحيا منفلتَ القيادة، مضطربَ الخطوِ، لا يدري يصادقُ صديقاً أو يعادي عدواً. .

وأثر العقيدة في توجيه السلوك وتكثير الإنتاج، وضبط الأعمال، لا يمكن إنكاره، وقد يكون الإنسان ذا حصيلةٍ ضخمة من المعرفةِ، في أيِّ شأن من شؤون

الحياة. ولكنّ خلوَّ نفسه من الإيمان الدافع يجعله أشبه برجلٍ يملِكُ عشرات الأسلحة ولا يحسن استعمال واحدٍ منها، إنَّ شخصاً آخر بعصاه، أو بذراعه، يستطيعُ التغلُّب عليه.

وهذا الذي لا يملك أنواع السلاح ويعجزُ عن استخدامها، ربّما عجزُه من الكسلِ والفتورِ، لا من الجهل وقلّة الدراية.

ومن هنا نرى الرجلَ الضعيفَ الإيمان، الواهي الاعتقاد، تتوافرُ لديه طاقاتٌ كثيرةٌ للعمل والخدمة، ومع ذلك فهو مخبولٌ، مربوطٌ، لا ينتجُ شيئاً طائلاً.

أما غيره من أصحاب الرغبات المشبوبة، والقلوب المشحونة، فهو يخلقُ من الفراغ شيئاً.

وقد قيل: الحاجةُ أمُّ الاختراع، والحاجةُ لا تولَدُ في جوِّ البلادةِ، ولا تنبتها أرضٌ مواتٌ.

إنَّ العقيدة أصلٌ هائلٌ لكلّ نهضة، وإذا أفلح الاستعمار في توهين العقيدة الإسلامية وحدَها مع بقاء العقائد الأُخرى تُسيِّرُ أصحابها ـ بغضِّ النظر عن نصيبها من الحق والبطلان ـ فمعنى ذلك أنّه دوَّخَ نهضتها، لا، بل أوقفَ دولابها، وسوَّد مستقبلها.

انظر، كم خرَّجت جامعات أوروبة من فتياننا وفتياتنا؟ ومع ذلك فهم يعودون وكثرتُهم الكبرى لا تؤدّي عُشرَ ما يؤدّيه زملاؤهم المتخرّجون معهم في هذه الجامعات نفسها[1].

بل إنَّ الشيوعيين أحسنُ منهم حالاً، فهم أصحاب مبدأ.

---

(١) أما من كان منهم صاحب اختصاص علمي تحتاجه الأمة كالدكتور فاروق الباز مثلاً وأمثاله لا يعد ولا يحصى؛ فتسدُّ في وجهه السبل حتى يضطرَّ إلى الهجرة إلى الغرب، فيقدِّم إليه خبرته وإبداعه، وهذه ظاهرة صارت تسمَّى (هجرة الأدمغة)، أما إذا كان اختصاصه في الفنون المسرحية أو الموسيقا أو النقد الأدبي، فتوضع كل الإمكانيات ليقدم إبداعه وعبقريته!!. (ن)

أما هؤلاء، فإنَّ الغذاء العلمي والروحي الذي تلقوه في البيت والمدرسة جعل منهم أقواماً تُحسن الوجاهة والمظاهر، ولا تُحسن العمل والحركة. وتُعنى بمطالب الحياة المادية التافهة، ولا يشغلُها مثلٌ أعلى أو جهازٌ رفيعٌ.

يجب أن تعود للإسلام مكانته الجليّة في نفوس أتباعه، وعندما تصدقُ هذه العودة، فإنَّ الحياةَ ستدبُّ في جهازٍ حكومي عفن، وفي مئات المدارس الصغرى والكبرى، وفي عشرات المصانع والشركات، وفي سائر أحوالها المادية والاجتماعية.

إنَّ المعتقَد المسيحي في الغربِ موضعُ عنايةٍ كبيرة، وأثرُه متغلغلٌ في توجيه السياسة الأوروبية، وشاراته في المدارس والجامعات بارزة، والانبعاثُ عنه في وجوه النشاطِ المختلفة أمرٌ غير منكور.

فلماذا يُفرضُ على الحياة العامة في بلاد الإسلام أن تتخلّى عن صلتها بدينها، وأن تولي ظهرَها له؟.

وقد قامت هناك فلسفاتٌ عنصريةٌ ونزعاتٌ قوميةٌ لم تتخلَّ عن المسيحية في دعم مبادئها.

فالنازية والفاشية كلتاهما استظهرت بالكنيسة في سياستها، ورسمت الصليبَ على رايتها.

والبلاد التي نبذت النصرانيةَ مثل (روسية) جعلت من الشيوعية عقيدةً مذهبيةً تملأُ الفراغَ الذي أبعدت عنه الديانات المتروكة.

بل قد يكون الإيمانُ بالشيوعية أوسع نظرة إلى الرفعة التي يعمل فيها من الإيمان بالمسيحية، فهل تمتلئ نفوس الناس بعقائد الأرض والسماء.

ويُحظر علينا وحدنا أن نستمسك بديننا، وأن نأخذ أولادنا به؟!.

ذلك ما تريده الصليبية الغازية! إنّها تعلم أنَّ المسلم لن يرتدَّ إلى اليهودية ولن يرتدَّ إلى النصرانية، فليترك الإسلام وكفى!! وليكن (وجودياً) أو (إباحياً) أو (شيوعياً) أو ما شاء من النِّحَل. والنتيجة أننا لن نستطيعَ أبداً بناء أمتنا، وبعث الحياة فيها، لأنَّ أسلوب نهضتنا لا بدَّ له من مبدأ قائم، وسناد روحي واضح. أي

لا بدَّ له من الإسلام، والإسلامُ الذي عشنا به وله دهوراً، فكنّا سادةً مقسطين، لا نظلم ولا نُظلم.

* * *

منذ قرنين والزحفُ الصليبي يتدفَّق على بلاد الإسلام، وهو بادي القوة حادّ الأظفار، والمسلمون يتراجعون أمام امتداده في كفاحٍ مُرِّ المذاق كالحِ العُقبى.

حقاً.. إنّهم ما تركوا شبراً إلا وعليه من ضحاياهم ركام.

بيد أن فوضى الحكم والعلم، وطبيعة التخلّف في الدين والدنيا جعلتا الأمة الإسلامية الكبيرة تترنّح تحت وطأة الضربات المتتابعة، ثم تسقط فريسةَ استعمار أسود الضمير، طافح الشهوة.

وانفردت الصليبية في الأرض العريضة بالبأس والسلطان، فماذا صنعت؟.

لقد امتلكت أزمَّة العالم، واحتكرت سوقَ الدعاية، وسخَّرت القوى الجديدة من مدنية وعسكرية، وفسحت المجال لتعاليمها وحدها، وضيَّقت الخناق على كلِّ دعوة دينية أخرى، وساقت رجالها في المدارس والجامعات والأندية والمستشفيات ودور الصحف والإذاعة والمسرح، ونظَّمت برامجَ التبشير في المدائن الزاهرة، والمجاهل الطامسة، وأخرست الإسلام وأهله، حتى لا يسمع لهم صوت، بل حتى يبدو هذا الدين وأتباعه في إطار البِلَى يدعو للسخرية.

فماذا كانت نتيجة هذا الجهد الراكض الموصول مئة سنة؟.

هل أصلحت الصليبية حالَ العالم؟.

هل وطَّدت أركانَ الإيمان؟.

هل زيَّنت جانب الفضيلة؟.

هل مهَّدت ليومٍ آخر، وعلَّقت القلوبَ بثواب الله أو حذَّرتها عقابه؟.

هل أشاعت عدلاً أو رحمةً؟.

هل نقلت الإنسانية إلى أمام، أو رفعتها قليلاً إلى أعلى؟.

كلا . . إنّ هذه الصليبية لم تستطع أن تُسدي خيراً إلى الحياة المحرومة الحائرة.

ونظرة إلى فلسفة السلوك وسياسة المعاملة التي تسود الدنيا الآن، تجعلُك تَجزِم بهذه الحقيقة الخطيرة.

قال الأستاذ (أحمد خليفة) مديرُ المعهد القومي للبحوث الجنائية في حديثٍ عن أسباب انحراف الشباب: سنقتصرُ على ناحيةٍ واحدة تتّصل بموجة المادية التي عرفها العالم الحديث في بداية القرن التاسع عشر، والتي ظلَّ بعدها يرتفع من ذلك الحين. **فإننا نعتقد أنَّ هذا الجوَّ المادي الذي اكتنف حياة الإنسان في هذا العصر هو المسؤول أساساً عن تهيئة البيئة لعوامل الانحراف النفسي والسلوكي.**

ربما لا يكون هذا الجو المادي في بلادنا ملبَّداً إلى الحدّ الذي تعرفه بلاد أخرى، ولكن العالم اليوم قد جعلته سرعةُ المواصلات، وتشابك العلاقات، عالماً واحداً، ولم يَعُدْ في الإمكان أن تنكمشَ حضارةٌ، وتنطوي على نفسها إلى مدى طويل.

ولما كانت الحضارة المادية هي القابضة على زمام الطبيعة، عن طريق التقدم العلمي والفني، فإنَّ هذه الحضارة هي التي تزحفُ اليومَ على كل البقاع لتنشر فيها رسالتها عن قصدٍ أو عن غيرِ قصد.

والماديةُ تهدفُ إلى تحطيم المعاني والمثاليات، وإلى تجريد الأشياء من كلِّ قيمة عدا قيمتها التي تقدّر بالمال، بل وصل الأمرُ إلى تقدير الإنسان بالمال! أصبحنا نسمع عن إنسان يساوي مليوناً، وابتسامة تساوي مئة ألف! أصبحَ الكسبُ المادي مسوغاً للإقدام، والخسارة مسوغاً للإحجام!.

الذي يسيرُ على قدميه لم يعد يفكِّر في متعة للسير في أحضان الطبيعة بقدر ما يفكّر فيما يعود عليه من قدرة بدنية تعينُه على العمل والإنتاج والكسب.

أصبحنا نقدّر حياتنا على أساس ما حقّقناه من كسب مادي دون أن ندخِلَ في الحساب عملاً من أعمال الخير، أو لفتةً من لفتاتِ القلب، أو لحظةً من لحظات الحب والتضحية.

الحياة أصبحت مشروعاً يجب أن ينجح ويحقّق أرباحاً، لم تعد الحياة ـ كما كانت ـ عطية الخالق نقنعُ بها، ونحمدُه من أجلها، لهذا شاع الانتحار في عصرنا، برغم أنّ حياتنا أصبحت أشدَّ يسراً، وانتشر الإدمان والمرض العقلي وانهيار الأعصاب.

وقد حذَّر العلامة الفيلسوف (شوايتزر) بني عصره من طغيان الارتقاء المادي على الجوانب الروحية في الحياة فقال بحق: **«إنَّ المدنيةَ التي لا تُعنى بغيرِ جوانبها المادية كسفينةٍ مكسورةِ الدفّة تشقُّ طريقها إلى الكارثة»**.

إنَّ النضجَ المادي ـ لا الروحي ـ أبرزُ سمةٍ تنذرُ بخطورة مدنية العصر، حتى اختلَّ توازنها.

وفي غمرة حماستنا لما حققته هذه المدنية من قوة ورفاهية ومعرفة ضللنا الطريق، لقد غالينا في تقدير انتصاراتنا وأغفلنا خسائرنا الروحية.

إننا لنتساءل في حيرة: في مثل هذا المجتمع الذي يعبدُ المادّة واللذة، أين تقعُ الأخلاق؟ وأين يقعُ الدين؟.

السلوكُ الخلقيُّ مبناه ـ مهما يتجه ـ أنَّ الإنسان هو غايةُ كل شيء، كيف إذن يكونُ الخلق شيئاً مذكوراً في حياة تجعل الإنسان آلة مسخَّرة من أجل القيم المادية.

حقاً إنَّ هناك أخلاقاً في هذا العصر، ولكنّها أخلاق ضيقة الأفق، لعلَّها لا تُعنى بغير فكرةِ الأمانةِ في المعاملات.

هذا المعنى الضيّق حجبَ إلى حدٍّ كبيرٍ فكرةَ الخيرِ والشّرِّ.

ولا شكَّ أنَّ الأمانةَ فضيلةٌ، ولكنَّ حُبَّ الجارِ، ومشاركة الآخرين آلامهم والتضحية في سبيل المُثل ليس مما تشمله الأمانة.

ومع ذلك.. فما زالت الأخلاق التقليدية قائمة، قائمة منذ أوقدت الأديان جذوتها، ولأنَّها تراثُ آلاف السنين، إنّنا نعيش على الشعلة التي أوقدتها أيدي مَنْ قبلنا، إن لم نغذِّها بوقود جديد فمصيرُها يوماً إلى الفناء.

والدين ـ إن كنّا نقصد بالدين شيئاً نؤمن به فلا شكَّ أنَّ لهذا العصر ديناً ـ هو النجاح! .

وإنْ كنّا نقصد عبادةَ الإلـه ربّ الكائنات، فإنَّ فلسفة هذا القرن لا تتفق مع انتشار هذا الدين.

هذا القرن الذي لا يرتفع بصرُه إلى أرفع من أمانة المعاملات، ولا شأنَ له بعد ذلك بالقلب والحب والعاطفة، هذا القرنُ يقدِّمُ قرابينه للسوق، ومِنْ بعدِها الطوفان، فكيف يُعنى الناسُ بربِّ الكائنات؟ .

والبعضُ يؤمنُ بوجودِ الله. . وانتهينا.

والبعضُ لا يؤمنُ به. . وانتهينا أيضاً.

العبادةُ بدون ألم، والإيمان بدون ألم، ليس هناك تقوى ولا ليالٍ مؤرقة، ولا دموع إيمان، ولا أنين شك، ليس بينَ المؤمن وغير المؤمن فارقٌ كبير، كلاهما وضع إيمانَه ـ أو شكَّه، أو كفرَه ـ على الشاطئ، ثم خاضَ نهر الحياة بحثاً عن الصيد السمين.

اللهُ لم يعد في قلوبنا ومِن حولنا ـ إنَّه على أحسن الفروض ـ (المدير العام) لمؤسسة ضخمة اسمها الكون! .

لقد كان الدينُ يحدِّدُ للإنسان طريقه في الحياة، ويضعُ لحياته هدفاً، ثم جاءَ العلمُ وحارَ الإنسان أين مركزه في الحياة؟ حطّم العلم أهدافه، ولم يقِم بدلها أهدافاً أخرى، وحار الإنسان: ما هدفه في الحياة؟ فانطلق وراء رغباته، يتخبّط في الظلام.

كان البدائي يعدُّ عشيرته أو قبيلته هي العالم، وفي القرون الوسطى امتدَّ العالم ليشمل الأرض كلها، وفي القرن السابع عشر ظهر أنّ الأرض ليست الخليقة كلَّها، بل هي جانبٌ من الكون، ومع ذلك ظلَّ الكون بالنسبة للإنسان شيئاً محدوداً، حتى جاء القرن العشرون بكشوفه العلمية الضخمة التي أذهلت الإنسان، وعمَّقت لديه الشعور بأنه ليس هدف الخليقة أو مركز الكون، وإذن فكلُّ شيءٍ ممكن، وإذن فنحنُ هباء، وإذن دعونا نُطِعْ حوافزنا ونظفر بالمتاع! .

ولكنَّ النفس البشرية أشدُّ تعقيداً من أن تقبلَ إطلاقَ العنان للنزعات، ومن ثَمَّ انتشر الشعور بالنقص، والشعور بالذنب، وأصبحنا نعيش في عصرٍ عصابي رائدُه اقتناصُ المتعة والاستسلامُ للقلق!.

وكان للمادية صداها الضخم في شـؤون الجنس، وهو أخطر طاقـةٍ في الشخصية الإنسانية، فأصبح الجنسُ يعني الإغراء، جرَّدت الماديةُ الشهوةَ من معانيها التي غلَّفتها آلاف السنين، أفقدتها معنى الحب الذي ملأ قلوب أسلافنا، واتّجه بهم إلى السماء، والرسل، والقديسين، والآباء والأمهات.

وسخَّر الفنُّ نفسَه لهذا الإغراء الجنسي، الرسم الذي سعى دائماً إلى إبراز المشاعر، اتجه إلى إبراز المفاتن، وإهاجة الحسّ! والموسيقى التي كانت تدعو إلى الارتفاع، أصبحت تدعو إلى الحضيض! أمّا الحبّ فأصبحَ فناً له قواعده، وله صناعته، وأصبح القلب البشري مجرَّد آلةٍ مولِّدة للطاقة، وليست تلك الطاقة من الخير والفضيلة التي تشعُّ فيما حولها وتسجدُ لها الأفهام.

في غسق مدنية ذات قيم، وفجرِ مدنية تقوم على رقائق الفولاذ، وعلى ضجيج المادّة وهي تسحقُ ما حفل به تاريخ البشرية من أرقّ المعاني يعيش شباب العالم اليوم.

وهذا كلّه حق.

إنَّ في العالم جفافـاً روحيـاً يحرق حضارته، ويجعل شياطين الذهـول والفجور هي التي تجوب رحابه شرقاً وغرباً. فما علاج ذلك المنكر؟.

هل علاجه أن تظلَّ الصليبية حاقدةً على الإسلام، منكرة عليه حقَّ الحياة والدعاية والانطلاق؟.

إنَّ الإسلام في إبّان قوته الأولى تركها تعملُ إلى جانبه، وتعرِضُ ما لديها إلى جوار ما لدى الإسلام من عقائد ومبادئ، وكان هذا كسباً للعالم، وتهيئةً لبذور الإيمان وأسباب الخصب وأنواع الازدهار.

وماذا على المسيحية لو تركت الإسلامَ يدعو إلى الله، ويغري بالعمل الصالح، وينذِرُ بالدار الآخرة على النحو الذي جاء به؟.

مَنْ يدري؟ ربّما استراح إليه من ينقبِضُ عنها، فتكسب الحياة مؤمناً، بدل أن يتحوَّل هذا المخلوقُ إلى ملحدٍ بالدين كلّه.

مَنْ يدري؟ ربّما كانت لدى الإسلام أدويةٌ شتّى تشفي تطلّع النفوس إلى الشهوات الحرام، وحصاناتٍ تمنعها من التردّي في مهاوي الأثرة والظلم والعدوان.

فلماذا يطوى ذلك كله تحت ضغط الاستعمار الجائر، وينكمش أمام حقد العدوان المسلّح؟.

ولنفرض الإسلامَ ديناً فارغاً من هذه الطاقة التي يدّعيها لنفسه.

فما المانع من تركه يواجه عواقب دعواه التي لا أصل لها ـ كما يرى خصومه؟.

وما هذا التألُّب على مخاصمته وإحراجه؟.

إنَّ العالم لن يعرفَ السلامَ ما بقيتْ تحكمُه نوازعُ البغي والحسد.

* * *

بيوت العبادة

من مقارنةٍ سريعة بين أحياء القاهرة في الحضارة الإسلامية، وأحياء القاهرة في ظل المدنية الحديثة يستطيع أي رجل خالي الذهن إصدار حكم عادل صارم، بأنَّ المساجدَ لحقها ظلمٌ فادحٌ، وأنّها تجوهلت بطريقةٍ تزري بالإسلام وأهله . . .

فالمساجد في أحياء (الغورية) و(الدرب الأحمر) و(الخليفة)، و(الأزهر) وما إليها تكفي الرواد وتتّسع للمزيد، وإن كان الإهمال قد كساها بثوب من البلى لا يخفى على الناظرين.

أما حيث امتدَّ العمران في العصور الأخيرة، وانتشرت المباني في (شبرا) و(الزمالك) و(الزيتون) و(مصر الجديدة) فإنَّ الشُّحَّ في بناءِ المساجد ظاهر. بل إنّك تخترِقُ شوارع كبيرة، وتمشي مسافاتٍ طويلة دون أن يقعَ بصرُك على مسجدٍ واحد!!.

ولأضرب لك مثلاً من الواقع المحسوس: سِرْ من (ميدان التحرير) إلى (ميدان رمسيس) فلن يلقاك مسجدٌ واحدٌ، ويمكنك أن تُحصي بين الميدانين سبع كنائس سامقة . .

ثم استأنف المسير إلى ضاحية (مصر الجديدة) فلن تجدَ كذلك شيئاً من البيوت التي أذن اللهُ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه . . ولا داعي لإحصاء الكنائس . . وحسبنا أن نقول: إنَّ في (مصر الجديدة) وحدها أربعاً وثلاثين كنيسة لطوائفَ مختلفة، وفيها سبعة مساجد للمسلمين . . !!.

ولما كان المسيحيون عشر عدد المسلمين وفق آخر إحصاء، فقد كان المفروض أن يكون للمسلمين في هذه الضاحية (٣٤٠) أربعون وثلاثمئة مسجد، أو يكون للنصارى كنيسة واحدة بجوار المساجد السبعة التي للمسلمين في مصر الجديدة.

غير أنَّ المدنية الحديثة ـ ويقال: **إنها لا تتعصَّب لدين، ولا تتعصَّب ضدّ دين** ـ هذه المدنيةُ وضعت خطّتها ببصر، ونفّذتها بأناة وتعمّد، وقصدت قصداً صريحاً أن يندثر الإسلام، وتضمحلّ شعائره في العمران الجديد، وأن تبقى المسيحيةُ وحدها!!.

وضاحيةُ مصر الجديدة ليستْ إلا مثلاً لغيرها من البقاع التي يمتدّ فيها العمران، ولا يمتدّ فيها الإيمان، وهو ما تلحظه بسهولةٍ في كلِّ مكان.

إنَّ منطقة الرمل بالإسكندرية ـ وهي نصف المدينة ـ بها فوق السبعين كنيسة، على حين ليس للمسلمين ـ وهم كثرة السكان ـ غير بضعة مساجد.

لماذا يا قوم نُعامَل بهذه الضغينة؟ ولماذا تُبذل هذه المحاولات السيئة لإظهار الكثرة المسلمة مُحقَّرة العقيدة، مغموصة الشارات؟!.

إنَّ المسجدَ في المجتمع الإسلامي ضرورةٌ ما مثلها ضرورة، وأتباعُ هذا الدين مكلَّفون بالتردّد عليه خمس مرات في اليوم، ثم هو يضمُّ إلى ساحة العبادة مرافقَ للنظافة والتطهّر، تؤدي خدمةً جليلة للحياة العامة في بلدٍ أكثر من تسعة أعشاره مسلمين.

ونحن ـ مع احترامنا للنصرانية وحفظنا لحقوق أتباعها ـ نرى أن صلتهم بالكنيسة لا تعدو ساعةً في الأسبوع، وأنّه ليس من المستساغ بذلُ الأموال الطائلة في تشييدها كأنها قلاع.

إن ذلك فتح لباب منافسة لا طائل وراءها ولا نفع للجماهير منها، وإنّه من الواجب بناء بيوت العبادة للحاجة فحسب.

أما بناؤها لغرض فرض الطابع المسيحي على بلدٍ تسعةُ أعشارِه مسلمون فذلك جنون، وهو ذريعة إلى شرٍّ مستطار.

قلت: إنّ الحضارةَ الإسلاميةَ بارزةٌ في أحياء القاهرة القديمة، وهي حضارةٌ لم تُحابِ المسجدَ، ولم تَجُر على الكنيسة، بل أقامت من المساجد ما يكفي المسلمين دون نقص، ومن الكنائس ما يكفي المسيحيين دون زيادة، لكن الموقف الآن تغيَّر تغيُّراً يستدعي التأمّل.

فإنك تمرّ بميدان (التوفيقية) في القاهرة فتجد نحو سبعة آلاف مسلم يصلُّون الجمعة في الطريق العام، يفترشون الحصير أو ورق الصحف، أو الأرض العراء.. مساكين لا مسجدَ لهم!! بينما قريبٌ منهم، وعلى مسافة مئات الأذرع جملةَ كنائس متجاورة لا يدخلها يوم الأحد إلا نفر يُعدُّون على الأصابع.

أما الأحياء التي تكاثف فيها السكان، فجمهور المصلّين يحتاط بالمسجد، ويتناثر حوله يستقبل الحرَّ والقرَّ.

إنَّ القاهرة عاصمة الأمة العربية الضخمة ـ تضمُّ الآن قرابة ثلاثة ملايين نسمة[1]، والمساجد التي بها هي التي بُنيت يوم كان السكان عُشر هذا العدد، لم تزد شيئاً يُذكَر.. فهل جمدت بيوت العبادة الإسلامية كي تبلى مع الزمن، وتذهب مع الماضي؟.

* * *

واليوم أقرأ في (مجلة المصور) كلاماً يستحقُّ التسجيل، وهاك نصُّه:

«أريدُ أن أستجوبَ الأستاذ الشيخ (أحمد حسن الباقوري) ـ وزير الأوقاف ـ:
هل فكَّر سيادته مرة في الطواف بشوارع العاصمة عند صلاة الجمعة، ليرى أنَّ الدنيا لا تزال بخير، وأنَّ الإسلام لا يزال بخير، وأنَّ بيوتَ الله عامرة إلى حد أنها تضيقُ بالمصلّين، فلا يجدُ أكثرهم مكاناً له إلا في الطريق العام، فهو يفترش الصحف، وتحرقه حرارةُ القيظِ في الصيف، ويغرقُه وابل المطر في الشتاء؟.

إنني أطالب الأستاذ الباقوري بأن يُطِلَّ مرّة من نافذة وزارته، ليرى المسلمينَ أمام الجامع الملاصق لها.. (جامع جركس) ليراهم وقد سدّوا الطريق، وخفضوا جباههم لله في عرضه وعلى أرضه، ثم أطالبه بأن يُفَوِّت على نفسه مرّةً صلاة الجمعة ـ وسيغفر الله له هذه المرة ـ إذا هو طافَ خلالها بطرقات العاصمة، ليرى المشهد نفسه، الذي يراه أمام (جامع جركس)، أمام جامعي (الكخيا) و(أولاد عنان)، وككل جامع في البلد. بل إنه لو كلَّف نفسه مشقّة الذهاب إلى (شارع عرابي) ـ مثلاً ـ فسيرى شارع (سوق التوفيقية) وقد تحوَّل إلى مسجدٍ في العراء.. في عرض الطريق.. لأنَّ هذا الحيَّ كله ليس به مسجد واحد، ولو زاد سيادتُه

---

(١) كان هذا يوم إصدار الطبعة الأولى للكتاب.

نفسه مشقّة، فسيرى أحياء كثيرة شأنها شأن ذلك الحي.

وأشهد أنني لم أرَ واحداً من أبناء العقائد الأخرى يؤدّي صلاته في الطريق، في أي بلد من بلاد العالم، ولكن الإسلام دين سمح، يبيحُ لصاحبه الصلاة في أي مكان، بَيْدَ أن وزير الأوقاف لا يجوزُ له أن يستغلّ هذه السماحة في تعذيب المصلّين بقيظِ الصيف وبرد الشتاء.

وإذا كانت ميزانية الوزارة لا تسمح ببناء مزيد من المساجد، فلماذا لا تتحول المدارس مثلاً، وهي معطّلة يوم الجمعة، إلى مساجد، يؤدي المسلمون فيها فريضة الصلاة»؟.

وليت وزارة التربية والتعليم ترضى أن تكون مدارسها مساجد يوم الجمعة.

إنَّ أغلب المسيطرين على هذه الوزارة يجِلُون[1] من أي سمة إسلامية تصبغ المعاهد والجامعات، كأنّما كُتِبَ على دور العلم عندنا أن تعيش بلا نسب ولا وجهة، وذلك في بلادنا وحدها، أما جامعات الغرب ومدارسها، فإنَّ الصلبان فوقها، والكنائس في مداخلها، وثياب الكهنوت يرتديها الرجال المسؤولون حتماً عند توزيع الإجازات العلمية الكبرى.

ما أتعس حظّ الإسلام!!.

* * *

ولنترك (وزارة التربية والتعليم) إلى (وزارة الأوقاف) وهي موضوع القضية المعروضة.

ولستُ هنا أحاول الدفاع عن سياستها في رعاية المساجد، ولكني أعرف قصةً لجامع (جركس) هذا، ينبغي أن تُذاع، فقد وضعت الوزارة مشروعاً بإعادة بنائه موسعاً مجمَّلاً، وعُرِضَ المشروع على بلدية القاهرة لإقراره، وصادف ذلك صدور قانون يمنع هدم العمارات القائمة وإعادة بنائها، ورأى رؤساءُ البلدية ـ وهم مهندسون أذكياء جداً ـ **أن يطبقّوا القانون على المسجد!** كأنَّ وزارة الأوقاف ستهدِمُ المسجد كي تؤجّره بعد تجديده بثمن أغلى.. وبقي المسجد على حالته الرثّة وضيقِه البالغ.

---

(١) يجلون: من الوجل وهو الخوف.

وعندما تُلقي نظرةً على مبنى مسجد (الكخيا) وتقارن بينه وبين العمارات الوضيئة الرشيقة المقامة حوله تشعر بغُصَّة، وأعرف أنّ الوزارة تساوم البلدية منذ سنين كي تسمحَ بضم القطعة المجاورة له، وإعادة بناء المسجد بعد دفع ثمنٍ مناسب للأرض التي ضُمّت، ولكن البلدية قاومت وتراخت، ولا أدري ما تمَّ إلى كتابة هذه السطور! ولكنّ الذي يدريه كلُّ مسلم أنَّ مسجد (الكخيا) لا يزالُ خربة كبيرة في المنطقة التي يقع بها.

ولا أدري، هل مهندسو البلدية هؤلاء يكنّون للإسلام حظّاً ما من احترام؟.

أو يعرفون أنَّ (مصر) عرضت لهاظروف نقلتها من حال إلى حال؟.

لقد كرهوا أن يُبنى مسجدٌ كبير في ميدان (محطة مصر) يمثّل الحضارة العربية، ويستقبل الألوف الوافدة على العاصمة، ويسدّ فقرَ هذه المنطقة إلى مسجدٍ رحب منيف.

ورأوا ـ ببصائرهم النيّرة، وتربيتهم المدرسية الناضجة ـ أنَّ خير ما يمثّل في هذه الميدان الشاسع هو تمثال (رمسيس) فرعون مصر القديم قبَّحه الله، وقبَّح النزعة الفرعونية التي أوحت بإقامته!!.

وأنا أعلم أن (وزارة الأوقاف) كانت على أُهبةٍ كاملةٍ لبناء هذا المسجد في أرضها وبأموال المسلمين، لكنّها توقّفت مرغمةً..

أما المصيبة التي لا تُقابلُ ببكاءٍ ولا يُسمَحُ فيها لرثاء، فهي مصيبةُ تجميل القاهرة، فإنّ هذا التجميل اقتضى هدمَ أربعةَ عشرَ مسجداً لوزارة الأوقاف، عدا بضعة مساجد للجمعية الشرعية وغيرها، ونحن مذهولون لهذا الصنيع الذي اجترحه الإنكليز السمر[1]، ويكاد القلبُ يقفُ لهذا الصنيع الشائن.

وأثبت هنا أسماء المساجد التي درست معالمها، وذهبت مع الريح:

١ ـ مسجد سليمان الغزي	تفتيش ثان
٢ ـ مسجد العدوي	تفتيش ثان

---

(١) هم أذناب الإنكليز من المصريين، الذين تولّوا تنفيذ خططه بعد رحيله.

٣ ـ مسجد البلخي	تفتيش ثان
٤ ـ زاوية أولاد شعيب	تفتيش ثان
٥ ـ مسجد أبي قابل العشماوي	تفتيش ثان
٦ ـ محمود كاتم السر	تفتيش ثالث
٧ ـ زاوية الكزروني	تفتيش ثالث
٨ ـ شمس الدين آغا	تفتيش ثالث
٩ ـ زاوية عثمان	تفتيش ثالث
١٠ ـ زاوية بشير آغا	تفتيش رابع
١١ ـ مسجد عز الدين الخطيري	تفتيش رابع
١٢ ـ مسجد المسيري	تفتيش رابع
١٣ ـ مسجد بشير آغا المستجد	تفتيش رابع
١٤ ـ مسجد الحفني	تفتيش خامس

وهناك مساجد أخرى للجماعات الإسلامية نذكرُ منها اثنين للجمعية الشرعية:

١ ـ مسجد التنظيم بشارع مجرى العيون البحري.

٢ ـ زاوية عثمان بمراسينا.

ولستُ أدري لماذا ركب السيد (عبد اللطيف البغدادي) وزير الشؤون البلدية والقروية هذه الخطة الجائرة؟.

لقد كان العزاء الوحيد من فقدان هذه البيوت التي أذِنَ اللهُ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، أن تمهِّد إدارة البلدية عشرين قطعة أخرى من الأراضي التي تملكها في الأحياء الحديثة، وأن تتولَّى بناءَ مساجد عليها، تكون عوضاً عن تلك التي هُدِمَت.

فإن عجزت عن ذلك الصنيع، قدَّمت الأرض الصالحة للبناء، والمال

القليل أو الكثير الذي تستسيغ دفعه، وطلبت إلى (وزارة الأوقاف) أن تُنشئ هذه المساجد. .

ولكن البلدية لم تفكّر في شيء من هذا، ومن أين يجيئها التفكير الطيب، ومنزلةُ بيوتِ الله لدى رؤسائها نزلت إلى درجة الصفر؟! .

* * *

وزاد الطين بَلَّة أنَّ (وزارة الأوقاف) نفسَها مهدّدةٌ بالزوال، وبين الحين والحين تسمع صحفياً هنا وهناك، ينِدِّد بوجودها، ويستعجِلُ دفن رُفاتها! .

والحماسُ الكامن وراء عبارات الطعن في الوزارة والتهكّم على رسالتها يستعدي التأمّل.

فإنّ أصحابه تبردُ مشاعرهم، وتفترُ حرارتهم، حين يتكلَّمون عن حانات الخمر، وصالات الرقص، كأنَّ هذه المؤسسة الدينية أخطر على الأخلاق والآداب من مباءات الرجس والفجور، ونحن نعلم أنَّ هناك تقصيراً في أعمال هذه الوزارة يجبُ علاجه.

ولكن البونَ بعيدٌ بين ناقدٍ يريدُ بكلامه تحقيقَ الصالح العام للدين والأمة، وآخرُ يريدُ بكتابته الإتيان على بقايا الإيمان والخير في هذه البلاد. .

وعندما صدر القانون بالاستيلاء على الأوقاف الخيرية، وتمليكها لصغار الزُّرَّاع، كنتُ أرى العجب. .

هذا القانون يقضي بتوزيع نحو خمسين ألف فدان يملكها الأقباط، ونحو مئة وخمسين ألف فدان يملكها المسلمون على الفلاحين، بعد أن تتولّى الدولة ـ بطريقة مرسومة كما يقال ـ الإنفاق على جهاتِ البر لدى الفريقين. .

ومع ذلك فقد كان مندوبو الإصلاح الزراعي يدخلون وزارة الأوقاف كما كان الجنرال (غورو) يدخلُ دمشقَ، ويتعجّلون الاستيلاء والتوزيع بلهفةٍ ظاهرة! في حين أنَّ أحداً منهم لم يذهب إلى (دار البطريركية) لتنفيذ ذلك القانون، وهذا عوجٌ في السلوك يبعثُ على الريبة ويثير الحفائظ.

ولستُ أتصوَّر أنّهم يفكّرون في اجتياح أوقاف المسلمين وحدها. وإن كانت الدلائل تشيرُ إلى ذلك، إنَّ ذلك مستحيل ـ كما أعتقد ـ لكن ما معنى

الإسراع هنا والبطء هناك؟ .

وعندي أنَّ من الخير إلغاء هذا القانون، كما ألغي مرسومُ القانون بإنشاء مديرية التحرير، فذلك أروح للقلوب، وأدعى إلى طمأنينة المؤمنين.

* * *

وكارثة أخرى حلّت بالمساجد، وأصابتها بضرّ شديد!!.

تجمّعت مقدمات هذه الكارثة من سنين طوال أيام الاحتلال البريطاني، ثم بعد اضمحلال الروح الديني، وسطو الحكّام والكبراء على الأوقاف، وتبديد مصارفها في غيرِ ما أنشئت له وحُبست عليه.. ونجم عن ذلك أنَّ عشرات المساجد لحقها البِلى، ونال منها الإهمال، فتداعت جدرانُها، وحالت معالمها، وعطّلت مغانيها..

والعجبُ أنَّ ذلك يحدث في بيوتِ الله عندنا، في حين أنَّ الأموال الأمريكية تردُ بكثرة لبناء مزيد من الكنائس الشاهقة، وإن كانت هذه الأموال تظهر في صورة تبرعات مجموعة من المواطنين، وليست عوناً من الخارج لأغراض مريبة! ونحن ـ المسلمين ـ لا بدّ أن نواجه هذه الحال، وأن نرصدَ من الأموال ما يصونُ بيوتَ العبادةِ لدينا، ويحفظ مكانتها، ويستديمُ هيبتها.

والمسجد ليس مرفقاً خاصاً لطائفة معيَّنة، إنّه مؤسسة اجتماعية منوّعة الأهداف، رحيبة الغايات، ترتبط بازدهارها أخلاقٌ لا تقوم أمتنا إلا بها، وليس من المجون أو من الغرور أنَّ الاستعمار يريد الإتيان عليه، والإجهاز على رسالته.

إنَّ القضاءَ على المسجد يعني إبادة دين، ومحو تاريخ، واستئصال أمة، ولذلك نرى من حقه على الدولة أن تهتمّ به، وأن تعينَ على بقائه، وأن ترصدَ من الميزانية العامة ما يحقق ذلك.

كم تظن عدد المساجد المخرّبة في القاهرة وحدها؟ .

إنّها تقارب المئة، منها نحو السبعين تتبعُ وزارة الأوقاف، عدا ما يتبع مصلحةَ الآثار، وما يتبع الأهالي.

ونحن نناشد الدولة أن تتلافى هذه المأساة.

وهاك بياناً بأسماء المساجد المخربة التابعة لوزارة الأوقاف، ومواقعها.

بيان

بأسماء المساجد الخربة والخرابات[1] التابعة لوزارة الأوقاف بمدينة القاهرة

التفتيش الأول

اسم المسجد	الموقع
١ ـ الفضاء المتخلّف من مسجد الصالح أيوب	حارة الزهرية بالنحاسين
٢ ـ مسجد الغوري	خان الخليلي
٣ ـ الفضاء والإيوانات والخرابة خلف مسجد الملك الناصر	النحاسين
٤ ـ خربة خلف مسجد برقوق من الجهة الغربية	النحاسين
٥ ـ خربة خلف مسجد السلطان الكامل بالجهة الغربية	النحاسين
٦ ـ زاوية جو لامد	برجوان
٧ ـ مسجد الغمري	مرجوش الجواني
٨ ـ بهي الدين البلقيني	أمير الجيوش
٩ ـ شمس الدين الزركشي	بين السيارج
١٠ ـ سيدي كمال	الحسينية
١١ ـ المدبولي	البيومي
١٢ ـ زاوية العنبري	الدرّاسة

(١) هي المدارس الدينية والمساكن الملحقة بالمساجد لسكنى موظفيها، وكان الأقدمون يبنون مع المساجد أجنحةً للأغراض الاجتماعية النبيلة.

اسم المسجد	الموقع
١٣ ـ زاوية الجندي	كفر الزعاري
١٤ ـ السلاموني	حارة الكفر
١٥ ـ خربة خلف مسجد الشيخ خليل	كفر الزغاري الجديد
١٦ ـ مسجد القرافي بدر الدين	حبس الرحبة
١٧ ـ نور الدين العجمي	الصالحية
١٨ ـ زاوية خان سرور	خان سرور رقم ٩٥
١٩ ـ زاوية محمد سعيد شقمق	خان الخليلي
٢٠ ـ الشيخ الجبعاني	السبع قاعات البحرية رقم ١٩
٢١ ـ القاضي بركات الشهير بالمنسي	حارة اليهود الربانيين
٢٢ ـ زاوية الزنكلوني خامس	سوق السمك القديم
٢٣ ـ مسجد نجم الدين أول	شارع نجم الدين ـ باب النصر
٢٤ ـ خربة خلف دورة المزهرية	البنهاوي

التفتيش الثاني

اسم المسجد	الموقع
١ ـ ضريح وزاوية أم العش	درب المحكمة
٢ ـ ضريح وزاوية بهاء الدين	حارة بهاء الدين
٣ ـ مسجد محمد العراقي	حارة الطمار
٤ ـ زاوية الدعكي	حارة الدعكي ببير حمص
٥ ـ شهاب الدين	درب الشرفا رقم ٤٦
٦ ـ مسجد وضريح الأنصاري	شارع مشتهر بعابدين

اسم المسجد	الموقع
٧ ـ ضريح محمد دقيق العيد	حارة أبو قدرة
٨ ـ ضريح حسن الأكبر	داخل قصر عابدين
٩ ـ مسجد مصطفى الصغير	علوة الكوم
١٠ ـ زاوية وضريح محمد الخباز	حارة النوبي رقم ٣٧
١١ ـ مسجد خربة ودكاكين	الجامع الأحمر
١٢ ـ زاوية الأربعين	حارة الأمير حسين المتفرعة من درب عبد الخالق
١٣ ـ مسجد أبي بدير العريان	أبو الوفا بالفوطية
١٤ ـ مسجد البرماوية	باب البحر
١٥ ـ خربة ومساكن تابعة لوقف الست سالمة	باب البحر
١٦ ـ الجد علي	درب الخف، المتفرّع من باب البحر
١٧ ـ زاوية إسلامي آغا	زقاق الجامع، المتفرع من درب الإبراهيمي
١٨ ـ زاوية السني	السد المتفرع من حارة سننات
١٩ ـ زاوية سعدة	درب سعادة سابقاً ـ باب البحر
٢٠ ـ زاوية القوصية	شارع الطواشي
٢١ ـ زاوية البوارين	حارة البوارين
٢٢ ـ زاوية محمد زيادة الأنور	شارع بين الحارات
٢٣ ـ زاوية وضريح أبي طالب	شارع الصبان، عطفة المبرقعة

التفتيش الثالث

اسم المسجد	الموقع
١ ـ مسجد الجنيد	الدرب الجديدة بالسيدة زينب
٢ ـ مسجد محمد الكردي	حارة الهياتم درب الجماميز
٣ ـ زاوية سعد الدين	درب الجماميز
٤ ـ زاوية آغاشكيان	حارة عمر شاه
٥ ـ زاوية وضريح الأربعين	شارع الخضيري
٦ ـ مسجد شجرة الدر	شارع الركبية
٧ ـ مسجد بدر الدين الوفائي	شارع بدر الدين الوفائي
٨ ـ مسجد المسيجيين	شارع الجديد طريق المقطم
٩ ـ زاوية وضريح سيدي عوض	حارة عبد الباقي
١٠ ـ زاوية وضريح الشيخ محمد أبي زغلول	حارة اللبودية
١١ ـ مسجد يوسف الكردي	درب الجماميز
١٢ ـ زاوية محمد بك عبده	سوق السمك بالبغّالة
١٣ ـ زاوية بمبة فائق خليل	شارع نافعي بالسيدة زينب

التفتيش الرابع

اسم المسجد	الموقع
١ ـ قضاء مسجد الخضيري	شارع الكورنيش الجديد ببولاق
٢ ـ زاوية سميحة	شارع الجوابير ببولاق
٣ ـ زاوية عشش النخل	شارع عشش النخل ببولاق

٤ ـ زاوية الكسات	شارع الخضيري
٥ ـ زاوية بشير آغا	حارة الجامع

التفتيش الخامس

اسم المسجد	الموقع
١ ـ مسجد عبد الله جاويش	شارع النبوية
٢ ـ زاوية السبع بنات الأيتام	ملاحق لمسجد النبوية
٣ ـ مسجد العنبري	درب الدليل
٤ ـ مسجد الحرشلي	شارع سكة المرداني
٥ ـ زاوية صالح كتخدا	شارع سوق السلاح
٦ ـ مسجد محمد سودون	شارع الغندور
٧ ـ زاوية الروزمانجي	شارع الوالي حسين
٨ ـ زاوية الأربعين	شارع نور الظلام ، عطفة المطبعة
٩ ـ مسجد بنت المعمار	شارع الألفي ، حارة العمارشة بالحلمية
١٠ ـ مسجد عثمان الحطابي	شارع درب سعادة

* * *

ذلك إحصاء ناطقُ الدِّلالة . . .

ولن نُعقِّب عليه إلا بسؤال واحد . كم عدد الكنائس المهدمة؟ .

لا شيء! لا شيء! . . .

فلتبتسم شفاه ، ولتنفطر قلوب .

* * *

الموظّف النّموذجي

قلتُ آنفاً: إنَّ سياسةَ الاستعمار القريبةَ المدى والبعيدة المدى تستهدفُ القضاء على الإسلام، وتسويدَ يومه وغده، وقد أعدت لذلك أجهزة حكومية معيَّنة اختارت أعضاءها بدقة ليؤدي كلٌّ منهم دورَه المنوط به في حدودٍ تنسجم مع الغرض العام، وتتفق مع النتائج المقدرة.

والشرط الأول للموظّف الذي يحوز رضا الرؤساء: **أن يكون فارغ القلب من الإيمان، لا تشغله مصلحة قومية عليا، ولا تحرّكه عاطفة إسلامية، ولا يبالي بشيء أبداً إلا بأداء واجبات الوظيفة كما رُسمت له، ولا بأس بعد ذلك أن يكون فاسقاً سكّيراً، هاجراً للصلاة، جريئاً على حدود الله، فتلك أمور أقل ما توصف به أنّها لا تهمُّ المستعمرين.**

حدَّثني صديقٌ أنَّ (وزارة المعارف) أرسلت أحد مفتشي اللغة العربية إلى مدرسة أجنبية لبحث حالتها، وكان ذلك في رمضان.

وحار الناظر ـ وكان يونانياً ـ كيف يُحيِّي المفتش القادم؟.

تُرى أصائمٌ هو أم مفطر؟.

فقال ـ مختبراً ـ: أقول رمضان كريم..

وأجاب المفتش: ليس لرمضان عندي شيء!!.

وهنا أمر الناظر اليوناني بإحضار القهوة للمفتش المسلم! الذي يتجرّعها ـ إن شاء الله ـ لهيباً يومَ القيامة.

والغريب أن المفتّش من (دار العلوم).. ولكنّ أبناء (الجامع الأزهر) و(دار العلوم) إذا كفروا كانت لعنتهم نكراء زعراء، لأنهم يحاولون أن يظهروا للناس وكأنّ الدين لم يعترض حياتهم يوماً، أو أنهم لم يتأثّروا به قَط.

أما العشرون سنة التي انقضت أمام عصا الفقيه في الكُتَّاب وأمام تراث

الأقدمين في المعاهد والكليات. . فهذه ذهبت سُدًى.

ولِمَ ذلك؟ لضمان المستقبل الرخي والترقيات المتتابعة!.

فإن يكُ هذا شأنُ من له بالتعليم الديني صلة، فكيف بخريجي التعليم المدني، الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما أعرفه أنا أو تعرفه أنت عن حياة سكان المريخ؟!.

من هؤلاء الناس، ومن أبناء الديانات الأخرى كوَّن الاستعمار الجهازَ الحكوميَّ المشتمل على ألوف الموظفين، ووَكَّل إليه أن يحرس مستقبل أمتنا العزيزة!.

وحسبي أن أضعَ تحت النظر المتفرّس صورتين لهذا اللَّون من الموظَّفين، إحداهما من بيروت، والأخرى من القاهرة.

* * *

قال صاحب مذكرات بيروتي: «كان ذلك الموظف يسكنُ حياً إسلامياً، وكان بجواره مسجدٌ يُذكَر فيه اسم الله، ويدعو فيه المؤذّن خمس مراتٍ في اليوم إلى الصلاة والعبادة والخير: «حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح».

ولكنّ هذه الدعوة النبيلة، وهذا الكلام الجميل لم يُعجبا ذلك الإنسان، ولم يكن بوسعه نقل المسجد من جواره، فارتحل عن الحي.

وسأله أحدُهم: غريبٌ أمرك يا فلان. . لقد كان آباؤك وأجدادك يطربون لهذا الأذان، فما الداعي للنفور منه الآن؟!.

قال: لهم رأيهم، أما أنا فيزعجني هذا الأذان، وقد تتهمني بالتعصّب، وذلك رأيك، ولكن هذه هي الحقيقة».

كان صاحبنا من كبار الموظفين في الدولة، وكان في دائرته موظفون كثيرون من مختلفي الطوائف، ولكنّه كان يُطبِّق نظرية الوطن القومي بصرامة.

لم يكن يكره المسلمين في (لبنان) فحسب، بل في كلِّ بلدٍ له بلبنان صلة، وهو يكره (السوري) لأنه مسلم، ويكره (المصري) لأنه مسلم، ويكره (العراقي) لأنه مسلم.

ويُفضِّل أن يعيشَ في عزلةٍ منكمشاً على نفسه.

إنَّه مثالُ الموظف النموذجي الذي يُطبّق سياسة (الغرفة السوداء)، تراه ضيّق الخيال محدود الذكاء، يحفظُ القوانين، ولا يُحسن التصرّف بها، يُعقِّد المسائلَ أكثر مما يسهِّلُها، ويخلق حولها جوّاً من الغموض والإبهام.

إنَّه حقود حسود، لا يترك فرصة تمرّ من غير أن ينتقمَ من الذين يخالفونه في الرأي ولو بعد سنين، مستخدِماً في ذلك نفوذه ووظيفته.

شغل عدة مراكز إدارية، ونُقِلَ إلى عدة دوائر، وأثرى، وأصبح من أرباب النِّعَم بفضل عرق جبينه، طبعاً!!.

ولم يسأله أحد في يومٍ من الأيام: من أين لك هذا؟.

كان في دائرته موظفٌ من طائفته، يحضر إلى مكتبه متى شاء، ويتغيَّب متى شاء، ولا حساب ولا عتاب، وكان إلى جانبه موظف مسلم، يرى ذلك بأمِّ عينه، فيسكتُ خشيةَ الانتقام منه.

وحدث مرة أن طلب الموظف المسلم إجازة نظراً لضعفه ومرضه، فرفض حضرتُه منحَه يوماً واحداً، وانتهره قائلاً: «إنَّ أشغال الدائرة تتراكمُ يوماً بعد يوم، فكيف تتغيّب؟ ولمَن تتركها؟!».

ـ ولكن فلاناً ياسيدي يتغيَّب باستمرار، إنَّه لا يحضر إلا في المناسبات.

ـ عليك نفسك، ولا تتدخَّل فيما لا يعنيك!.

لقد كان صاحبُنا يجمع المجدَ من أطرافه: فهو ابنُ أسرةٍ معروفةٍ، وهو تلميذ معاهد الرهبان، وربيب (الغرفة السوداء)[1] يحضر اجتماعاتها، ويطبق سياستها، وينفّذ خططها المرسومة بحكمةٍ وإخلاص.

أضف إلى هذه المزايا أنَّه صنيعةُ الفرنسيين، فهم الذين صنعوه، وفسحوا أمامه مجال الترقّي والتقدّم، فكان يترقّى بقدر ما يُظهر من تعصّب، يُثبتُ كفاءته في هذا الميدان.

---

(١) الغرفة السوداء: الماسونية.

كم هم الموظفون النموذجيون الذين ورثهم عهد الاستقلال من أمثال هذا المخلوق؟!.

* * *

لندع الشمال إلى الجنوب، ولنفتّش نحن أيضاً عن مواريثنا من الأشخاص الذين احتلّ الاستعمار عقولَهم وقلوبَهم، فلمّا طردناه من أرضنا، بقي في نفوسهم لم يخرج.

... هو مهندس كبير ـ ويؤسفني أن تجيءَ الأمثلةُ من هذه الطائفة، مع أنَّ بها رجالاً يستحقّون كلَّ إجلال ـ تولَّى منصباً يستطيعُ فيه أن يأمرَ وينهى، وأن يُتْعِبَ ويُريح..

وكان يسكن في (مصر الجديدة) على مقربة من ساحة فيحاء، نهضت على جانبها البعيد كنيسة تنطَحُ الآفاق بأبراجها الشم، ويشهد طرازُها البيزنطيُّ الفاخرُ والمكان الذي شغلته بأنها تكلَّفت نحو مئتي ألف جنيه.

ولا أحبُّ الاستماع إلى الإشاعات التي تقول: بأنَّ مهندسنا المحترم هذا له يدٌ طولى في التصريح بالبناء وإتمامه.

ولكنَّ الشيءَ الذي يجبُ أن نتابعه بعناية هو أنَّ مسلمي الحي كانوا يحتشدون للصلوات في الجانب الآخر من الساحة العريضة.

ولقد وسعتهم هذه البقعة من أرض الله، وأذكرُ أنّي صلّيتُ معهم الظهر ـ ومعي زميلي الشيخ (سيد سابق).

وأرسلتُ طرفي يمنةً ويسرةً، فرأيتُ سوراً من القصب واللَّبن حول قطع مبعثرة من الحصر، وفي جهة القبلة كرسيٌّ يمثّل المنبر!.

وطابع المكان كلّه يدل على العوز الشديد.

واقترب مني أحدُ الأهلين، وقال: إنَّ جمعيةَ (الإمام علي بن أبي طالب) سوف تبني مسجداً بهذا المكان، وهي تجمعُ الصدقات له.

وبعد فترة من الزمن جاءني النبأ الغريب.

إنَّ المهندس الكبير ـ وكان رئيساً للبلدية ـ أمرَ بإزالةِ السور ، ومحوِ المسجدِ ، ومنعِ البناء ، وأرسل إلى رجال الشرطة يطلب إليهم التنفيذ .

ولكنَّ منعَ الجمهورِ من أداء الصلاة والأذانِ لها في بقعة ملائمة لهم أمرٌ يستحيل تنفيذه ! .

وهَبْ أنَّ السور التافه قد زال بغتةً . . إنَّ المؤمنين سوف يستحثُّهم ذلك إلى إعادته وحراسته .

وفي ليلةٍ معيَّنة اجتمعَ ستة عشر بنَّاءً ، وتواصوا بينهم ألا يطلعَ الصبحُ حتى يكونوا قد رفعوا السور أربعة أمتار ، وحتى يكونوا قد أبرزوا بناءَ المسجد في ذلك الميدان ! .

وجُنَّ جنونُ رئيس البلدية لهذه الجريمة النكراء ، كيف أمكن المسلمين بناءَ مسجدٍ متواضعٍ بهذه السرعة ! .

إنَّه ـ وهو الموظف الكبير ـ يجبُ أن يمنع هذا العدوان الغاشم .

والمضحك أنَّ هذا الرجل يحملُ اسماً إسلامياً كتبه أبواه في شهادة الميلاد .

وشرع ذلكم الرئيس المسلم يتخذُ الأهبة لهدمِ المسجد ، فطلبَ إلى رجال الشرطة منع أي زيادة في البناء .

ثم أرسل إلى وزارة الأوقاف مهندساً يحمل استفتاءً خلاصته :

هل يجوزُ اقتطاعُ جزء من الميدان لبناء مسجد عليه دون إذن؟ .

وصياغةُ القضية في هذا التساؤل الخبيث لها دلالتها ! ! .

الرجلُ يريد هدم بيت الله بفتوى من رجال الشرع ! ! .

وتلقَّيتُ أنا السائلَ ، وكتبتُ الجواب الحق ، حمله باليد السيد المهندس الذي حضر إلى الوزارة لاستعجال الفتوى .

وأشهدُ أنَّ الرجل كان مُحرَجَ الصدر لتصرف رئيسه ، لكن ما عساه يفعل ! .

ولم تعجب الإجابة طالبها .

بَيْدَ أنَّ يقظة الشعور العام في المنطقة أكرهت الرجل على التريُّث في أمر الهدم، فعلَّقه بإنجاز وزارة الأوقاف لمسجد تبنيه في ناحية أخرى مجاورة.

فإذا أتمَّت الوزارة مسجدَها هُدِمَ ذلك المسجد..

وعَزَّ على الأهالي أن يكون الرجل جريئاً في كفره إلى هذا الدرك.

ووصلت المسألة كلها إلى المسؤولين الكبار فعالجوا الأمر بما ينبغي من حكمة.

وكان ذلك المهندس الحقود على الإسلام قد ترك خدمةَ الحكومة لأمر ما. فرأت البلدية أن تدعَ الجمهورَ يُكمل بناءَ المسجد، وأبلغت الجمعية المشرفة عليه هذا الإذن، وهي الآن بصدد إتمامه[1].

* * *

---

(١) من قول الحق أنْ نُصرِّح بأنَّ الشيخ (أحمد حسن الباقوري) وزير الأوقاف أبلى بلاءً حسناً في إعانة الأهلين على بناء مسجدهم.

صحافيون شرفاء

أظنُّ عداوةَ الاستعمار للإسلام أصبحت لا تخفى على مَن له مِسْكة عقل، وأحسب أنَّ وسائله قد افتُضحت، فما يُخدع بها إلا غافل.

إنَّ مصلحته العاجلة والآجلة فضُّ المسلمين عن دينهم، وإرخاصُ قيمته في أعينهم، وتلقينهم الاستهانة بأوامره والجرأة على نواهيه، والانصراف عن قضاياه، ودسّ هذه السموم جميعاً في تعاليم معسولة، ظاهرُها الاعتدال والحياد المجرَّد إلى الأشياء، وباطنُها فصمُ العلاقات النفسية بين المرء ودينه، حتى يحيا وهو سليب الإرادة، طائش الوعي. ينجذب إلى كل تيار، ويجري مع كل صيحة..

والسفارة الأمريكية في (مصر) وحدها أعدَّت في قسم الاستعلامات قُرابة مئة موظف، لأغراضِ النشر والدعاية، وتزيدُ الميزانية المرصدة لهذه الشؤون على ميزانية جامعة الدول العربية!!.

وأعلمُ ـ ويعلم غيري ـ أنَّ الأرقام التي تدلُّ على المصروفات الظاهرة شيءٌ آخر قد يقلُّ كثيراً عمّا يُصرَف في السر لضمان الأشياع والمحبّين!.

وقد نتساءل: ما علاقةُ هذا بعداوة الإسلام والكيد له، وتلك نفقات لها نظائر في عشرات الدول الأخرى؟! وهو سؤال يرد حتماً!.

بَيْدَ أنَّ الذي يعرف أنَّ شركة قناة السويس ـ قبل تأميمها ـ كانت تُنفِقُ بضعة ملايين من الجنيهات على أغراض النشر والدعاية، وأنَّ من بين هذه الأغراض إعطاء الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية، ولفيف من حملة الأقلام ورجال الفن. الذي يعرف هذا يدرِكُ أنَّ الاستعمار لا يُضيِّع أموالَه سُدًى، ولكنّه يوظّفها وفق سياسة خاصة...

إنَّ صورة (الشيخ متلوف) التي كان يُرادُ بنشرها تحقيرَ العالِم المسلم، وإسقاط منزلته بين الناس كان صاحبها يتقاضى خمسين جنيهاً!.

خمسين جنيهاً على الصورة الواحدة! . لِمَ هذا كله؟ .

حتى تنفتح شهيةُ الحيوان الرسام لمزيدٍ من الفن في تحقير رجال الإسلام . .

فإنَّ رجال الدين الإسلامي ـ إن صحَّت التسمية ـ يفعلونَ ما لا يفعله في القديم ولا في الحديث رجال النصرانية واليهودية وسائر الأديان، فيجبُ أن توضَع الجوائز المغرية لقتلهم هم وحدهم دون غيرهم من أي ملَّة أخرى! .

إنَّ المرتزقين من أموال الاستعمار، والذي يتطوّعون من تلقاءِ أنفسهم للحظِّ من هذا الدين تجمعهم ـ طوعاً أو كرهاً ـ غايةٌ واحدةٌ، هي **إقصاء الإسلام من الحياة العامة**، حتى يخلو الطريق للغزو الأجنبي، فيعربد كيف يشاء .

مَن الذي كان يتصوَّر أنَّ السيد (كميل شمعون) جاسوسٌ إنكليزي وهو رئيس دولة لبنان يُشار إليه بالبنان؟ .

إنّ الاستعمار يتخيَّر الرجالَ الذين يعملون معه في شتَّى الطوائف، ولكلِّ واحدٍ دورٌ خاصٌّ يقوم به، ومن جملة الأدوار الموزّعة بعناية تمثيل الرواية القذرة، التي يُضار بها الإسلام وأهله أشد الضير .

والمتتبع لِما يُكتَبُ في الصحف ضدَّ الإسلام يستغربُ كيف جُنِّدت هذه الأقلام كلها لمناوشة هذا الدين وإسقاط رايته . . ؟! .

وسأفترض أنَّ هؤلاء الكُتَّاب شرفاء، لا يعملون لحساب جهة أجنبية، وأنَّ إهانتهم للإسلام نابعةٌ من أفكارهم التي اقتنعوا بها، وأنهم ليسوا ببغاوات تردّد ما يُلقى إليها، إنني أفترض هذا .

لكن ما الرأي إذا كانت هذه الجهود المنظَّمة المترادفة تحقّقُ برغم أنفِ أصحابها آمالاً صليبيةً معروفة؟! .

في برنامج (الشباب يريدُ أن يعرف . .) الذي قدَّمته الإذاعة المصرية حيناً من الدهر .

قال السيد (فكري أباظة) : إنَّ أعظم رجل في التاريخ الحديث هو (مصطفى كمال) في تركية!! .

ولا أدري لماذا يُحترَم رجلٌ أبعدَ الإسلام عن الدولة، ورسمَ سياسةً جعل بها أمته ذيلاً للغرب، وصديقاً لإسرائيل، ومتسوّلاً يمدّ يدَه طلباً للعون، وظهيراً ضدّ قضايا التحرّر والشرف في الشرق الأوسط؟.

ما الذي يجب أن يعيه الشباب من أستاذهم (فكري أباظة) في هذا المجال، ولحساب مَن يُقال هذا الكلام؟..

وسئل (فكري أباظة): لما لم يتزوّج؟.

فشرع يعرِضُ على آذان الشباب رموزاً للنساء التي عرفها، وكان لها أثرٌ في حياته!.

هذا الصحفي الماجن شاخَ في العبث.

وإذا كان الله لم يصن عِرضَه بالزواج، فلماذا يذكرُ عهرَه للشباب؟.

وما الذي يجب على الشباب أن يتعلّمه من هذا المسلك الشائن؟.

والتقيتُ بمدير الإذاعة في مكتبِ أحد الوزراء، وقلتُ له: كيف تسمحُ لهذا الكلام أن يستمعَ إليه الناس؟! ووعدَ الرجلُ خيراً...

ثم أُنصتُ للراديو بعد أيام فإذا هو يعيدُ الحديث المسجَّل..

وقال لي صديق: كأن هذا تحدٍّ!! فأجبته: لا. لا!.

إنَّ الرجل نسيني بعدَ ما خرج، فما خطرتُ له على بال!!.

كيف تظنُّ أنهم يأبهون لنصح عالِم مسلم؟.

إنَّ التوجيهات الحديثة توصي بازدراءِ نصائح علماء الدين وتجاهل أشخاصهم..

لقد ذكرتَ لي أنَّك منذُ أيام نصحتَ غلاماً في السينما أرسل ستَّ نكت متتابعة عن المرأة وزوجها وعشيقها المختبئ تحت السرير.

غلامٌ في الخامسة عشرة من عمره في مرحلة التعليم الإعدادي عنده هذه القُدرة؟! إنَّه خريج مدرسة (أخبار اليوم)، إنّك نصحته، ثم أدبر عنك!!.

ذاك لأنّك تلبس بدلةً إفرنجية، ولو أنّكَ تلبسُ العمامةَ لأمسك بخناقك، وأعانه الآخرون على إخراجك من المكان.. إنَّ سبعين سنةً من الاحتلال البريطاني لمصر يجب أن تخلّف كلَّ هذه الرواسب الكدرة..

دعنا من هذا الاستطراد، ولنعد إلى السيد (فكري أباظة)...

إنَّ حديثَ سُكْرِه وتسوّله الجنسي ليس موضع تعليقنا.

ولكنَّ الذي ألفتُ النظر إليه أنَّ هذا الرجل صحا بغتةً من مجونه، ليعقِّب على مقترحات (مجلس الأمة) أيامَ انعقاده، فإذا هو يغتاظ من مشروع قانون لتحريم الخمر، ويغتاظُ أكثر من مشروع قانون لفرض الزكاة.

عجباً.. أموكلٌ أنتَ يا رجل باعتراض كلّ عمل إسلامي؟ أهذه هي الوطنية؟!.

إنَّ الاستعمارَ لا تقرُّ عينه كما تقرّ للكلام الذي تقول:

الإسلام ـ يجبُ إبعادُه عن الدولة، الخمرُ حلال، الزواج نافلة، الزكاة لا تُفرض.. ومع ذلك فالسيد (فكري أباظة) مسلم مشهور!!.

لقد أثبتُّ في كتابي (الاستعمار أحقاد وأطماع) و(ظلام من الغرب) مقالاتٍ كثيرة ناطقة بنيّة السوءِ ضدَّ الإسلام ونبيّه وكتابه، فلن أطيل السردَ والاستشهاد هنا.

ولكنّي أحبُّ أن أومئ إيماءةً خفيفة إلى قضية الأسرة ورغبة الكُتَّاب المعاصرين في حلِّها على هواهم.

هناك نفرٌ يُعلنون ـ بصراحة ـ أنَّ تنصيرَ المجتمع في العلاقات الشخصية قد آن أوانه، ويجبُ منعُ تعدّد الزوجات، وتقييد الطلاق، وإلغاء الأحكام الإسلامية في هذا الشأن.

ومع إلحاح هذا النفر وانتهازه كلَّ فرصة للطعن في تعاليم الإسلام، والتحريض على نبذها، فإنَّ الجبهة الإسلامية لا تزال تردُّ الضربات بقوة وصبر.

لكن المدافعين عن الإسلام فوجئوا بهجوم آخر.

فإنَّ الأستاذ (محمد زكي عبد القادر) ـ وكان الظنُّ به حسناً ـ طلعَ علينا بمقالٍ يغضُّ فيه من نظام الأسرة، بل ينقضُه من دعائمه.

ويذكر أنَّ هناك آراء بأن يعيشَ الناس، هكذا.. وهي آراء لها وزنها.

ولا ندري هل نضحَ على الرجل جوُّ الكفر الذي تضطربُ فيه صحافتنا، أم هي زلّة يوشِكُ أن يتوب منها؟ نرجو.

وهاك كلمة الأستاذ ـ المتزن ـ ضد نظام الأسرة.. قال:

«إنَّ الأسرة في مصر تتدهور كما هو حالها في كثير من البلاد، وإذا استمرَّ هذا التدهور بمعدّله الحالي، فليس يعرف أحد ما سيكون مصير الزواج، ولا مصير الجنس البَشري كله.

ولا يزعمُ أحدٌ أنَّ الزواج لا يمكن أن يُلغى، لأنَّه سُنَّةٌ من سُنَن الوجود، أو حاجةٌ ضروريةٌ من حاجات الإنسانية.

فإنَّ التطوّر الخطيرَ الذي يجتازُه العالم. ويكادُ يزعزِعُ الكثيرَ من القيم التي نبتت آلاف السنين. لا يبعدُ أن يتناول الزواج أيضاً.

إنَّ الدينَ نفسَه ـ وهو سندٌ أساسي لنظام الزواج ـ يتعرَّض لحملات شديدة. وتأثيره الروحي في النفوس يتضاءَل شيئاً فشيئاً.

وفي كلِّ مئة حالةِ زواجٍ في مصر يقع الطلاق في ثلاثين حالة، ولا يكاد يعتقد أحد أنَّ السبعين الباقية هي حالات سعيدة.. فأغلبُ الظنّ أنّها سيئة أيضاً، وإن لم تبلغ حدَّ الانفصال.

ويرى البعض أنَّ أسوأ ما في الزواج أنَّه استمرارٌ على حالة واحدة متكرّرة داعية إلى السأم والضيق، في عصرٍ يبدو كلُّ شيء أمام الإنسان فيه، وكأنَّه يتطوّر ويتغيّر من يوم إلى يوم.

والزواجُ يستند إلى مفهوم ديني أكثر مما يستند إلى ضرورة طبيعية، وقد وُجد من الفلاسفة والمفكّرين مَن اعتبروا الزواجَ حالة منحطَّة من حالات الإنسان.

وقال آخرون: إنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يعيشَ من غيرِ زواج، ولكنّه لا يستطيع

أن يعيش من غير طعام، ودليلهم على ذلك أنَّ هناك ألوفاً مؤلّفة من النساء والرجال لا يتزوّجون.

ومن الوسائل التي يلجأ إليها بعضُ المتزوجين في (أوروبة) و(أمريكة) حتى يقطعوا رتابة الزواج ومله. أن يعطي الزوجان أحدُهما الآخر إجازة تطولُ وتقصر حسب الظروف، حتى يتجدَّد الحنين إلى البيتِ والأولاد.

وكان مما يحفظ الزواج فيما مضى من الانهيار، أنَّ سُلطة الزوج كانت كاملة، وأنَّ الزوجةَ تعتمد عليه اعتماداً تاماً..

أما اليوم ـ وقد استقلّت الزوجةُ اقتصادياً في كثير من الحالات، وأخذت تطالب بحقوق متساوية مع الرجال ـ فإنَّ الأمرَ أصبحَ أكثر تعقيداً».

إنَّ هذا الكلامَ يحمل في طيّاته متفجّرات تنسف نظام الأسرة وتأتي عليه من القواعد.

ونظامُ الأسرة ليس فكرةً إسلامية فقط، بل رباطٌ إنسانيٌّ عام، اتفقت الديانات كلُّها على توثيقه وحياطته.

وليت شِعري ما هو العوض الذي يقترحه الكاتب عن الزواج؟.

إنَّ اتصال الحياة على ظهر الأرض لا بدَّ له من إحدى وسيلتين:

إمَّا الوسيلة المشروعة المعروفة التي تُضبَط بها العلاقات الجنسية، وتُكفل بها حضانة الأولاد، وتُقرر بها الأنساب والمواريث وهي الزواج.

وإمّا.. الدعارة، وتنقّل الرجل بين مَن يشاء من النساء، وتنقّل المرأة بين مَن شاءت من الرجال.

أو اشتراك عِدّة رجال في امرأة، كالحكاية التي روتها (أخبار اليوم) ودقّت بين يديها الطبول.

أو ارتباط رجلٍ بامرأة ارتباطاً اسمياً، على أن يأخذ أيٌّ منهما إجازة من الآخر ليستريح منه، أو يستريح مع غيره، كما يروي هنا الأستاذ (محمد زكي عبد القادر)..

أهذا كلامٌ يُكتَب؟ أفكَّرَ كاتبه في أنَّه سوف يلقى الله يوماً فيسأله عنه؟!.

أقدَّرَ أنَّ هناك ديناً اسمه الإسلام ينتمي إليه ـ ولو بالوراثة ـ وينتمي إليه أغلب قُراء صحيفته؟!.

أيُّ خبطٍ هذا الذي يقع فيه أولئك الكُتَّاب دون اكتراثٍ لدين أو فضيلة!.

وخير ما نردُّ على ذلك الكلام أن يقارِنَ القارئ بينه وبين ما نشرته مجلة (الإذاعة) تحت عنوان: الدنيا بين يديك. وهذا نصّه:

«من الظواهر العجيبة في الولايات المتحدة الأمريكية أنَّ السلطات قبضت خلال العام الماضي على أكثر من نصف مليون شاب وشابة بسبب خروجهم على القانون.

وأنَّ هذا العدد الضخم ضمَّ شباناً ينتسبون إلى جميع الجاليات الأجنبية، التي استقرَّت منذ زمن بعيد في أمريكة إلا جالية واحدة لم يُقبَض على فردٍ واحدٍ منها وهي الجالية الصينية.

وقد صرَّح أحدُ العلماء الأمريكيين، بأنَّ هذه الظاهرة ترجع إلى أسباب كثيرة على رأسها أنَّ الجالية الصينية لا تزال تحافظ على التقاليد الشرقية القديمة التي تُقدِّس الأسرة وتربط بين أفرادها برباطٍ متين.

كما أنَّ المادية التي سيطرت على حياة الأمريكيين، لم تستطع أن تنالَ من تدين أفراد الجالية الصينية، أو من الاهتمام المتصل بقراءة كل ما تقع عليه أعينهم من الإنتاج الأدبي الرفيع».

وختم العالم الأمريكي تصريحه قائلاً:

«إنَّ نجاة شباب الجالية الصينية من الانحراف الذي أصابَ الشباب الأمريكي دليلٌ على أنَّ روحانية الشرق لها من الجذور القوية المتأصلة في نفوس المؤمنين بها ما يمكّنهم على الدوام من أن يثبتوا أمام عواصف الانحلال التي تجتاحُ الملايين من حولهم».

* * *

ومِنْ بين رجال الصحافة أفَّاك يُعَدُّ من أنشط جنود إبليس هو الخواجة (سلامة موسى) الذي ذهب إلى الله من أيام[1] ـ تُرى هل يؤمن بعد أن لقيه؟! .

لطالما جحد وجودَه في الدنيا، وجبه المؤمنين وهم يعملون له ويوقِّرون وصاياه! .

هذا الصحافي كان يمزجُ سلوكه بين سياستين لا تناقض بينهما في نظري، لأنّهما ينبعان من طبيعة واحدة، ويسيران في مجرًى واحد. .

أولاهما: أن يظهر بين الناس ـ أعني المسلمين خاصة ـ بأنَّه رجلٌ علماني بحت، فهو ينقل أفكار (ماركس) و(دارون) و(فرويد)، ويصدر في جميع ما ينشره بيننا عن فلسفة مادية مجردة لا تعرف إلا النشوء والارتقاء، ولا تصدِّق إلا بما يقع في نطاق هذا الكون المعروف، ولا تفسِّر تاريخ الماضي والحاضر والمستقبل إلا بمنطق المعدة والسعادة العاجلة، واللَّذة للجميع، وإقرار السلام كما يقولون.

أما أُخراهما: فهو يقبع بين المواطنين الأقباط يستثيرُ نفوسَهم، ويستفزّ ساكنهم، ويحرّضهم على فعل المنكر.

ولو أحصينا ما كتبه في جريدة (مصر) الطائفية المعروفة ضد الإسلام وضد المسلمين المصريين لخرجنا بسجلٍّ من أقذر ما عُرف في الصحافة المصرية منذ أنشئت!! .

والواقع أنَّ الرجل كان مسلَّطاً على هدم الإسلام بكلتا الطريقتين.

إشاعة الإلحاد بين أتباعه، وإهاجة الأقباط عليهم إن هم تمسَّكوا بدينهم!! .

والمضحك أنَّ من النعوت التي شُيِّعَ بها الرجل بعد موته أنّه (أستاذ الجيل)! .

وتبارت صحفنا في الكلام عن إيمان الرجل وعظمته.

حتى خُيِّل للعيان التي تطالع الصحف أنَّ كوكباً هوى لا أنَّ فتنةً انطفأت.

---

(١) ولكنه ترك من ورائه طابوراً ممن يتابعون عمله في تخريب عقول الأمة.

وأصدق ما وُصِفَ به (سلامة موسى) هذه الكلمة التي جرت على لسان الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد):

«إنَّ الأدباء لا يحاسبونه لأنهم يزعمونه من العلماء، والعلماء لا يحاسبونه لأنهم يظنونه من الأدباء، وهو في الواقع لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».

نعم.. هو ليس من العلماء ولا من الأدباء، إنَّه رجلٌ كرَّس حياته لمحاربة الدين ـ أعني الإسلام وحده ـ لحساب الاستعمار والأديان الأخرى.

وانظر ما كتبه عنه السيد (فتحي غانم) في مجلة (روز اليوسف) في معرض الحديث عن كتابه (مقدمة السوبرمان):

.. يتكلم عن إيمانه بالتطور فتظن أنّه شيوعي!.

ثم يدافع عن السرقة والخطيئة وفلسفة القوة فتظنّه فاشيستياً.

ومع ذلك فما قيمة هذا التناقض!.

المهم أنه ينقل إلينا العلم!!.

وفي حماسةٍ للعلم يندفع (سلامة موسى) بحرارة الشباب كلها، ويقول مع الفيلسوف الألماني نيتشه: «إنَّ الله قد مات».. ثم ماذا ياسيد فتحي غانم؟!.

يقول: كان التعبُ قد نال من (سلامة موسى).. لقد قطع رحلة طويلة من التفكير والدراسة والدعوة إلى العلم! إنَّه يريد أن يستريح.

ولجأ (سلامة موسى) إلى الدين يقول: عدت إليها ـ إلى الكنيسة ـ في حنان، فليس من شك في أنَّ المتديّن يحسّ سلاماً، ويجد ابتهاجاً يُحرم منهما غيرُ المتدين.

عجباً.. ومتى تركتها يا رجل حتى يُقال: إنك رجعتَ إليها؟!.

إنّ عاطفتك المشبوبة وغضبك الهائل وأنت تهاجم الإسلام في جريدة (مصر) الطائفية لا نظيرَ لهما فيما كتبتَ من قبلُ ومن بعدُ!!.

نحن نعلم أنَّ الموت بداية الحياة الحقّة وختام فترة الاختبار على ظهر هذه الأرض، وإنّما نهزّ رأسنا عجباً لمهازل كثيرة من الصحفيين في هذه البلاد.

* * *

ولو أنَّ الصحافة تشعرُ بأدنى تهيُّب للإسلام وإجلالٍ لرسالته لخففت من تعرّضها له، ونيلها منه.

لكنّ المؤسف أنَّ أغلبَ رجال الصحافة عليلُ اليقين، زائغُ القلب، يسيلُ ريقُه لمن يبذل المال، أو يَجِلُ فؤادُه لمن يملك السوط.

فهو عبد رَغَبٍ يُذلُّه، أو رَهَب يُضلُّه.

وكأنَّما تواطأ حملةُ الأقلام على الفتك بأصول الاعتقاد، وفكّ عُرا الإسلام، وتجاهل حُرمة النصوص، وتهديم كل ما شاد الأوائل طوال أربعة عشر قرناً.

ولا ريبَ أنَّ هناك أقلاماً مؤمنة تستطيع أن تخرِسَ ألسنة الإلحاد، وأن تنزلَ معها في صراع حر لا ترى بعده إلا أن تفرّ وتخزى. . لكنّ الحربَ غيرُ متكافئة.

فالكتاب المؤمن تتضافَر دون انتشاره قوًى كثيرة.

والصحيفةُ المؤمنةُ لا تملكُ من وسائل الإجادة والذيوع شيئاً.

ومن ثَمَّ فهي تناوِشُ عناصرَ الشرّ بجهدِ المُقلّ.

وجهد المُقلّ في ذلك المجال لا يُغني فتيلاً.

وصور قليلة من كفاح هذه الصحف تشعرك بأنَّ المعركةَ على الإسلام نفسه، وعلى كل ما ينطوي عليه هذا الإسلام من فضائل وتعاليم.

* * *

منذ عام دأبت إحدى الصحف الدخيلة الكبرى، على نشر قصص مبتذلة تقوم على الترويج للخيانة الزوجية. . والدفاع عنها، وكأنَّها تهدفُ من وراء ذلك إلى إفسادِ المجتمع المصري، وبذر بذور التحلل والإباحية بين الأُسر!.

ولسنا ندري لحسابِ مَن تعمل هذه الصحيفة الكبرى، ولكنّ الذي ندريه هو أنَّ كُتَّاب هذه القصص جميعهم من اليهود والأجانب، وبقي أن يفهم القرّاء المغزى الحقيقي من نشرها.

هذه قصة خصصت لها الجريدة نهرين كبيرين في صفحتها الحادية عشرة،

تتلخَّصُ في أنَّ زوجة ضاقت ذرعاً بغَيرة زوجها عليها، فأرادت أن تنتقم منه، فقالت لأول رجل صادفها في الطريق ـ بعد مغازلة سريعة: «خذني إلى أي مكان تريد. . ألا تفهم»؟.

وتروي الجريدة باقي القصة فتقول: «. . . ولم يجد (فلانٌ) صعوبةً في الذهاب بها إلى بيته.

وفي الساعة السابعة مساءً خرجت السيدة وقد تناثر شعرُها، واحمرَّ وجهُها، واضطربت زينتها، ولكنّها تشعرُ بهدوءٍ في النفس، وراحةٍ في البال، لقد انتقمت من زوجها»!.

وهذه قصة أخرى نشرتها الجريدة المحترمة في ٢٦ أكتوبر الجاري، وتتلخَّص في أنَّ الزوج دعا صديقاً له لقضاء عطلة الأسبوع في بيته الريفي، وفي أثناء نزهتهما ـ مع الزوجة ـ في قارب سقط الصديق في الماء، وابتلّت ملابسه، وعاد الجميعُ إلى المنزل، حيث قدَّم له الزوج (الروب دي شمبر) الخاص به، وأقبلت الزوجة تحمل الحساء الدافئ إلى صديق زوجها. . فإذا هي ـ قد وقع نظرُها عليه في لباسه ـ تقفُ جامدةً في مكانها!.

وتروي الجريدة باقي القصة فتقول بالحرف الواحد: «لم تكن (الزوجة) قبل ذلك ألقت بالاً إلى ذلك الصديق، ولكنها لاحظت فجأة وجهه الوسيم، وشفتيه الحمراوين، ومظهره الذي يُذكِّر الناظر بنجوم السينما، فقدَّمت إليه الحسناءُ الحساءَ الدافئ وهي تقول له في رفقٍ وعذوبة: اشرب يا صديقي!.

وتلامست أصابعُها لحظةً، ومرَّت بجسد الزوجة رعدة، وتعلَّقت عيناها بعين الصديق، وراعَها سحرُهما وعمقُهما، فقالت له بعينيها كلاماً ما كان يرضى مسيو ريكيه (الزوج) أن يسمعه»!.

ولا داعي لذكر النتيجة التي انتهت هذه القصة القذرة إليها.

ففي استطاعة القارئ الكريم أن يستنبطها.

إننا نحذِّر هذه الجريدة الدخيلة، فنحنُ لها بالمرصاد.

ونُلفت النظرَ إلى هذه السموم التي تعمل على بثّها في وقتٍ تَجِدُّ فيه الأمّةُ

للدفاع عن ذمارِها وتجنيدِ شبابها، بل في الوقت الذي تنشر فيه الجريدة المذكورة صورَ الاحتفال بالشهداء الذين سقطوا في معركة (الصيحة) صرعى برصاص اليهود.

* * *

وهذه صورة من مجلة (المسلم):

«نشرت جريدة الأهرام أنَّ الاتحاد النسائي يجتمع للبحث في المطالبة بتوريث البنت ميراث الابن... إلخ.

ولم يكن ذلك مستبعداً عند مَنْ يعرِفُ طريق التهوُّر والاندفاع الذي تسلكه التجمّعات النسائية في مصر، بإغراء وتأييد من طوائف المنحلِّين واللادينيين ـ وكثيرٌ ما هم.

وقد أصبح بأيديهم من الجاه والإمكانيات والوسائل والأموال (الأنجلو أمريكية) وغيرها، ما يحملهم كُرهاً على التبجّح والالتواء على القدس الأعلى.

وقد كنا ننتظرُ ذلك بعد أن فتحنا الباب على مصاريعه لناقصات العقل والدين من الكاسيات العاريات، التالفات المُتلفات، حتى لم يبقَ ظلٌّ لفضيلة، ولا أثرٌ لإنسانية، لم يرخّصها الرجسُ أو يعابثها النجس.

فأصبح التعرّي تأدباً، والمخادعة تسامياً، والمعابثة مجاملةً، والتعفّف رذيلةً، والتصوُّنُ خرافةً، ومجرَّد الإشارة إلى الدين جريمة اجتماعية، تقعدُ من أجلها الدنيا وتقوم.

لقد تأوَّل المنحلّون ما تشابه من الكتاب والسنّة، فلم يبقَ إلا العدوان الإجرامي على المحكم الصريح الذي لا يقبل تأويلاً ولا تحويلاً، في التوريث الذي يؤكد أن: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ولقد وجد النسوان من أشباه أهل العلم مَن أعانهنّ على بعض الإثم.

وإنّي لا أستبعدُ أبداً أن يتبرَّعَ متوقّحٌ رقيعٌ من أشباه أهل العلم، بالوقوف إلى جانب هذه الجريمة المستحدثة، طلباً للشهرة أو المال».

* * *

ذلك، وكتب الدكتور (محمد البهي) يكشف عن جانب آخر من رسالة الصحافة الصفراء:

«عمل الإنكليز إذن ـ وهم أصحاب التوجيه للسياسة التعليمية في (مصر) عن طريق القسّ المبشّر (دانلوب) ـ على تقوية التعليم المدني اللاديني، وعلى أن يكون ذا سيادة على تعليم الأزهر.

ثم استعانوا بعد ذلك بالصحافة الدخيلة في (مصر) على أن تقاوم ما سمَّوه بالرجعية والتعصُّب.

والذي سُمّيَ بالرجعية والتعصّب إذ ذاك هو الأزهر.

والذي سمّاه هم الإنكليز أنفسهم.

وتبنَّت مجلة (الهلال)[1] الدعوة ضد الرجعية والتعصب نيابة عن الاستعمار الإنكليزي.

ومن يقرأ في بعض أعدادها يدرك جيداً هذه الغاية.

فمثلاً نقرأ في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤م ما يلي:

«الحضارات الشرقية تُقدِّس الشريعة على أنّها إرادة واحدٍ قهَّار، لا على أنّها عدل، ولا على أنّها لا تتغيَّر إلا بمشيئة السيد، وما مشيئته إلا حاجةٌ في نفسه إن كان أرضياً، أو أحجية لا تُفسَّر إن كان سماوياً».

كما نقرأ في عدد يونية سنة ١٩٣١م، تحت عنوان (العلم والإيمان وديانات الإنسانية) ما يلي:

«إنّ هذه الديانة الجديدة قد انتشرت في أمريكة، وإنَّ أصحابها يقولون: إنَّ مسألة وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية، لأنَّـه إذا عمل الإنسان ما هو صالحٌ في هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوبٌ منه، سواءٌ أكانت له روحٌ خالدةٌ أم لم تكن..

---

(١) مجلة أسسها جرجي زيدان، ولو سمّاها الصليب لصدق، لكنّه آثر اسم (الهلال) تدليساً على الأمة المسلمة. (ن)

وإنَّ أصحاب هذه الديانة يقولون أيضاً: لو كان جميع الناس يعتقدون كما اعتقدنا أنَّ هذا العالم هو الفردوس الوحيد الذي ليس بعده فردوس آخر، لوجَّهوا كلَّ قواهم إلى تحسينه، ليصبحَ فردوساً حقيقياً بكلِّ معنى الكلمة.

أما وهم يؤمنون بوجود فردوس آخر أفضل، وأنَّ الإنسان نزيلٌ فانٍ على هذه الأرض، فهم يحرّضون كلَّ واحد على احتقار الحياة، وعلى تصويرها بأشنعِ صورها حتى تصبحَ جحيماً لا يُطاق».

وهذا الذي تدعو إليه (مجلة الهلال) هو ما يُعرف بواقعية (أوجست كومت) الفيلسوف الفرنسي في القرن التاسع عشر.

و(أوجست كومت) وضع فلسفته الواقعية لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية في تصويرها للحياة الدنيا والآخرة.

وأصبحت هذه الواقعية بهذا الأسلوب تُقال هناك في مقابل المسيحية الكاثوليكية، ولكنّها ـ بعد أن انتقلت إلى الشرق ـ أصبحت تُقال في مقابل الدين السائد فيه، وهو (الإسلام).

وأصبحت الواقعية تساوي: لا إسلام، والإسلام يساوي لا واقعية.

* * *

وصاحب كتاب (على هامش السيرة) يقول في مقدمة هذا الكتاب[1]:

«وأنا أعلمُ أنَّ قوماً سيضيقون بهذا الكتاب، لأنَّهم محدَثون، يُكبِرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه.

وهم لذلك يضيقون بكثيرٍ من الأخبار والأحاديث التي لا يُسيغها العقلُ ولا يرضاها.

وهم يشكّون ويلحّون في الشكوى حين يرونَ كلف الشعب بهذه الأخبار، وجدّه في طلبها، وحِرْصُه على قراءتها والاستماع لها.

وهم يجاهدون في صرفِ الشعبِ عن هذه الأخبار والأحاديث واستنقاذِه

---

(١) هو الدكتور طه حسين.

من سلطانها الخطِر المفسِد للعقول.

وهؤلاء سيضيقونَ بهذا الكتاب بعضَ الشيء، لأنّهم سيقرؤون فيه طائفةً من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس.

وأحبُّ أن يعلم هؤلاء: **أنَّ العقلَ ليسَ كل شي، وأنَّ للناس مَلكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأنَّ هذه الأخبار والأحاديث إذا هي لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقمْ لها أساليب التفكير العلمي، فإنَّ في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهة الحياة وعنائها ـ ما يُحبِّبُ إليهم هذه الأخبار، ويُرغِّبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس، حين تشق عليهم الحياة.**

وفرقٌ عظيم بين مَن يتحدَّث بهذه الأخبار إلى العقل ـ على أنّها حقائق يقرّها العلم، وتستقيم لها مناهج البحث ـ ومَن يقدِّمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش»[1].

وإذن أخبارُ السيرة النبوية وأحاديثُها ـ في نظره ـ لا تستقيم لها مناهج، وليست حقائق يُقرّها العلم، أي لا تتصل بالواقعية.

هي مثيرةٌ فحسب لعواطف الخير، صارفةٌ عن بواعث الشر، مُعينةٌ على إنفاق الوقت، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.

والدينُ ـ وهو مصدر إثارة العواطف الخيِّرة، والإبعاد عن بواعث الشر ـ ليس حقائق يقرّها العلم، وتستقيم لها مناهج البحث، أي ليس واقعياً!!.

وكتاب (على هامش السيرة) ـ كما يُصوِّر أخبار وأحاديث صاحب الدعوة الإسلامية ﷺ ـ يُصوِّر مبادئ الإسلام نفسه.

هناك إذن اتجاه العقلاء واتجاه الواقعيين في البحث.

---

(١) انظر كتاب (طه حسين في ميزان الإسلام) للأستاذ أنور الجندي رحمه الله لتقف على حقيقة الدور الذي قام به، ط دار الاعتصام بالقاهرة. (ن)

وكِلاهما لا يعترف بالدين، كمصدر للمعرفة والعلم.

* * *

والمسلاة التي يلجأ إليها الصحافيون في الأيام الأخيرة والتي تُشبِهُ أعراض المرض المزمن هي (تعدُّد الزوجات وإباحة الطلاق).

ويظهر أنَّ (السادة) الذين يحركونهم من وراء ستار يرون أنَّ قوانين الأحوال الشخصية في مصر هي آخر ما بقي من التراث التشريعي للإسلام.

ولذلك يجتهدون في الإتيان عليه حتى ينفضوا أيديهم في ارتياحٍ من آخر حياة قانونية للإسلام.

وإنارة للأذهان اضطررتُ للكتابة في هذا الموضوع مرّة أخرى بمجلة (منبر الإسلام) دحضاً للشبهات التي يفتأ يثيرها أولئك الكاتبون.

* * *

حول إصلاح قوانين الأحوال الشخصيّة

عادت إلى الظهور مرة أخرى مقترحاتٌ ترمي إلى ما يأتي:

١ ـ «تقييد تعدّد الزوجات».

٢ ـ «تقييد الطلاق».

٣ ـ «إلغاء بيت الطاعة».

ونحن نناقش ـ في هدوء ـ هذه المقترحات، لنزنَ مدى الأضرار والمنافع التي تترتب عليها، ولنرى هل يتفق مع المصلحة أو مع الدين تحقيقها؟.

ولا بدَّ ـ قبل تناول الموضوع نفسه ـ من إلقاء نظرةٍ عَجْلى على قانون العقوبات الذي تُحكم به البلاد.

والبابُ الرابع من هذا القانون يتعلّق بجرائم هتكِ العرض وإفسادِ الأخلاق.

والمتأمّل في مواده ابتداءً من (٢٦٧) إلى (٢٧٩) يخرجُ بنتيجةٍ واحدة هي:

«أنَّ الزنى لا يُعَدُّ جريمةً ما دام الطرفانِ قد أدّيا العمليةَ الجنسيةَ برضًى متبادلٍ وحريةٍ تامةٍ».

«وأنَّ العقابَ بالأشغالِ الشاقةِ أو الحبسِ إنَّما يوقع على الشخص في أحوال الإكراه، أو عند وجودِ ظرفٍ يخدشُ تمامَ الرضا وكمال الحرية».

والمادة (٨٢٦) تنصُّ فقرتها الأولى على ذلك.

«مَن واقَعَ أنثى بغيرِ رضائها يُعاقَبُ بالأشغالِ الشاقةِ المؤبّدة أو المؤقتة».

وكذلك الفقرة الأولى من المادة (٢٦٨) فهي تنصُّ على أنَّ:

«كُلَّ مَن هتكَ عِرضَ إنسانٍ بالقوة أو بالتهديدِ أو شرعَ في ذلك يُعاقَبُ بالأشغال الشاقة من ثلاثٍ إلى سبعٍ...».

فالجريمةُ ليست في العمل، ولكن في القسرِ عليه واغتصابِه دون الرضى الكامل من الطرف الآخر، فإذا وُجِدَ الرضا فلا جريمةَ هنالك ولا عقاب. . .

ولما كان ركنُ الرضى مع توفُّر الإرادة والتمييز لا يوجدُ في الأشخاص الذين لم يبلغوا سِنَّ الرشد، فإنَّ القانون يعاقِبُ على الزنى بأولئك الصغار، لأنَّ رضاهم قد يكون قائماً على الخداع والتغرير، ولذلك جاء في المادة (٢٦٩): «كلُّ من هتكَ عِرْضَ صبيٍّ أو صبيّةٍ لم يبلغْ سِنُّ كلٍّ منهما ثماني عشرة سنةً كاملةً بغيرِ قوة أو تهديد يُعاقَب بالحبس. . . »إلخ.

فإذا انتفت معاني الخداع والضغط، وتبيَّن أنَّ كلاً من الرجل والمرأة كامل الأهلية، فإن القانون لا يرى وقوع الزنى منهما جُرماً يرصد له عقاباً.

وجاء في المادة (٢٧٣) أنَّ الزوجةَ إذا زنت، ولم يحسّ الزوجُ غضاضةً من عمل زوجته أو آثر السكوتَ على فعلتِها، فإنَّ القانون ليسَ له قِبَلَها أي حق.

وإليك نصّ المادة المذكورة:

«لا يجوز محاكمة الزانية إلا بناءً على دعوى زوجها. . . إلا أنه إذا زنى الزوجُ في المسكن المقيم فيه مع زوجته كالمبيَّن في المادة (٢٧٧) لا تُسمعُ دعواه عليها».

وتنصُّ المادة (٢٧٤) على أنَّ المرأة المتزوّجة التي ثبتَ زناها يُحكَم عليها بالحبس مدةً لا تزيدُ على ثلاث سنين.

ولكنْ لزوجِها أن يوقِفَ تنفيذَ هذا الحكم برضائه معاشرته لها كما كانت.

وأخيراً جاء في المادة (٨) من القانون رقم (٦٨) لسنة ١٩٥١م لمكافحة الدعارة:

«يُعتبَرُ مَحَلاً للدعارةِ أو الفجورِ كلُّ مكانٍ يُستعمَلُ عادةً لممارسةِ دعارة الغير أو فجوره. . . ».

أما الذي يُستعمَل لممارسة الدعارة الشخصية، أو فجور الإنسان نفسُه بمن يشاء. . فذلك ليس محلاً للدعارة.

ومن جملةِ هذه المواد يُعرف أنَّ الاتصال الجنسي مباح أصلاً بحكم القانون، وأنَّ العقوبةَ تعرضُ له إذا كان عن إكراهٍ أو مخادعةٍ أو ما أشبه.

وفي ظلٍّ هذا الوضع يُرادُ تحريم العقد الشرعي على زوجة ثانية، أي يُرادُ الاتصال بها دون عقدٍ وفي رضى من قانون العقوبات القائم.

ذلك القانون الذي لم تغضبْ من بقائه إلى اليوم جمعيةٌ نسائيةٌ، ولم نسمع لها صوتاً ينادي بإلغائه.

على حين نسمع صيحات رتيبة متكررة مصرّة على تعديل قانون (الأحوال الشخصية) وجعل الزواج بامرأةٍ أخرى جريمةً يُعاقِبُ القانون لاقترافها.

أي أنَّ المُرادَ تحريمُ الحلال، وتحليل الحرام.

وقد تتساءل: هل تعدُّد الزوجات عِلَّة فاشية في المجتمع المصري سبَّبتْ له أضراراً ونكباتٍ شتَّى مما يوجِبُ تدخّلَ القانون لوقاية الأمة وحمايتها؟.

والجواب يؤخذ من الإحصاءات التي تنطقُ بأنَّ المصريين لا يُعددون إلا في نسبة لا تتجاوز (٣٪) أو (٤٪).

فهل هذه النسبة الضئيلة التي لا تكاد تُحَسّ هي مبعث الصراخ المتكرّر من خطورة التعدد، ووجوب سَنّ تشريعٍ يمنعه..؟.

إنَّ هذا الصياح مفتعَل، ويزيدنا اتّهاماً لبواعثه أنَّ في مصر أزمةُ زواجٍ لا أزمةُ تعدّد.

وأنَّ آلافَ البيوت مغلقة الآن على فتيات ينتظرن الأزواج بصبرٍ وأمل، بل بنفادِ صبرٍ وضعفِ أمل(١).

والواقع أنّ الأحوال الاقتصادية السائدة، وارتفاع المستوى المنشود للمعيشة، جعل الزواج بامرأة واحدة أمراً صعباً.

وجمهور الموظفين من حملة الشهادات العليا حين يُوضَعون في الدرجة

---

(١) ومن أجل هؤلاء أولاً شرع الإسلام التعدد، لإحصانهنّ وإخراجهنَّ من سجن العنوسة (ن).

السادسة يشعرون بصعوبة الحياة، ويتوجّسون من عواقب الزواج بواحدة فحسب.

فأين مجالُ التفكير في الجمع بين اثنتين؟ .

فإن تكُ هذه حالُ الطبقة الوسطى، فكيف بغيرها؟ .

قد يُقال: إنَّ هناك من أبناء الطبقات الدنيا مَن يعدّدون دون وعي!! .

ونحن نرحّب بمنع العاجز من الزواج بواحدة حتى يستطيعَ أن يقومَ بواجبه كرجل في الإنفاق عليها وتربية أولاده منها، وذلك تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

بَيْدَ أنَّ منعَ الفقيرِ من التزوّج بواحدةٍ لا يجوزُ أن يصدر به قانونٌ شرعيٌّ إذا كان هناك قانونٌ آخر يبيحُ له أن يجمع في بيته واحدة واثنتين دونَ عقدٍ، لأنَّ الزنى مع التراضي يقرّه القانون، أوَ لا يتدخّل لمنعه! .

إنَّ الكلامَ عن منعِ التعدّد يشبه أن يكون كلاماً عن مجتمع في المريخ.

أما المجتمع المصري القائم فهو لا يعرف شيئاً عن هذا اللغط الذي يهرِفُ به البعض تقليداً لأوروبة التي غرقت في الإثم، **وأباحت التعدّدَ الحرام، ومنعت التعدّد الحلال!!** .

ومن المتناقضات التي تدعو إلى العجب، الدعوة إلى إلغاء (بيت الطاعة) في الوقت الذي يُدعى فيه إلى تقييد الطلاق! .

إنَّ (بيت الطاعة) هو بيت الزوجية. ومعنى إبعاد الطلاق عنه أن تتضاعف المحافظة عليه، وأن تزيد أسباب صيانته وبقائه، لا أن يُطالَب بإلغائه!! .

لكن يبدو أنَّ تصوّر الحقائق غير متماسك في أذهان هؤلاء المنادين بإصلاح الأسرة. . .

فالرجل ـ في نظرهم ـ لا يملك أن يحلَّ عُقدة النكاح، ويجبُ أن يُمنَعَ من ذلك قانوناً.

وفي الوقت نفسه تملك المرأة أن تترك (بيت الطاعة) لأنَّ إبقاءَها فيه بالرغم منها إهانة ومذلّة!! .

فلينهدم إذن البيت، أو ليبقَ خاوياً تَصفُر فيه الريح.

إنَّ الإسلام أقام (بيت الطاعة) بدلاً من بيت المعصية، وجعل للرجل والمرأة فيه حقوقاً ظاهرة.

وإذا حدث شقاقٌ بين الزوجين استحالت معه العِشرة، فلكل من الطرفين أن يحمي نفسَه من الضرر اللاحق به. . **للمرأة حقُّ الخلع، وللرجل حقُّ الطلاق.**

والخلع بالنسبة إلى المرأة أن تعرضَ على زوجها ردَّ ما دفعه إليها نظيرَ إطلاق سراحها، وفسخ عقد الزواج، وأساسُه ما رُويَ عن النبي ﷺ: أنَّ امرأةَ رُفاعة جاءتْ إليه تشكو أنَّها لا تطيقُ المعيشةَ مع زوجِها، وقالت: لا أعتبُ عليه في خُلقٍ ولا دينٍ، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام. (أي أنها تبغض البقاءَ معه، وإن كان لا مطعنَ عليه في خُلُقه ولا دينه، وتخشى أن تؤدّي هذه الكراهية الجارفة بها إلى ما لا يليق)، فقال لها الرسول ﷺ: «**أتردّين عليه حديقتَه؟**» (وهي المهرُ الذي دفعه إليها).

قالت: أردُّها وأزيدُ، ففرَّقَ الرسولُ ﷺ بينهما.

والمرأة التي تريدُ الخُلع ويأباه عليها زوجها، ترفعُ شكواها إلى القضاء، وهو ـ بعد تقديره لظروفِ الزوجين ـ يحكم بما يراه أقرب إلى العدالة، وإلى مصلحة الطرفين.

فليس الإسلام بالدين الذي يقومُ على إذلال المرأة، ولا هو ـ كذلك ـ بالدين الذي يقومُ على إذلال الرجل، ولا ندري سرَّ الحملةِ على (بيت الطاعة) بعد ذلك إلاّ أن تكون حملات مبعثها الجهلُ بالفقه الإسلامي، والتقليدُ الأعمى للفكر الأجنبي.

والطلاقُ حقُّ الرجل، وإكراهُه على تركِ الحق لغيره، معناه إرغامه على هجر البيت مع بقاء عقد الزوجية قائماً.

ومعناه أيضاً أن ينطلقَ كِلا الزوجين في ظلِّ هذا العقد الصوري المفروض كرهاً ليفعل ما يحلو له. . . وهذا فسادٌ عريض.

إنَّ (أوروبة) لم تقف ألبتة عند القول بتقييد الطلاق، بل أباحته في نطاق واسع ولأتفه الأسباب.

ونحنُ لا نرحّبُ بشيوع الطلاق في الأسر «فهو أبغض الحلال إلى الله»، **ولكنّ المحافظةَ على كيان الأسرة تتمُّ برفع المستوى الديني والخُلقي، وبتفهُّم الجماهير أنَّ أكثر ما يشيع بينهم من ألفاظ الطلاق لغوٌ، لا يؤخذُ به ولا تنحلّ به عقدة النكاح . . . أما محاولةُ إقحامِ القانون في ربط المرأة برجل يكرهها، ويرفض العيش معها، فهو مصدر إفساد عريض . . .**

ويسرُّنا أن ننقلَ رأي الدين، في قضايا التعدّد والتقييد مصوّراً في شعرٍ حسنٍ للأستاذ محمد مصطفى حمام:

تَـزَوَّجُـوْا وانْظُمُـوا أَوْطَـانَـنَـا أُسَـرَا ... لا تَتْـرُكُـوْا وَطَـنَ الأَمْجَـادِ مُنْتَشِـرَا
لا تَجْعَلُوا البَيْتَ والتَّزويجَ مُشْكِلَةً ... وَيَسِّرُوا مِنْ أُمُوْرِ العَيْشِ مَا عَسِرَا
لا تَخْشَوا الفَقْرَ، كمْ مِنْ أُسْرَةٍ شَبِعَتْ ... عِـزّاً ومَـالاً، وفَـرْدٌ خَـابَ وافْتَقَـرَا
وَلا تَخَـافُـوْا شِقَـاقـاً فـي بُيُـوْتِكُمُـو ... بَلِ اضْمُرُوا الحُبَّ يَبْقَ الحُبُّ مُنْتَصِرَا
فَـإنْ تَعَـاظَمَكُـمْ خُلـفٌ وأعضَلَكُـمْ ... فَخَـالِفُـوا آمِـرَ التَّفْـرِيـقِ إنْ أَمَـرَا
واسْتَخْلِصُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِكُمْ وخُذُوْا ... مِنْ أهلِهَا حَكَماً واسْتَرْحِمُوا القَدَرَا
ولَسْتُ أَرْضَىٰ سِوَىٰ الأَهْلِيْنَ مَحْكَمَةً ... وَلْيَبْـقَ سِـرِّي وسِـرُّ البَيْـتِ مُـدَّخَـرا
فـإنْ قَضَـىٰ اللهُ تَفْـرِيْقـاً فَنَـازِلَـةٌ ... إنْ تَلْـقَ صَبْراً فَطُـوبىٰ لِلَّـذي صَبَـرَا
وربَّمَـا كـانَ فـي التَّفْـرِيـقِ مَنْفَعَـةٌ ... قَـدْ يَبْـرَأُ الجِسْـمُ مِـنْ عُضْـوٍ إذا بُتِـرا
حيـاتُنـا صِفَـاتٌ تِلْـكَ وَاحِـدَةٌ ... مِنْهَـا فَـذَا رَابِـحٌ فِيْهَـا وذَا خَسِـرَا

* * *

وَمَـنْ يُعَـدِّدْ زَوَاجـاً دُوْنَ مَلْجَـأةٍ ... فَقَـدْ أَتَـىٰ بِضِـرَارٍ أَوْ أَتَـىٰ ضَـرَرَا
ليـسَ التَّعَـدُّدُ إلاَّ رُخْصَـةٌ فَـإذَا ... أَسْرَفْتَ فِيْهَا رَكِبْتَ الحُمْقَ والخَطَرَا
مَـنْ يَنْتَقِـصْ حَـقَّ أولادٍ لِثَـانِيَـةٍ ... لَـمْ يَلْـقَ مِـنْ رَبِّـهِ عَفْـواً إذا اعْتَـذَرَا
وفـي التَّعَـدُّدِ إنْ أدْرَكْـتَ حِكْمَتَـهُ ... بِـرٌّ رَخِـيٌّ وجَبْـرٌ لِلَّـذي كُسِـرَا
مَـنْ للمُطَلَّقَـةِ الحَسْنَـاءِ يَعْصِمُهَـا! ... وللعَـوَانِـسِ يفْنَـىٰ عُمْرُهـا ضَجَـرا!!
ولـلأرَامِـلِ، والأحـزَانُ تَعْصِـرُهَـا ... والحُـزْنُ يَفْتِـكُ بـالأعْـوادِ إنْ عُصِـرَا
ومَـنْ لأمِّ اليَتَـامَـىٰ، هـل تَقُـوْتُهُمُـو ... بـالخَـدِّ مُعْتَصَـراً والقَـدِّ مُهْتَصَـرا!!
ومـا الغِطـاءُ لِمَـنْ زَلَّـتْ وسَـاوَرَهـا ... مِـنَ الفَضِيْحَـةِ طَيْـفٌ يُـرْسِـلُ النُّـذُرَا

ومــا السَّبِيْــلُ إلــى ذُرِّيَّــةٍ نُجُــبِ ‏ إنْ كُنْـتَ زوجَ عَقِيْـمٍ حَظُّهـا عَثَـرَا!

هــو التَّعَــدُّدُ يَهْـدِي الغَـارِقِيْـنَ إلـى ‏ بَــرِّ الأمَــانِ، ويَبْنِــي بَيْنَنَــا أُسَــرَا

هَــوَ التَّعَــدُّدُ كَــمْ آوى اليَتِيْــمَ وأَشْـ ‏ ـبَاهَ اليَتِيْـمِ وكَـمْ واسَـى وكَـمْ سَتَـرَا

هُوَ الحَلالُ الذي يَنْفِي الحرامَ وَكَمْ ‏ حَمَى مِنَ الفُحْشِ أُنْثَىٰ أَوْ حَمَى ذَكَرَا

عَـدِّدْ إنْ اسْتَطَعْـتَ لَكِـنْ عَـادِلاً لَبِقـاً ‏ لا تُعْطِيَـنَّ الهَـوَىٰ سَمْعـاً ولا بَصَـرَا

واحْكُمْ رَعَاكَ اللهُ بِالحُبِّ الصَّحِيْحِ تَجِدْ ‏ مَغْنَــاكَ لا غَيْــرَةً يَشْكُــو وَلا غِيَــرَا

واسْأَلْ ضَمِيْرَكَ فِي أَمْرِ التَّعَدُّدِ، لا ‏ تَلْجَــأْ لِقَــاضٍ ولا تَسْتَــأْذِنِ البَشَــرَا

إِذَا جَرُؤْتَ عَلَىٰ قَاضِي السَّمَاءِ فَلَنْ ‏ تَكُوْنَ يَوْماً بِقَاضِي الأَرْضِ مُزْدَجِرَا

* * *

ضجة مفتعلة بين كرها الدين والواقع

تتبعتُ بشيءٍ قليلٍ من الدهشة اللَّغطَ الطويلَ الذي احترفَ إثارتـه بعض الناس حول ما يسمَّى قوانين الأحوال الشخصية.

وأريدُ أن أنفي أولاً وجودَ هذه التسمية في ميدان الفقـه الإسـلامي، وأن أرفض الإيماء المقترن بها[1].

فشرائعُ الأسرةِ ليستْ أحوالاً شخصية تهمُّ أصحابَها وحدَهم، من حقّهم أن يُبقوها إذا شاؤوا أو يُغيِّروها إذا شاؤوا.

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحاً فنياً محضاً فهو ليس من صنع علماء الإسلام، ويبدو أنّه مترجَمٌ عن اللغة الفرنسية، ولا وجودَ لكلمة قوانين الأحوال الشخصية في كتبنا الفقهية كلها.

* * *

ونَدعُ هذا الاستطرادَ إلى موضوع حديثنا، وهو ما شرع الله في الزواج والطلاق والحضانة والميراث. فنقول في حسم: **إنَّ أي تفكيرٍ في تغيير هذه الشرائع مرفوضٌ جملةً وتفصيلاً، وإنَّ كلمة (تطوير قوانين الأحوال الشخصية) التي لهجَ البعضُ بترددها ليست غيرَ احتيالٍ منكورٍ للانسلاخ من أحكام الإسلام التي نطقت بها النصوص، وانعقد على تفسيرها الإجماع.**

فالزواج بالواحدة إلى الأربع مباحٌ يقيناً لمن يستطيعُ العدلَ.

والطلاقُ حقُّ الرجلِ لا يمكنُ لأحدٍ أن يسلبه إياه.

وللمرأةِ نصفُ نصيبِ الرجل في الميراث.

والرجل هو رب البيت، والقوّام عليه، والراعي الأكبر لأولاده.

---

(١) كان يسمَّى في العهد العثماني (قانون العائلة).

وما يطلبُه النساءُ اليوم من تغيير لهذه المبادئ الإسلامية ضربٌ من الغرور، يجبُ أن يُقمَع دون هوادة.

وسنرى عند التأمُّل في أحوال المجتمع المصري أن المزاعم حول انهيار الأسرة المصرية بسبب إباحة التعدّد والطلاق مكذوبةٌ من أساسها[1].

وإنَّ الأسرةَ المصريةَ أشرفُ سيرةً وأنقى جواً من الأسرة الأوروبية والأمريكية، وإنّه إذا كان هناك ما يُعَكِّرُ صفو الأسرة، **فهو سلوك المنحلّين الذين اطّرحوا تعاليم الدين ظهرياً، ويريدون إغراء غيرهم بالمروق منها والتمرّد عليها.**

أمّا الأمةُ فهي تودّ لو عاشت ظاهراً وباطناً في حدود دينها العظيم.

لقد سمعنا كلاماً كثيراً حولَ إساءةِ الناس لحقّ التعدّد، ولإباحةِ الطلاق، ولا نردّ على هذا الكلام بأكثر من ذكر الإحصاءات الرسمية التي تنطق بعكس ما يدَّعيه هؤلاء.. وإلى القُرّاءِ الكرام الجدول المثبت في صفحة ٣٠ من الكتاب الذي أصدرته مصلحة الإحصاء والتعداد (١٩٦٠ ـ ١٩٦١م).

جدول ١٧ ـ عقود الزواج وإشهادات الطلاق
ونسبتها لكل ألف من السكان

السنوات	عقود الزواج		إشهادات الطلاق	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
١٩٤٥	٢٧٥٦٨٦	١٤,٩	٧٩٩٩١	٤,٣
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	١٥,٣	٨٠٤١٥	٤,٣
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	١٣,٧	٧٥٤٠٤	٤,٠
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	١٤,٠	٧٦١٥٤	٣,٩
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	١٤,١	٧٣٨٢٧	٣,٧
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	١٣,٤	٧٤٨٨١	٣,٧

---

(١) وقد روّجتها السينما المصرية عبر أفلامها بخبث ودهاء.

السنوات	عقود الزواج		إشهادات الطلاق	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
١٩٥١	٢٥٢٥٢٦	١٢,١	٧٥٢٧٧	٣,٦
١٩٥٢	٢٣١٨٤٦	١٠,٨	٦٩٥٣٨	٣,٢
١٩٥٣	٢١٦٢٦٨	٩,٨	٦٢٢٩٦	٢,٨
١٩٥٤	٢١٩٠٠٦	٩,٧	٥٩٥٨٠	٢,٦
١٩٥٥	٢٢٦٣٦٤	٩,٨	٦٠٣٣١	٢,٦
١٩٥٦	٢٢٢٠١١	٩,٤	٥٧١٨٧	٢,٤
١٩٥٧	٢٤١٤٣٦	١٠,٠	٥٩٩٤٨	٢,٥
١٩٥٨	٢٢٨٠١٨	٩,٢	٦٠٠٤٤	٢,٤

ومن هذه الأرقام يتّضح لكلٍّ ذي بصيرة :

أولاً : إنَّ عددَ عقود الزواج في تناقص مستمرّ برغم أنّ الزيادة في عدد السكان مطردة ، لقد زاد عدد السكان خلال هذه السنوات الأربع عشرة نحو ثمانية ملايين ، وكان ينبغي أن يصلَ عدد عقود الزواج إلى أربعمئة ألف ، لا أن يهبطَ إلى مئتي ألف ، **فالأزمـةُ المخوفةُ هي قِلَّةُ الزواج لا كثرتـه كما يرجِف[1] النسـاء وأشياعهنّ من الرجال المخدوعين .**

ثانياً : إنَّ إشهادات الطلاق التي تمّت سنة ١٩٥٨م وعددها ستون ألفاً يجب أن تُذَكر معها الحقائق الآتية : إنّها تشمل الطلاق قبل الدخول وبعده ، والطلاق الرجعي والبائن ، والطلاق بالتراضي أو بحكم القاضي ، وأنَّ التصفية النهائية لهذه الأحوال المتباينة تظهرُ في الجدول المثبت صفحة ١٣ من الكتاب الرسمي السابق لمصلحة الإحصاء والتعداد .

---

(١) يرجف : يشيع كلمة السوء .

جدول ٥ ـ تعداد السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة إلى الجملة «الأرقام بالألف»

الحالة الزوجية	١٩٤٧ ذكور	النسبة %	إناث	النسبة %	١٩٣٧ ذكور	النسبة %	إناث	النسبة %	١٩٢٧ ذكور	النسبة %	إناث	النسبة %
لم يتزوج أبداً	١٢٠٢	٢٣	٦٦٢	١١	١٠٢٨	٢٤	٤٩٠	١١	٨٩٨	٢٣	٣٦١	٩
متزوج	٣٦٢٨	٧١	٣٧٦٦	٦٥	٣٠٩٧	٧٢	٣١٨٠	٦٧	٢٧٧٧	٧٢	٢٨٩٦	٦٨
مطلق	٦٩	١	١٢٧	٢	٦٠	١	٩٧	٢	٦٦	٢	١٢٠	٣
أرمل	١٣٨	٣	١١٣١	٢٠	١٢٩	٣	٩٣٢	٢٠	١٠٥	٣	٨٧٠	٢٠
غير مبين	٨٨	٢	٩٧	٢	١٠	–	٧	–	١٢	–	٩	–
الجملة	٥١٢٥	١٠٠	٥٧٨٣	١٠٠	٤٣٢٤	١٠٠	٤٧٠٦	١٠٠	٣٨٥٨	١٠٠	٤٢٥٦	١٠٠

* ولا يشمل الذكور دون الثامنة عشرة والإناث دون السادسة عشرة.

من هذه الأرقام يتبيَّنُ أنَّ نسبةَ المطلّقين الذين تخلّوا عن تكوين الأسر نهائياً إلى مجموع المتزوّجين أرباب الأسر هي (١ : ٧٢)، فهل هذا هو الباعث على الصراخ والتعويل من فوضى الأحكام الإسلامية كما يفتري هؤلاء الكاذبون على دين الله ودنيا الناس؟.

إنَّ لغة الأرقام تكشفُ عن الفراغ الهائل في منطق المتهجّمين على (قوانين الأحوال الشخصية) كما يسمّونها.

وتبيَّنُ أنَّ هناك بواعثَ أخرى كامنة في النفوس هي سر اللَّغط الذي يتجدَّد بين الحين والحين ضدّ تعاليم الإسلام في هذا المجال.

ولقد ألقيتُ نظرةً على بعضِ التفاصيل في شهادات الطلاق فوجدتُ أنَّ ثلاثةَ أرباع المطلَّقين لا أولادَ لهم ألبتة، لأنَّهم طلَّقوا قبل الدخول أو بعده، والزوجة عقيمٌ أو لم تلد.

وقلتُ للمسؤول في وزارة الشؤون: إنَّ هذا الإحصاء قاطعٌ بفسادِ الادّعاء أنَّ الطلاق سبب الأسباب في تشرّد الطفولة. .

قال: لا تنسَ أنَّ الرُّبع الباقي في حالاتِ الطلاقِ يخلف وراءه ثلاثين ألف ولد.

فقلتُ: هل المطلّقون الذين لهم أولاد: صعاليك جميعاً. ففيمَ إذن قضايا النفقة والحضانة التي تُشغل المحاكم؟.

إنَّ (الطلاقَ أبغضُ الحلالِ إلى الله)، وما نريدُ أن يلجأَ إليه أحدٌ إلا عندَ اليأسِ من صلاحِ ذات البَيْن.

لكنَّ القول بأنَّ الطلاق سبب أول أو ثان أو ثالث لتشرّد الأطفال في مجتمعنا جرأة مستنكرة وتخبط شائن.

ونعاودُ السؤال: **إذا كان عدد الذين يتزوّجون أكثر من واحدة قرابة (٢٪)، وعدد الذين يطلِّقون يهبط بعد التصفية التي كشفَ عنها الإحصاء إلى مثل هذه النسبة. . ففيمَ عويلُ النساء؟!.**

وفيمَ فزعُ بعض الكتبة الذين طالت ألسنتُهم في الإسلام وتعاليمه؟!.

ثم لماذا لم نسمع لهؤلاء صوتاً يضيقُ بإباحةِ الزنى في الظروف التي حدّدها القانون؟!.

إنَّ الجؤار هناك والصمت هنا دلالة ضمير خائن، ونصيحة مغشوشة، ومن ثَمَّ فنحنُ نَلفتُ الأنظارَ إلى ما ينطوي عليه هذا التناقض الغريب.

قال لي بعض المتحمّسين لتقييد الطلاق: إنَّ سهولةَ الطلاقِ في الإسلام يَسَّرت لمن يبغضون زوجاتهم من النصارى أن يتركوا دينهم، ويدخلوا في الإسلام حتى يتخلّصوا بالطلاق من الزوجات اللاتي يكرهون.

قلتُ: كأنَّ التشريعَ المقترَح محاولة لمنع هؤلاء الفارّين من اللجوء إلينا!.

لو أنَّ هناك عقلاً راشداً لاتّخذنا هذا المسلكَ دليلاً على أنَّ سلبَ الرجلِ حقَّ الطلاق مزلقةٌ لسلبِه دينَه.

إنَّ عشرات الأمم المسيحية احترمت الواقعَ، وأباحت للرجل الطلاقَ بعيداً عن التعاليم المتوارثة بين كهنة الكنيسة، فكيف نفكّر نحنُ أن نضعَ أيدي المسلمين في الأغلال التي طرحها غيرهم؟.

وماذا يقع لو قيّدنا الطلاق كما يقترح هؤلاء القاصرون؟.

أما يترك نفرٌ من المسلمين دينَهم فراراً من الزوجة التي لا يطيقون؟.

بذلك تكون أولى بركات القانون المُراد سنّه أن نعوقَ غير المسلمين عن الإسلام، وأن ندفع بعض المسلمين إلى الارتداد حين يعجزون عن ترك زوجاتهم، وذلك كله تحت عنوان إرضاء المرأة أو حماية الأسرة!!.

إنَّ هذا التشريع ـ لو صدر ـ فسيكونُ ذريعةً إلى مفاسد هائلة، وجرائم فاتكة، وإنَّا لموقنون أنَّ أُولي الأمر لن يُخدعوا بهذا الضجيج المصطنع مهما تتابع الصياح واستطال الإلحاح.

بل إنَّ أملاً يتجاوزُ التزامَ تعاليم الإسلام بشأن الأسرة إلى إشاعة تعاليم الإسلام في أرجاء المجتمع كلِّه، فتتناولُ صنوف المعاملات، وتنفخُ روحَ الشرف والحق في قوانين العقوبات، وسائر التصرفات.

ويومئذٍ تكونُ بلادُنا قد نجحت في صدِّ الاستعمارِ الثقافي، وعادت سيرتُها الأولى تضيءُ الطريق للحائرين.

* * *

ثقافة مهجورة:

تعليم دميم الوجه

وأعني به التعليمَ الديني، ذلك النوع من الثقافة التي تحيا على هامش المجتمع، تفوح منها رائحة البِلَى، ويضطربُ أصحابُها في عالَمٍ يتنكّرُ لهم، ويضيقُ بمرآهم..

إنَّ التعليمَ الدينيَّ في بلاد الإسلام وصلَ إلى قعرِ الهاوية، التي هيأها له الاستعمارُ، ودفعه في طريقها من عشراتِ السنين، فهو ينحدرُ إليها كما تنحدِرُ الشيخوخة إلى الموت، لا تغني عنها مقويات ولا منشّطات.

وها هو ذا قد ركدت ريحُه، وسكنت حركتُه، وعطبت ثمرتُه.. ولستُ أدري ما سيكون عليه غدنا ـ والحالة هذه ـ.

هناك خرّيجون من (الأزهر) يقومون بتدريس اللغة العربية في المراحل الأولى والثانوية، ويكلّفون كذلك بتدريس ألوان باهتة من تعاليم الإسلام.

غير أنَّ هؤلاء المدرّسين وتلامذتُهم لا يفيدونَ الإسلامَ قليلاً ولا كثيراً، ولا يفيدون هم أنفسهم شيئاً من الإسلام.. وكذلك الحال بالنسبة إلى اللغة العربية وآدابها وقواعدها.. إنّ ألسنة المتعلمين تكادُ تجيدُ كلَّ لغة إلا العربية!!.

والحقيقة أنَّ هذه المحاولات دهان سطحي فوقَ علل غائرة، ولا بدَّ لعملِ شيءٍ جديدٍ كلّ الجِدَّة إذا أُريدَ بقاء الإسلام بين أتباعه، وامتداد تعاليمه مع الأجيال النامية..

* * *

سألني صديقٌ: أنتَ عالمٌ تخرَّجتَ في الجامع الأزهر من سبع عشرة سنة، ولك غَيْرةٌ باديةٌ على دينك، فهل دفعتَ بأولادك إلى الأزهر ليؤدّوا الرسالة التي تقوم بها؟.

قلت له: لا، إنني يا صديقي أجنّب ذريتي المآسي التي لحقتْ بزملائي،

وكادت تلفّني في أكفانها لولا أنّ الله َلطف بي . .

لقد دخلتُ الأزهرَ وعمري عشر سنين، وقضيتُ فيه خمسة عشر عاماً، لم أكن خلالها طالبَ علمٍ يتفرّغُ لتلقّي دروسه، بل كنتُ مقاتلاً في حربٍ دائمةٍ مع المجتمع والدولة!!.

كانت الدنيا متجهمة لي، الدنيا الرسمية والدنيا الشعبية . .

فأمّا الدنيا الرسمية . . فإنَّ قوانين الدولة كانت تحظرُ على أمثالي الالتحاق بالوظائف العامة، وتجعل المناصب كُبراها وصُغراها لأبناء التعليم المدني، وكان مفروضاً أنَّ جميع الوزارات تزدحم بغيرنا، وتوصَدُ أبوابها في وجوهنا، ويستحيلُ أن يفلتَ إلى داخلها أحدٌ منّا، والذي بقي لنا بعد ذلك عدة وظائف تافهة، لا يكفلُ راتبُها حياةَ دابة .

وأذكر أنه على عهد (صدقي باشا) عُيِّنَ نفر من علماء الأزهر المتخصصين ـ الذين قضوا في الدراسة مُدداً لا تقل إحداها عن خمسة عشر عاماً ـ عين الواحد منهم بثلاثة جنيهات فقط، وذلك مرتَّب دون ما يُقرّرُ يومئذٍ لحاملِ الشهادة الابتدائية!!.

إنَّ الاستعمار، السافر منه والمقنَّع، دفع بالأزهر ورجاله إلى مستقبل كالح .

فإذا تجاوزتُ الناحية الرسمية إلى الناحية الشعبية، فإنَّ الفجوةَ التي حُفِرت بيننا وبين الناس كانت عميقة ـ ولا تسلني مَنْ حفرها؟ .

كان كثيرٌ من العامة يتعرَّضُ لنا بألفاظ السخرية والتهكّم، ويرى التندّر بملابسنا، والتفكّه بعمائمنا . . مسلاةً مستباحةً . .

ولما كان أغلبُ القادرين الواجدين يرفضُ تعريضَ أبنائه لمستقبل أسود، ويُفضِّل الاتجاه بهم إلى التعليم المدني، فإنَّ التعليم الديني أصبح منتجع الطبقات الفقيرة .

ومصر بلدٌ حكمه الفراعنة قديماً، وقامت للإقطاع فيه دولة، رأينا سادتها بأعيننا، وفي هذا البلد يُحقَّر الفقير، ويُذل، وتقتحمه الأنظار باستهانة .

ولما كـان الأزهري يُمثِّل الدين، ويُمثّل الفقر، فهـو يجمع بين حالتين مزريتين تضعان أمامه السدود، وتثقلان أطرافه بأنواع القيود. . . !! .

ومن ثَمَّ تكوَّنـت في مصر طائفة غريبـة على الحياة العامـة، قد يكون في بعضها ذكاء خارق رائق، أو نفع عميم أو جهد عظيم، ومع ذلك فيكفي أن تكون أزهرية لتقابَلَ بهزّ الكتفين. . .

وزاد الطين بلة أنَّ الدولة انصرفت عن العناية بهذا المسجد الكبير، ولم تبالِ أن تتقلّص منه عناصر الحياة، وأن تسودَ فيه عناصر الركود والضعف.

فماذا ترى الآن؟.

إنّني أذهب إلى مباني الكليات الأزهرية، وقاعة المحاضرات الكبرى، فأجدُ عليها جميعاً غبرة ترهقها قترة.

برج الساعة خالٍ لا ساعة فيه!.

القاعة مقفرةٌ لا أنيسَ بها ولا صوت!.

زجاجُ النوافذ محطَّمٌ، وقد وضعت في فراغه أوراقُ الكرتون!!.

الأطلالُ القديمة تسفي الغبار.

والأبنيةُ الجديدة يبولُ عليها الرعاع!!.

وجبل المقطم يُلقي ظلالَ الخيبةِ على المكان الهامد!.

ولقد كان من ثلاثين سنة مقابر للموتى، وهو الآن مقابرَ لنفرٍ من الشيوخ النائمين والشباب الهائمين.

إنَّ أبي ـ رحمـه الله ـ كان رجلاً طيّبَ القلب، كبيـرَ الروح، وقد نذرني لخدمة الإسلام، ووقف حياته ونشاطه على إدخالي في الأزهر، وثابـرَ ـ وهـو المكافح الجلد ـ حتى نلتُ إجـازتي منه، ورآني وأنا أبدأ حياتي بمرتّب سـتة جنيهات. فقد كان الحظّ إلى جانبي في هذه السنوات العجاف، وإلا ما استطعتُ أن أحصلَ على هذا المبلغ مع أنّ مئات العلماء كانوا يتضوّرون. . .

وهناك ألوفٌ أمثالي أُدخلوا الأزهر بهذه النية الصالحة، وكان من السهل

توجيههم الوجهةَ التي يُسهمون فيها بجهد رائع في خدمة هذه الأمة ورفعة شأنها.

بَيْدَ أنَّ سياسةَ الاستعمار القديمة، وأسلوب الرجال الذين تربوا في جامعاته ومعاهده جعل من الأزهريين قوّةً مشلولة، ولا أريد أن أقول: طاقة منبوذة..

إنَّ تحقير الأزهريين لأنّهم أبناءُ الفلاحين الفقراء جريمةٌ قذرةٌ، وربما يرتكبها إلى يوم الناس هذا رجالٌ لو نبشنا الترابَ عن أصولهم لاسودّت وجوههم..

وأغنياء مصر - بل أغنياء الشرق كله - آخر أهل الأرض فخراً بثرواتهم، وتنكراً لغيرهم.

وتحقير الأزهريين لأنّهم يمثّلون الإسلام جريمةٌ قذرةٌ كذلك، يرتكبها إلى يوم الناس هذا رجالٌ مسخَ الاحتلالُ البريطاني قلوبَهم وعقولهم، وأماتَ حياءَهم وأحيا بذاءتهم.

رجال أعرف أنهم ينحنون لذوي العمائم السود[1]، ويتجرّؤون على أبناء دينهم فحسب.

ذلك أثر التربية التي أخذهم به الغالب المحتل من سبعين سنة.

والجراءةُ على الإسلام هي التي تجعل الواحد من هؤلاء يمسحُ جبهته بنعل بغيٍّ، ويكرعُ من الخمر حتى يمسحَ الأرضَ بلحيته الملوثة، فإذا رأى شيخاً مسلماً نهره بكبرياء وعُنجهية..!.

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين أُناساً أجلافاً ينقصهم زادٌ كثيرٌ من المعرفة الحسنة، والسيرة اللبقة.

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين تجّاراً يصطادون المال، ويدّخرونه لعاجلتهم، وهم ذاهلون عن آجلتهم.

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين أقواماً لا ترشّحهم معادنهم العاطفية ولا الفكرية لأداء رسالته، وحمل أمانته.

---

(١) ذوو العمائم السود: رجال الكنهوت من النصارى.

غير أنَّ ذلك كله لا يتأدى بأحد إلى إصدار حكم بالإعدام البطيء على الإسلام وعلى تعليم الإسلام، وعلى المعهد الذي أُقيم لذلك الغرض.

إنَّ الظروف التي تعرّض لها (الأزهر) لو تعرَّضت لها جامعة أخرى لاصطفقت أبوابها من زمن بعيد..

ولو أنَّ خريجي الآداب والحقوق تعرَّضوا لألوان الكساد المادي والأدبي الذي تعرَّض لها الأزهريون لأُغلقت كليّاتهم، ولأدركهم من الهوان ما يواريهم الثرى...

إنَّ الظروف التي تحيا فيها هذه الطائفة، والتجارب التي تمرّ بها، تجعلك تردّد المثل المعروف: «لا تسأل عن الهالك كيف هلك! ولكن اسأل عن الناجي كيف نجا»...

* * *

ولكي تخلصَ الأمةُ من ذلكم الازدواج في التعليم، والانقسام في المشاعر، لا بدّ أن نحدّد ـ بصراحة ـ موقفنا من الإسلام.

ولسنا نحن الذين نحدّد هذا الموقف، بل رجال وزارة التربية والتعليم..

هل المراد تنشئة الأولاد على تعاليم الإسلام أم لا؟.

وهذه التنشئة لا تعني حشو أذهانهم بجملة من الدروس الشاحبة، ولا حشد أبدانهم لحضور حصص مفروضة...

بل المراد خلق بيئة مكتملة العناصر تتعاون فيها أنواع النشاط العلمي والفني والرياضي لتكوين جيل متديّن.

المراد أن يستقرَّ في أذهان المفتشين والنظّار والمدرّسين وسائر الموظفين أنَّ غرس تعاليم الإسلام وآدابه واجبٌ في أوقاتِ العمل والفراغ، في الفصول وفي الرحلات، في العلاقات الخاصة والعامة.

وبذلك تكون للمدرسة رسالةٌ موصولةٌ بأهدافِ المجتمع والدولة، وتكون اليقظات النفسية والعقلية للكبار والصغار متساوقةً نحو مُثُلٍ عليا مقرّرة، مفروغ ابتداء من تقديسها، لا يسمحُ لأحدٍ أبداً أن ينال منها أو يتجرّأ عليها!!.

إذا حدّدنا موقفنا الإسلامي في التعليم، فإنَّ مستقبل الأزهر يكونُ قد بُتَّ فيه، إما بإغلاقه، وإما بكفالة وضعٍ كريمٍ له.

والواقع أنَّ نفراً من المسؤولين عن التعليم يتأرجحون بين ما تعلّموه من أمريكة وإنكلترة.. وبين ما فرضته طبيعةُ الحياة أخيراً في البلاد العربية والإسلامية.

هم تعلَّموا أنَّ الدين يجبُ إبعاده عن المدرسة.

وهم تعلَّموا أنَّ سلوك الشباب يجب إطلاقُه ليبرأَ من الكبت، والعقد النفسية.

وهم تعلَّموا أنَّ الدينَ يخالِفُ العقلَ، وأنَّ أحكامَه تجافي الطبيعة، وأنَّ إيحاءَه يُفسد العواطف والأفكار.

وهم تعلَّموا هذا في الكرّاسات التي حبسهم الاستعمار عليها، ولم يسمح لعيونهم أن تعدوها إلى غيرها..

كانت النتيجة أن جاؤوا إلى أوطانهم بأفئدةٍ موغرةٍ على الإسلام، نافرةٍ من أهله، شديدة الحرص على مجافاتهم..

والغريب أنَّ الهجومَ الذي رأوه على الدين كان موجَّهاً في بلاده ضدَّ المسيحية فقط، فأما نحن فنقلناه إلى بلادنا لنخنق به الإسلام.

أما المسيحيون ـ في أغلب مدارسهم الوطنية، وفي جميع المدارس التي افتتحوها في بلادنا ـ فإنّهم احتقروا هذا الهجوم، وجعلوا الروح الدينية والصلوات الكنسية جزءاً لا يتجزأ من برامجهم الدراسية؟!.

أرأيت هذا التناقض؟.

أرأيتَ الخيبةَ المُرَّةَ التي أصابتنا؟.

أرأيتَ كيف يوكسُ الإسلام وحدَه، وكيف ينبت أبناؤه وبناته غرباءَ عنه، أو خفافَ الزاد منه، أو قليلي الحنوّ عليه؟.

ومن بضع سنين اضطرت وزارة المعارف إلى توظيف عددٍ غفيرٍ من علماء

الأزهر، تمشياً مع سياسة التوسّع في التعليم، وهؤلاء العلماء الموظفون لم يُطلبوا للقيام ببرنامج واسع من التربية الدينية، لا وزارة المعارف أرادت هذا، ولا هم يصلحون لذاك، وإنما طُلِبوا ليكونوا مدرّسي لغة عربية.. بَيْدَ أنَّ هؤلاء **العلماء عاشوا في وزارة المعارف كما يعيشُ الملوّنون في الولايات المتحدة! إنَّ ماضيهم الأزهري لا يُغتَفَر لهم!**.

والحقّ أنَّ الأزهرَ ترك في نفوسهم ومسالكهم آثاراً لا تتواءم أبداً مع روح التحرر التي يفهمُها رجالُ وزارة المعارف.

روحُ الانفكاك من الإسلام، والغضّ من قداسته، والنظر إلى الاختلاط الجنسي والواجبات الدينية العامة نظرةً كلُّها تساهل و... إرخاص!. إنَّ آراء (فرويد) في علم النفس لها قداسةٌ ما تُعرفُ لوحي الله!.

ولما كان جمود الأزهريين بإزاء هذه المسائل مثيراً، فقد صدر قرار[1] بدحرجة بضعة ألوفٍ منهم إلى منزلة دراسية أدنى مما يستحقون، بحجّة النقص في كفايتهم الفنية.

وقد انبرى الدكتور (محمد البهي) لفضح هذا التصرف في محاضرة كبيرة، كشف فيها النقاب عن التيارات الأمريكية الهدّامة في بلادنا وفي ثقافتنا، ولا بدّ للرجوع إلى هذه المحاضرة للوقوف على جليّة الأمر. ونحن نقتطف منها هذه الأجزاء لاتصالها بموضوعنا.

قال ـ بعد أن سردَ هجومَ (فرويد) على الدين ـ: ومع أنّه يهودي، فهو لا يقصدُ من الدين هنا إلا المسيحية، لأنّه عدّد في هذا الكتاب النقائص التي أخذها فلاسفة القرن التاسع عشر على الكثلكة المسيحية.

قال فرويد: «وإنما ترجع استقامة الشعور في التصرّف إلى الخلاص من الكبت الجنسي نفسه، هذا الخلاصُ الذي يؤدّي (إلى روح الزمالة) ثم الانصراف إلى العمل المثمر»!.

---

(١) مشروع مستوى الكفاية الفنية في التعليم، وسيأتي تفصيله، والمقصودُ به قصرُ بضعة ألوف من علماء الأزهر على المراحل الدنيا في المدارس العامة.

وفرويد في نظرته إلى الغريزة الجنسية على هذا النحو، يجعلُها أساسَ الحياة الإنسانية، من الطفولة إلى الرشد، وهذه النظرية عاشت فترة في القرن التاسع عشر، وسادت أيام أن ساد الفكر المادي في الغرب، وتسود يوم يدعو الكتّاب إلى المادة العلمية، والوقوف عند حدّ الحواس وإنكار المعنويات، وفي مقدمتها إنكار الله.

ولم تسلم هذه النظرية لفرويد، إذ قاومها نفرٌ آخر من علماء النفس من معاصريه أمثال (ألفرد آدلر) ـ ولد سنة ١٨٧٠م ـ الذي تتلمذ على فرويد نفسِه. فـ(آدلر) جعل غريزةَ (حب البقاء) المصدرَ الأصيلَ الذي تنشأ عنه كل التصرّفات الإنسانية بدلاً من الغريزة الجنسية.

ورمى أستاذه بالمبالغة في شأن الغريزة، وبالدعوة عن طريقها إلى إهدار كلّ القيم الإنسانية، والوقوف بالإنسان عند الحد الحيواني.

وبقيام المدرسة المشتركة، وهي الـ(Public School)، في أمريكة انحطت القيم الأخلاقية في الحياة الأمريكية التعليمية، والحياة العامة. وربما كان السبب في ذلك أنه لم يعد هناك كبت للغريزة الجنسية. ولكن ليست (روح الزمالة) على أي حال ـ التي نشدها (فرويد) من الاختلاط في التعليم قبل مرحلة الجامعة ـ هي التي حلّت أزمةَ الغريزة الجنسية بين المراهقين والمراهقات.

أما مشروع (مستوى الكفاية الفنية) وتطبيقُه في دائرة مدرّسي اللغة العربية والدين، من المتخرّجين في كليتي أصول الدين والشريعة، من كليات الجامع الأزهر **فهو مشروع يعيدُ إلى الأذهان مشروع (دانلوب) في التوجيه الفني والتربوي لمدارس الحكومة المصرية، الذي قصد منه يومئذٍ الغضّ من قيمة الأزهر والمتخرّجين فيه.**

إنَّ المتخرّج من كلية الشريعة، أو كلية أصول الدين، الذي تولّى التدريس في مرحلة التعليم الابتدائي، ثم نقل من هذه المرحلة إلى مرحلة الإعدادي، ثم نُقل من هذه المرحلة إلى مرحلة الثانوي، إذا أعيدَ من جديد إلى المرحلة السابقة على المرحلة التي يقومُ بالتدريس فيها الآن معناه: عدم أهليته للقيام بمنهاج اللغة العربية والدين في مرحلة الثانوي.

ومعناه: عدمُ اعتبارِ التجارب السابقة التي اكتسبها في تدريس اللغة العربية والدين، في مرحلتي التعليم الابتدائي والإعدادي، سواء من الوجهة الموضوعية، أو الوجهة التربوية والمنهجية.

معناه: إهدار القيمة العملية لقانون التطور في الحياة بالنسبة للأزهري.

ثم اشترط: أنه لا ينقل لمرحلة الثانوي من جديد إلا بعد النجاح في امتحانٍ يساوي الامتحان النهائي لقسم اللغة العربية في كلية الآداب أو لطلبة كلية دار العلوم.

معناه: أنه مؤهّل الآن بالثانوية فحسب، وأنَّ حصوله على الشهادة العالية من كلية أصول الدين، أو من كلية الشريعة، أمرٌ ملغًى اعتبارُه.

وإذن.. أربع سنوات قضاها طالبُ كليتي أصول الدين، والشريعة، يدرس فيها المواد الخاصة بكل كلية، وهي مواد إسلامية عربية، ومن بينها تفسير القرآن الكريم - وهو من جانب يعتبر تطبيقاً عملياً لأسلوب اللغة العربية وقواعدها - بالإضافة إلى سنتين قضاهما في تخصص التدريس، يدرس فيها مواد التربية، ومنهاجاً موضوعياً للغة العربية بفروعها المختلفة، بالإضافة إلى ست سنوات أخرى على الأقل قضاها في ممارسة تعليم هذه اللغة، في مراحل التعليم الثلاث: الابتدائي والإعدادي والثانوي، **تساوي في نظر أتباع (ديوي) في مصر صفراً على اليسار في حياة المتخرج في هاتين الكليتين، الذي اشتغل بالتعليم الرسمي، حتى مرحلة الثانوي.**

هذا المعلِّم، طبقاً لمشروع (مستوى الكفاية الفنية) الذي خرج به أتباع (ديوي) على الرأي العام المصري في ٢٨ سبتمبر الماضي، عاد من جديد إلى وضع حامل الثانوية الأزهرية الفج، الذي لم يكسب خبرةً فنيةً، ولم يتابع في التعليم العالي دراسةً للثقافةِ الإسلامية العربية، في مدة الكلية، ولا دراسة تربوية فنية وموضوعية، في تخصص التدريس.

وبقيت التسع سنوات التي قضاها هذا المعلم في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي في التعليم الأزهري هي هي لم تتغير بما أضافه من أربع سنوات في الكلية، وسنتين في تخصص التدريس، وست سنوات في التعليم المدرسي

بوزارة التربية والتعليم.

وأصبح حاصل الجمع العددي لتسع سنوات، حصل في نهايتها على الشهادة الثانوية، ولأربع في الكلية، ولاثنتين في تخصص التدريس، ولست في مدارس وزارة التربية يساوي تسعاً فقط!!.

ثم عندما يريد النقل منذ الآن إلى الثانوي، عليه أن يجتاز الامتحان النهائي لقسم اللغة العربية في كلية الآداب، ولكلية دار العلوم.

ما هي برامج اللغة العربية الآن في كلية الآداب، وفي كلية دار العلوم لطلاب وطالبات التوجيهية فيها؟.

إنها برامج القسم الثانوي لطالب الأزهر في اللغة العربية، ومعنى امتحانه مرة أخرى في المقرر النهائي لطلاب قسم اللغة العربية في كلية الآداب، أو لطلاب دار العلوم، إلغاء اعتبار شهادة الثانوية التي حصل عليها من الأزهر، وعندئذٍ هو **مؤهَّل فقط في نظر أتباع (ديوي) في وزارة التربية والتعليم بالشهادة الابتدائية وحدها!.**

ذلك هو منطقهم، ونتائجُ هذا المنطق: إهدارُ قيمةِ الأزهر بإهدارِ قيمة المتخرّجين فيه.

وذلك ما أراده الاستعمار الإنكليزي يومَ تولّى السياسة التعليمية في مصر على يد (دنلوب)[1].

* * *

يكتبُ ديوانُ الموظفينَ تقريرَه عن (مستوى خريجي الجامعات المصرية) لعام (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨م) وتطلع به الصحف المصرية على الرأي العام العربي في ٢٠ سبتمبر الماضي، أي قبل خروج مشروع (مستوى الكفاية في التعليم) في الصحف بأسبوع، وعنوان هذا التقرير (جهل خريجي الجامعات).

ولخّصت جريدة (الأخبار الجديدة) التقرير فيما يلي:

---

(١) انظر كتاب (أباطيل وأسمار) للأستاذ محمود محمد شاكر، ط دار مدني. (ن)

ديوان الموظفين يستغيثُ من جهلِ خريجي الجامعات: أعلن الديوان أنَّ (٦٦٪) من الخريجين نالوا صفراً في الامتحانات التي أجراها أساتذة الجامعات للديوان.

قال: إنّ الأطباء عاجزون عن التعبير، وعباراتُهم ضعيفة، ومعلوماتهم العامة لا وجود لها!.

وقال: إنَّ الكيميائيين لا يعتمدون على أنفسهم في البحث والاطّلاع، وأنّ معلوماتهم جامدة!.

أما المهندسون.. فمستواهم الثقافي ضعيفٌ جداً، وهم لا يقرؤون الصحف، ولا يحاولون تجديدَ معلوماتهم الفنية بعد التخرّج، ولا يحاولون الاستفادة من الدراسة في النواحي التطبيقية.

ويأتي بعد ذلك خريجو كليات التجارة، وهم جهلةٌ تماماً بالمعلومات العامة.

ثم مدرّسو اللغة العربية (لم يقل الأزهريين من كليتي الشريعة وأصول الدين، بل مدرّسي اللغة العربية، وهو كما يشمل هؤلاء، يشمل المتخرّجين في قسم اللغة العربية في كليات الآداب، وكلية دار العلوم، وكلية اللغة العربية بالأزهر) وهم يخطئون في النحو.

ثم يأتي مدرسو الفلسفة (وطبعاً هؤلاء من كليات الآداب)، الذين لا يعرفون شيئاً عن الربط بين الفلسفة والحياة العملية العامة.

أما الزراعيون، فهم جهلة بمعلومات الجغرافية البسيطة... إلخ!.

يكتب ديوان الموظفين هذا التقرير، وتنشره الصحف في (٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م)، ولا شكَّ أنَّ وزارة التربية والتعليم بالاشتراك مع الجامعات هي جهة الاختصاص في بحث (مستوى التعليم)، فلا بدّ أنها تلقّت هذا التقرير قبل نشره في الصحف.

وبعد أسبوع من نشره في الصحف يقدِّم إلينا أتباع (ديوي) في وزارة التربية مشروع (مستوى الكفاية الفنية في التعليم). ولقد لخصته الأهرام الصادرة

في (٢٨ سبتمبر ١٩٥٧م) فيما يلي:

«تقرر ألا يظل في التعليم الثانوي من حملة العالمية في كليتي الشريعة وأصول الدين مع تخصص التدريس إلا العناصر الممتازة، التي حصلت على جيد جداً، في عامين متتاليين يسبقهما تقدير جيد (ولعلّه لا يكون هناك ممتاز من بينهم في نظر واضعي التقارير عنهم أصلاً) وينقل الباقون إلى المرحلة الإعدادية، ولا تكون الترقية من بينهم إلى المرحلة الثانوية إلا باجتياز امتحان في اللغة العربية في مستوى امتحان كلية الآداب قسم اللغة العربية، أو كلية دار العلوم».

أمَّا امتحان كلية اللغة العربية الأزهرية، فملغى اعتباره في نظرهم. الأزهر وحده، وأبناء الأزهر وحدهم، يُنخلون من بين أصحاب الشهادات العليا في مصر الذين جاءت طوائفهم في تقرير ديوان الموظفين السابق.

* * *

وأنا أعلم من تجاربي الخاصة ومن تقارير ديوان الموظفين لعدة سنين، ومن ملاحظة الاختبارات التي تُعقد بين الحين والحين لملء الوظائف الشاغرة أنَّ مستوى المتخرّجين في الجامع الأزهر وغيره من الجامعات المدنية ضعيفٌ إلى حدٍّ محزن، ومعنى هذا أنَّ طعن رجال المعارف في الأزهريين صحيحٌ!.

ولكنهم لا يُصْدَّقون إذا قالوا: إنَّ هذا هو السبب في دحرجتهم إلى درجاتٍ أدنى.

لو كان الأزهريون أقل كفاية من مستواهم الحالي، وأسرع انقياداً إلى العابثين من حماة الرقص التوقيعي، ودعاة المدرسة المشتركة ـ لأمسوا موضع الرضا، ولأغضي عن ضعفهم الفني كما تنوسي ضعفُ غيرِهم من أبناءِ المعاهد الأخرى.

* * *

يؤسفني أن أصارحَ بأنَّ هناك غبناً متعمَّداً يقع على رؤوس الأزهريين، إنَّ مستر (نهرو) يحاول إدخال (المنبوذين) في المجتمع الهندي. أما هنا.. فالمحاولات دائبةٌ لإخراج الأزهريين من المجتمع، الويلُ لأزهري يقع في خطأ. إنَّ الصحف تجعل من الحبّة قبةً، وتتناول قضيته لتحيل الوهم حقيقةً.

ولا يـزالُ الحزن يخامـر قلبي لنفـرٍ من العلماء تنـاولت الجرائـد قضيتهم بشماتة ظاهرة وحرص غريب على تلويث سمعتهم وإذلال جانبهم!! كأنَّ هناك ثأراً شخصياً بين هؤلاء الكتّاب وبين أولئك المساكين المحرجين، أمَّا غيرهم فتقعُ منه الخطيئةُ، وإذا الأقلامُ تتناولها ونصب عينها المثل القائل: «الجبنُ سيّدُ الأخلاقِ»!!!.

* * *

ثقافة مهجورة:

الجامع الأزهر

تاريخ الأزهر مشتبِكٌ بتاريخ مصر الإسلامية، ويكادُ يسيرُ معه صعوداً وهبوطاً.

ألفُ سنةٍ أو يزيدُ مرّت على هذا الجامع العتيق، وهو يلقي أضواء المعرفة على الشرق الإسلامي كله.

ألفُ سنة مرّت وهو يصونُ تراثَ العروبة والإسلام، ويستبقي علومَ اللغةِ والدين في حرزٍ آمن من هجماتِ الفاتحين وتفريطِ المفرطين.

لقد كادت الثقافةُ العربية والإسلامية تموتُ وتندثرُ في ليلِ الحكم التركي الطويل، ذلك الحكم الذي شلَّ النشاط الأدبيَّ في العالم الإسلامي، وكاد يطوي الحضارة الإسلامية في أكفانه الكالحة[1]. لولا هذا الأزهر الذي آوت إليه العروبة، ولغتها والدين ودراساته . . .

بُني الجامع الأزهر، وافتتح للدراسة على عهد (المعزّ لدين الله) مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، وكان المذهب الشيعي أساسَ الحكم في البلاد، وكان كذلك أساسَ الدراسة الفقهية بين علماء الأزهر وطلابه . .

ثم لم تلبث الأحوال أن تغيَّرت في مصر، إذ عاد إليها مذهب السنّة بعد ظهور صلاح الدين، فتضافرت مصرُ ـ حكومةً وشعباً ـ على جعل الأزهر مثابةً

---

(١) لم يدرس العهد العثماني دراسة متأنية منصفة بعدُ حتى نحكم عليه هذا الحكم، فقد نبغ فيه أئمة كبار يشار إليهم بالبنان منهم عبد القادر البغدادي، والشهاب الخفاجي، وعبد الرحيم العباسي، وعبد الرحمن الجبرتي.
ثم أليس الإبداع في العمران والفن الإسلامي المتمثّل في الخط العربي الذي وصل إليه المسلمون في العهد العثماني دليل حضارة وأي حضارة. انظر (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة) إعداد إحسان أوغلي، ط إستانبول.

للثقافة الإسلامية، كما يتصوّرها جمهرة المسلمين.

وبقي (الأزهر) على هذا المنهج يفدُ إليه الطلاب من المشرق والمغرب، وتزدهر فيه علومُ الشريعة واللغة، ويقوم برسالته العتيدة في رعايةٍ من الدولة وإعزازٍ من الأمة. ولم يكن علماءُ الأزهر موظفين يشتغلون بالشؤون العلمية فحسب، بل كانوا حرّاساً على تعاليم الإسلام، يذكرون الحاكم والمحكوم بها، وينهضون بعبء التوجيه الاجتماعي دون وجلٍ ولا مللٍ.

وتاريخ (الأزهر) حافلٌ بمواقفَ شتّى على تراخي العهود واختلاف الدول، التي تتابعت طوال عشرة قرون، وإن كنّا نذكر ـ تبياناً للحقيقة ـ أنَّ مناصب الأزهر الكبرى قد ظفرَ بها أحياناً بعضُ من فرّطوا في أمانة التوجيه وحُسن الدعوة إلى الله، وقد حكى الجبرتي في تاريخه قصصاً شتّى لهؤلاء وهؤلاء.

ولا شكّ أنَّ الحكمَ الصالح كان يعنيه اختيار أولي الكفاية والخُلق ليضعَ في أيديهم مقاليدَ الأزهر، وينتظرَ منهم تربيةَ الجماهير، وإعزاز الإسلام، وغرسَ فضائله في النفوس.

ومن الصفحات النقية لعلماء (الأزهر) انحيازهم إلى جانب الأمة كلّما رأوا ظلماً يحيقُ بها من الداخل، أو يهبط عليها من الخارج.

ومن هنا كانوا موئلَ الشعبِ أيام المماليك، ثم عندما وقعتْ مصرُ فريسةَ الاحتلال الفرنسي.

ومما يجدرُ التنويه به أنَّ علماءَ الأزهر آزروا بطريرك الأقباط (بطرس السادس) في نزاع نشب بينه وبين كبير الأمراء المماليك (ابن إيواظ) على الأحوال الشخصية لأقباط مصر، فقد كان هذا البطريرك صلباً في دينه، متشدِّداً في تطبيق شريعته، متحمّساً في أخذ رعيته بها مما جعل البعض يضيق به، وعرض الحاكمُ أمره على علماء الأزهر. فإذا العلماءُ يقرّون البطريركَ على مسلكه، ويؤيّدونه في سيرته، مما جعل كبيرَ الأمراء يتراجعُ عنه ويدعه وشأنه.

وهذه قصةٌ تكشفُ عن طبيعة السماحة في الإسلام، كما تكشف في الوقت نفسه عن مدى المكانة التي كانت مقررة للعلماء!.

وقد ظلَّ الأزهرُ أميناً على التراث الإسلامي كما ظلَّ صلةً وثيقةً بين مصر

وآفاق العالم الإسلامي المترامي الأطراف.

بيد أنَّ اتساعَ المعارف الإنسانية في هذا العصر، وانتظام المدارس والجامعات التي تقوم عليها، وانتظام الألوف المؤلّفة في سلكها يجعلُ من حقِّ الأزهر على مصر أن تدعم مكانته ورسالته وهي ـ في الحقيقة ـ إنّما تدعم مكانتها ورسالتها هي.

لقد شاءت الأقدارُ لمصرَ أن تحتلَّ مكانَ الصدارة في عالم العروبة والإسلام، وأن تكونَ قطبَ الرحى فيما تستلزمه هذه المكانة من جهادٍ ثقافي وعسكري.. وهذا شرفٌ يجب أن نحمِلَ مسؤوليته.

بل إننا ابتدأنا فعلاً نتحمّل هذه المسؤوليات منذ أعلنا استقلالنا الفكري والعاطفي في المعترك العالمي الحالي، ومنذ تبنينا سياسة الحياد، وتصدّينا لكلّ من يبغي جرّنا إلى أحد المعسكرين.

نعم.. لقد أعلنّا أننا كتلةٌ ثالثةٌ، لها خصائصها ومصالِحُها، ولها تاريخها وحضارتها، ولها أمانيها ومتاعبها، ولها رسالتها التي تودّ أن تحيا في ظلّها، وتكره أن تستظلّ برسالة غيرها...

وهذا الموقفُ يتقاضانا أن نمعنَ النظر في ماضينا الطويل، وفي واقعنا المعاصر لنبرزَ الحقائق التالية:

١ ـ إننا أمةٌ عربيةٌ ارتضت الإسلامَ ديناً، فهي لا تقبلُ مراءً في عروبتها ولا في إسلامها.

٢ ـ إنَّ هناك عللاً وأخطاء، تعرَّضت لها أمتُنا في تاريخها الطويل تتنافى مع مقتضيات العروبة والإسلام، فيجب أن تبرأ منها.

٣ ـ إنَّ تقوية معدننا وصقله وتوفير أسباب القوى حولَه إذا كان أمراً لازماً في كل عصر، فهو في هذه الأيام ألزم لنستطيعَ الثبات في حومةِ النزاع العالمي القائم.

٤ ـ إنّه لا بدّ من ذياد[١] الأفكار الدخيلة والشبهات الوافدة، وتحصين الأجيال الجديدة من وساوسها، حتى تشبَّ مستقيمةَ الفكر، نقية الوجدان..

---

(١) ذياد: طرد.

وبناءُ نهضتنا على تلك الدعائم لا يحتاجُ إلى استيراد مواد من الخارج.

فإنَّ اللبناتِ المطلوبة موجودةٌ عندنا. قال الأستاذ (محمد أبو زهرة):

«إنَّ التوحيدَ الفكريَّ والثقافيَّ والنفسيَّ لا يحتاجُ إلى إنشاء، ولكن يحتاج إلى توجيهٍ وجمعٍ، فإنَّ الأصلَ قائمٌ ثابتٌ».

وحيثُما اتجهت إلى بلدٍ إسلامي، فإنَّكَ تحسُّ بأنَّ الاتفاقَ النفسيَّ والفكريَّ موجودٌ، وأنَّ الفكرةَ العامةَ قائمةٌ، والعروة الجامعة لأساليب الفكر الإسلامي ثابتة.

ولا يوجدُ بين أهل دين أو أهل مذهب اقتصادي أو اجتماعي، من تلاقي أفكارهم حول اتجاه معيَّن لا يحول ولا يزول ما تجد ذلك بين المسلمين.

ولقد قدّر لي في الندوة الإسلامية الكبرى التي عُقدت بـ(لاهور) أن ألتقيَ بالوفود التي نزحت من البلاد الإسلامية على اختلاف الطوائف فيها.

فما وجدتُ ثغرةً فكريةً بيني وبينهم، لا فرق في ذلك بين (سنّي) و(شيعي) ولا بين (صيني) و(روسي) و(تركي).

وإذا كانت ثغرةٌ بيننا وبين أحد، فما كانت إلا بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمَّون بأسماء إسلامية ولا دينَ لهم؛ كهذا الذي ينكرُ أحكام المواريث، ويدَّعي أنها وقتية، أو كهذا الذي ينكر النبوّة، وأمثالهم ممن نبذ المسلمون كلامَهم في المؤتمر، كما تُنبذ النواة، والسبب في ذلك الاتحاد الفكري الذي لا يحتاجُ إلى الجمع والتوجيه والتنظيم؛ هو وحدة المصدر والاتفاق عليه والالتفاف حوله. فقد اتفق المسلمون جميعاً على أنَّ الإسلام له مصدرٌ واحدٌ يؤخَذُ من نصوصه المحكمة، وهو:

أولاً: نصوص القرآن، التي لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وثانياً: أقوال النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وسائر سنّته.

وإذا كانت بعض الطوائف مختلفةً في طريقة روايتها، فإنَّ الأصل الذي يقومُ عليه عمود الدين، وفقه الإسلام وأحكامه متفق عليه.

وإذا كانوا ينتهون إلى حكمٍ واحدٍ في أصول الإسلام والإقرار بجملة السنة التي تدلّ على هذه الأصول، فإن الغايةَ قد اتحدت، وأصل الوحدة الثقافية قد ثبت من غير نكير، ومن غير تعاند وتنابز بالأسماء.

وإن كانت أنواعٌ من الجدل قد وقعت وما زالت، فذلك لا يضيرُ في شيء.

إنها أحياناً من ضيق الفكر لا من اختلاف الثقافة، كما رأينا في صدر حياتنا من ملاحاة فكرية بين الشافعية والحنفية.

وقد تجيءُ من عمق الفكر كما يسجّل التاريخ الفقهي من مناظرات، بين أتباع هذه المذهبين الجليلين ببلاد ما وراء النهر في القرنين الرابع والخامس، تلك المناظرات التي كانت محمودةَ العاقبة منتجة مثمرة، لأنّه قد ترتَّب عليها تأييدُ الفروع بكلا المذهبين بالأقيسة العميقة وتنقيح الروايات في الأخبار المؤيدة.

وفي هذا المعترك اقتبس كل مذهب من الآخر..

إنّ هذه حقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها، وهي وجود نواة الوحدة الفكرية والثقافية والنفسية، في كل البلاد الإسلامية، مهما تختلف فيها الطوائف والمذاهب.

ولكنَّ الأمرَ الذي نريدُه، هو توجيه العناصر والعمل على إنمائها، وإيجاد مجتمع فكري يبني كيانه على دعائم الإسلام، ويقفُ حاجزاً دون النزعات المنحرفة التي تتغلغل الآن في صفوفه، وتلقي بالريب على حقائقه، حتى يكشف زيغ أولئك الذين اصطفاهم أعداءُ الإسلام ليحلّوا عراه، ويلقوا بالشكّ في أفئدة أهله.

ويزيد ـ مع هذا ـ جمع تراث الماضين، لا فرق في ذلك بين التراث الذي تركه السابقون من الشيعة، وبين التراث الذي تركه أئمة الأمصار ذوو المواهب المعروفة، وغير المعروفة، إذ كان كلُّ ذلك من تراث السابقين، وثمرات غرس الموَحِّدين، فهو تراثنا جميعاً، لا فرق بين سُنِّي وغير سُنِّي...

وهذا الكلام تبيانٌ حسنٌ للرسالة التي يمكن أن يضطلع الأزهرُ بها وينهض لحملها.

وبذلك تجد الكتلةُ الثالثةُ المنبعَ الذي تحتاجُ إليه لإسالة العقائد الدافعة والمشاعر الحية والآمال العريضة . . .

إنَّ هذه الكتلة تبدأُ طريقَها الآنَ وسْطَ عقابيل شتّى، من وهن الماضي، ومن دسائس المستعمر، بَيْدَ أنَّ المنقذَ الوحيد لها والسياجَ المنيع حولها لن يجيئها إلا من الإسلام.

والوحدة الشائعة في جنبات هذه الأمـة، ومناطقها المترامية لاحظها أعداؤها أنفسـهم. . قال الدكتور (محمد البهي): «الإسلام ـ كما يقول عنه المستشرق الإنكليزي (جب) ـ **قد انتشر انتشاراً سريعاً في فترةٍ لا تتجاوز قرنين ونصف قرن، وقد كان من أبرز آثار هذا الانتشار السريع الذي تكوَّنت خلالَه الحضارةُ الإسلاميةُ الكاملةُ أنها نشأت حضارة موحّدة، إذ لم تكن هناك فرصة لتأثير العناصر الإقليمية المختلفة أو الثقافية المتباينة فيه.**

فلمَّا انتشر الإسلام بعدَ ذلك في أقطار الأرض لم يكن ديناً ساذجاً، ولكنّه كان نظاماً كاملاً للحياة.

ولذلك ترى أنَّ اتساع رُقعة العالم لإسلامي من (الميحط الأطلسي) إلى (المحيط الهادي) لم يؤثر في وحدة الحضارة الإسلامية على غير ما تقضي به العادة[1].

ثم قال: «الأزهر هو المعهد الذي يجبُ أن يقوم بإشاعة الوعي الإسلامي».

وإذا كانت قوة الكتلة الثالثة تتوقّف على إشاعة الوعي الإسلامي بين أفراد هذه الكتلة من (المحيط الأطلسي) إلى (المحيط الهندي) وعلى قوة الإيمان برسالة الإسلام، فلا بدّ أن يكون هناك مركز ما لتوزيع هذا الوعي، ودفعه، وتأكيد الإيمان بالإسلام في نفوس المسلمين.

ونحنُ إذا اتّجهنا للتفتيش عن مركـز يقوم بهذه الرسـالة لا نجد سـوى (الأزهر) في رُقعة العالم الإسلامي كله، أو في موطن الكتلة الثالثة.

إنَّ الجامعات الحديثة في هذا العالم الإسـلامي هي جامعاتٌ لا تُعنى

---

(١) طريق الإسلام، ص١٥ ـ ١٧.

بالأيديولوجية ولا بالنظام الفكري لأصحاب هذه الكتلة.

وإنَّما عنايتها بأمورٍ أخرى كالعلوم والرياضة وفروع الدراسات الهندسية المختلفة وما إليها.

وإذ عُنيتْ بأيديولوجية ما فإنَّما تُعنى بفكرة منثورة لا تكوِّن نظاماً متكاملاً يكون شرقياً، أو غربياً، أو إسلامياً.

الأزهرُ وحده ـ وليست الجامعات الحديثة ـ هو مركزُ هذا الإشعاع، الأزهر فريد بهذه الرسالة، لا يوجد له مشارك قديم أو حديث في إطار الكتلة الثالثة، ومنذُ أن قام إلى اليوم وهو مركز الرسالة الإسلامية.

سواء ما يتعلَّق بدراسة تعاليمه المباشرة، أم ما يتعلّق بدراسة الوسائل التي تصحّح فهمها وتصوّرها، وهي اللغة العربية وما يتصل بها من دراسات».

* * *

في الإمكان ـ بوسائل يسيرة ـ أن يكون الأزهر عوناً بالغَ النفع في تحقيق الأهداف التي نسعى إليها، وتقريب الآمال التي ننشدُها.

بل هو في وظيفته المنوطة به، والرسالةِ المعلّقة عليه، والتاريخ الطويل الذي يصحبه وتقدير المسلمين الذي يحفُّ به. . هو في هذه النواحي جميعاً لا يقومُ عنه عوض.

ونستطيع أن نُدرك خطورة العملِ الذي يؤدّيه (الأزهر) ـ لو حيا ونهض ـ في ضوء الحقائق التالية:

١ ـ إنَّ الاستعمار يتوسّل بالتبشير المنظَّم، وبثّ الإرساليات، وبناء الكنائس على ترسيخ أقدامه في إفريقية وآسية، وعلى تكوين أجيال ترضى بوجوده، بل تحرص على بقائه، لأنَّها ترى في الدين الذي ربَّاها عليه آصرة روحية يلبي نداءها دون حَرَج.

والغربُ المسيحيُّ لا يهمّه من النصرانية إلا أن تكون طليعة تمهّد لزحفه، وإلا أن يكون رجالها عملاء له حيث كانوا.

٢ ـ إنَّ دولة (إسرائيل) لا تعرِف إلا الدين رباطاً يصل بين رعاياها على اختلاف أجناسهم.

وهي تجعل من العصبية الدينية وحدها الوقود العاطفي الذي تستبيح به جيرانها وتبيّت لاجتياحهم، وقد قرأتُ في الصحف أنّ كاهناً يهودياً خطب في الشعب الإسرائيلي. فقال ـ مبشّراً قومه بالنصر في المعركة الأخيرة: «إنَّ لدنيا مئة وبضعة عشر سلاحاً سرياً، سوف تكتب لنا النصرَ في صراعنا مع أعدائنا.

أتدرون ما هذه الأسلحة؟ إنّها جملة الإصحاحات التي تضمُّها التوراةُ المقدّسة»!!.

فإذا كان الدين في الهجوم السافر علينا مصدر الطاقة العنيفة التي تواجهنا، فمن العجز ألا تقوم جبهة الدفاع عليه، أو أن يخلو المعسكر العربي منه.

ودور (الأزهري) هنا أن يراعي عناصرَ المقاومة بعد أن يصلها بالإسلام، لا على أنَّ التمسُّك بالدين ضربٌ من التعصّب الأعمى، أو إثارةٌ لأحقادٍ طائفيةٍ صغيرة.

بل على أنَّ قيام الحقيقة، وحراسة الحقوق، وكسر العدوان، ومنع الفساد في الأرض، إنما تتمّ في ضوء عقيدة دافعة، وإيمان نابض، وحماسة تنبعث من الأعماق، تهونُ معها التضحيات.

والواقع أنَّ أخصبَ تُربةٍ لإنتاج المعاني هي التديّن الصحيح، وفي ضغطِ الحصار الاقتصادي على مصر وزميلاتها من الدول المتحرّرة، يمكن للشعب المصري ولغيره من الشعوب أن تتحمّل الجوعَ والعري، وذلك عندما يكونُ باعث الإيمان هو المحرّك للكفاح.

بل إنَّ الجماهيرَ لتشعر بالسعادة وهي تحتسب عند الله ما تعانيه من حرمان، ولا يمكن أن يُسمع لها ضجيج أو شِكاة، لو أنَّ رجال الأزهر ينسابون ـ دون تظاهر أو افتعال ـ لتثبيت اليقين في الأفئدة وتصبير الناس على اللأواء.

إنَّ إحياء الأزهر وسيلةٌ لا شكّ في جدواها، إذا أردنا ـ على عجلٍ ـ أن نصنع حركة بعث شعوري يساند ما نبغيه من نهوض سياسي عسكري!!.

وهناك نظرة أخرى.

إنَّ القومية العربية التي نريد أن نجمع عليها شتاتنا، ونُرسي على دعائمها تاريخنا الجديد، هذه القومية جزءٌ كبيرٌ من الانفعالات العامة التي تتحرّك بها أمّتُنا

من (المحيط الأطلسي) إلى (الخليج الفارسي). . هي جزء كبير مهم من هذه الانفعالات. والتعويل على هذا الجزء وإبرازه، وإقراره عنواناً فذّاً لثورات التحرر المشتعلة هناك. له مبرراته المقدورة، وله ظروفه الإقليمية والعالمية، بَيْدَ أنَّ هذه القومية التي نغالي بها ينبغي ألا تُنسينا هذه الحقائق:

١ - إنَّ الجمهرة الكبرى من عرب إفريقية وآسية مسلمون.

وإنَّ استمساكهم بمواريثهم العاطفية والفكرية من هذا الإسلام يحتلّ منطقة واسعة من عقلهم الباطن والظاهر، ومن هنا لا يسوغُ تجاهلُ أسلوبهم في الحياة، أو أحكامهم على الأمور.

٢ - إنَّ العروبة نفسها قطعة من الإسلام، بحيث لو انفصلت عنه لما بقيت لها أمجادٌ تاريخية تُذكَر، ولا أهداف سياسية تُعينها على الحياة[1].

٣ - إنَّ أعداء العروبة لا يستطيعون - نفسياً ولا عقلياً - أن يفصِلوا بينها وبين الإسلام، ولذلك نراهم حراصاً على مخاصمة النزعة العربية المجرّدة بدوافع دينية قوية، كأنَّ العروبةَ أسلفت ذنباً لا يُغتفر لها أبد الدهر، وهو أنها حملت الإسلامَ يوماً ما لهذا العالم. . وأنّه يجوز - لو أمكنتها الحياة وواتتها القوة - أن تحملَ هذا الإسلامَ للناس مرةً أخرى. . وهذا الحقد المكين ضد الإسلام سِرُّ المؤامرات المستمرّة في كل ميدان ضد العربية المطلقة. وهو - لا شك - سر إصرار الدول المستعمرة الكبرى على إقامة (إسرائيل) وتمزيق اللاجئين، والتوجّس من كلّ زعامة تحيي العروبة وتشدّ أوصالها.

وواجبُ الأزهر بإزاء هذا الموقف المعقَّد ضخمٌ ومتشعّبٌ، ويحتاج إلى رجالٍ ذوي بصرٍ وإخلاص، كما يحتاج إلى تحديدٍ شاملٍ في مناهجه وأسلوب حياته، وقبل ذلك. . لا بدّ أن نقنع أنفسنا بالحاجة إلى الأزهر نفسه، ليملأ الفراغ المتخلّف عن ضعف التوجيه العربي والديني في أرجاء الوطن العربي الكبير، وليغالبَ ما تركته عصور الضعف الداخلي والغزو الأجنبي من مخلّفات تعوقُ النهضة وتؤخِّر مسيرتها إلى الأمام.

* * *

---

(١) وهذا ما جرى وهذه آثاره.

ومن الحقائق التي يجب أن نواجهها في صراحة، أنَّ عروبة (لبنان) في خطر، وأنَّ بقايا الإسلام في القلوب المؤمنة هي التي ستبقي الحياة في التيار العربي المناوئ للاستعمار هناك.

وأنَّ شرق إفريقية كله مهدّد بطعنة استعمارية غائرة، يملأ المستعمرون أيديهم بها من الأحوال التي اختلقوها خلقاً في جنوب السودان، وفي الحبشة خصوصاً، بعد إذلال مسلمي (أريترية) وضمّهم في اتحاد فيدرالي إلى الحكومة المتعصّبة الحاقدة، حكومة (أديس أبابا). . . !.

وكذلك الصومال التي تتربَّى الآن على أرضه عناصر تُضمِرُ الشرَّ للعروبة والعرب أجمعين.

إنَّ بقايا الإسلام في هذه البلاد كلها هي التي تقاوم الاستعمار، وتوجد في ربوعها بعوثٌ أزهرية مبعثرة، تافهة الإمكانيات، بل تافهة القُوَى الروحية بالنسبة إلى الإرساليات التبشيرية التي توفدها أمريكة وإنكلترة وفرنسة.

ولا بدّ أن تعود الدولة ـ دون تريّث ـ إلى موقفها من الأزهر، لتجعلَ منه مستودعاً معباً بالكفايات العلمية والخُلُقية، ومن هذا المستودع تبعثُ بالإمداد إلى أرجاء الأمة العربية الكبيرة، كي تضمّد جراحها، وتنهضها من كبوتها. . ولتنفخَ فيه روح الثورة على الاستبداد والاستغلال حتى تنعمَ بالرفاهية والسلام.

إنَّ مكاسب مصر من الأزهر فوق الحصر والتقدير، لو أنّها زوّدته بأسباب الحياة والازدهار ووصلت ما انقطع من أواصر العروبة والإسلام.

* * *

والأزهرُ الآن يتكوَّن من ثلاث كليات تمثّل الدراسة العليا فيه، وبضعة عشر معهداً تنتشر في عواصم الأقاليم، وتضمّ عشرات الفصول للدراسة الابتدائية والثانوية الخاصة.

ونحن نُلقي نظرةً عجلى على هذه الكليات الأزهرية أولاً:

أ ـ كلية أصول الدين:

فكلية أصول الدين مفروضٌ فيها أن تدرّس العقائدَ والأخلاقَ والفلسفةَ

الإسلامية، وأنواع الملل والنِّحَل، والمذاهب الاجتماعية والإنسانية . . . إلخ .

وعلى ضوء من الاستبحار في (علم النفس) و(الاجتماع) و(التاريخ) يتأهَّل خريجوها للإمامة والوعظ والإرشاد ونشر الإسلام في الخارج وتعليمه للنشء في الداخل.

وفي هذه الكلية تخصص الدعوة والإرشاد، يعطي إجازةً فنيةً في هذا المجال الخطير، وهذا التخصّص يحتضر من بضع سنين، ولا ينتسب له إلا لفيف من العميان والمشوَّهين، الذين أحصروا في سبيل الله ـ كُرْهاً ـ لأنهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض.

وإذا كات الشكوى لا تنقطِعُ من تفاهة الخطب الدينية، وفشل الدعاة الإسلاميين في السيطرة على المجتمع المصري وغيره من المجتمعات الشرقية فالسببُ لا يُعيي الباحثين! .

السبب أنَّ هذه الكلية لم تؤدِّ الرسالة المرتقَبة منها، لنقصٍ بيِّنٍ في مادة الدراسة وفي كفاية الرجال المشرفين على الكلية.

بل كذلك لعجز المسؤولين الكبار في الأزهر عن فهم طبيعة هذه الكلية، وما يُعلَّق على نجاحها من آمال ضخام.

إنَّ الدراسة إذا ضعفت أو اضطربت في (كلية الطب) فلن يتخرَّج فيها رجالٌ يؤمَنون على صحة الناس وحياتهم.

والدراسة إذا ضعفت أو اضطربت في (كلية أصول الدين) فلن يتخرَّجَ فيها وعَّاظ أَكْفَاء، ولا مرشدون أمناء.

وستظلّ مصر ـ وهي زعيمة البلاد العربية ـ تحسّ أزمةً شديدةً في الرجال الذين يقودون زمامها الروحي، ويعقدون أواصر الفضائل وعُرى الأخلاق.

وستظلّ كذلك تحس أزمة في الرجال الذين تُوفدهم إلى الخارج ليغرسوا العقائد الدافعة، ويحرسوا النهضات الوليدة، ويقاوموا تحالف التبشير والاستعمار.

ب ـ كلية الشريعة الإسلامية :

هذه الكلية أُسِّسَت لتصون التراث الإسلاميَّ في عالم القانون، ولتذودَ الغزو التشريعي الأوروبي عنه، فتجعل سياسة التقنين منبجسة من طبيعة البلاد وتقاليد أهلها.

والمعروف أنَّ الروس مثلاً ينظرون ـ بريبة شديدة ـ إلى القوانين التي يصنعها الغرب للمجتمعات التي يحكمها، ويرون في بقائها ذيولاً طويلة لسلطانه الأدبي، أو لمآربه الكثيرة في الأقطار التي يفتحها، والتي قد تُكرهه الظروف على التخلّي عنها . . إلى حين . . .

ونحن نوقن بصدق النظرة التي أشار إليها السيد رئيس الجمهورية وقال فيها :

«إنَّ نظمنا الاقتصادية لن تُستورَد من الخارج، بل سنصوغُها من طبيعة حياتنا ووحي عقائدنا وتقاليدنا، وهي نظرةٌ تطّردُ في ميادين نشاطنا كلها، وتشمل آفاق التشريع جميعاً، ولا يُستثنى منها قانون معيَّن».

ومع تقديرنا للوضع المصري الحساس في النواحي التشريعية، ومركزنا الدقيق في المؤسسات العالمية، فإنّه لا يجوز ألبتةَ إغفال الدراسات العلمية للشريعة الإسلامية، وإبراز معالم الكمال التي تختصّ بها، وعقد المقارنات بينها وبين شتَّى التشريعات، وفتح باب الاجتهاد ليمكن إدخالُ المعاملات المتجدّدة في دائرة الإسلام الرحبة . .

وينبغي أن ينشأ تعاونٌ علمي وثيق بين (كلية الشريعة) هذه وبين كليات الحقوق الأخرى.

والكلية الآن بحاجة ماسّة إلى إعادة النظر في مناهجها ورجالها، فهي ـ بحالتها الراهنة ـ تشبِهُ متحفاً للأفكار القديمة، وصلتها واهية أو منقطعة بقضايا المجتمع وتطور الحياة وحركة التشريع.

إنَّ الثروة الفقهية في الإسلام بحرٌ متلاطم الأمواج، وكفاحُ الأئمة في أصول التشريع وفروعه جَهدٌ لا نظيرَ له في الحضارات الأخرى.

وسنرى أنفسنا ـ مع التغييرات الهائلة التي تطرأُ على العالم ـ مضطرين إلى إمعان النظر في قوانيننا، حتى تتواءمَ مع مقتضيات الحياة الجديدة.

فلنمهّد للنظر الصائب بجعل (الأزهر) يحيي الشريعة الإسلامية. وهو إذا أبرزها على طبيعتها النضرة، فستهفو إليها القلوب، وتتعلق بها الأبصار، وتلك هي رسالة (كلية الشريعة).

جـ ـ كلية اللغة العربية:

أنشئت هذه الكلية لحماية علوم اللغة العربية وآدابها، ولا شك أنَّ الصلة قائمةٌ بين قوة اللغة وقوة أهلها، وكلّما اتّسعت الرقعة التي تنتشر فيها لغة ما، دَلَّ ذلك على عظم الشأن وسعة النفوذ.

ولعلَّ وحدة اللسان بين الإنكليز والأمريكان كان لها أثر يُذكر في مسارعة هؤلاء إلى نجدةِ إخوانهم في حربين عالميتين مروعتين.

ونحن نعرف كفاح (الإنكليز) في نشر لغتهم، حتى إنهم ليخصّصون ساعات من إرسال الإذاعة الإنكليزية في (لندن) لتعليم الأجانب هذه اللغة.

وجهد الفرنسيون في ذلك معروف جيداً.

وقد تواطأت الدول المستعمرة كلها على وأد اللغة العربية وتنظيم حربٍ مستمرة ضد بقائها، وهي تبغي سلخَ المسلمين من دينهم وتاريخهم ومقوِّماتهم المعنوية بأسرها عن طريق تجهيلهم في لغتهم، وتزهيدهم في قواعدها، وتحقير حروفها وإملائها، ومن ثَمَّ فإنَّ المحافظة على اللغة ـ بدقّة بالغة ـ هي أولى الخطوات للنجاة بأنفسنا من مهاوي الضياع، وبقاء العرب في القارتين القديمتين متشبثين باللسان العربي ضرورةٌ لا محيصَ عنها في تماسك كيانهم وضمان مستقبلهم.

ويجب تمكين (الأزهر) من المحافظة الشديدة على هذه اللغة، فإنَّ شعوب الأرض المحترمة لا تُفرِّط في تراثها اللغوي.

فكيف يُستنكر ذلك على أمةٍ ذاتِ رسالةٍ كبرى، لها دينٌ يُقدِّسُ اللغة العربية، ويجعلها لغة التخاطب الرسمي بين مئات الملايين من المسلمين، بل لغة المناجاة الأولى في صلوات المسلمين لله رب العالمين؟!.

وليس أمر اللغة فقط هو المهم، بل أمر الأدب العربي من شِعر ونثر وعلم وفن.

إنَّ الكتاب العربي الذي يصدر في مصر، وينتقل بين الدار البيضاء غرباً و(سور أبايا) شرقاً هو الحبل الروحي المتين بين مصر وجاراتها العربيات وشقيقاتها المسلمات.

والواجب أن تبقى (كلية اللغة العربية) بدراساتها القديمة والمحدثة، وأن تزداد قدرتها على تكوين أجيالٍ تعتزّ بلغتها، وتفقه قواعدها، وتتذوَّق روائع الأدب العربي، وتجلو الغبار عن المطويِّ منه.

لقد مرَّت أيامٌ كان الكلامُ مع مراعاة النحو يعتبرُ سخفاً، أو كان معرَّة يُعرف بها الأزهريون، ولعلَّ ذلك بعض مظاهر البغضاء التي يكنّها الاستعمار للغة البلاد، حتى يخرّج أقواماً يحسنون الرطانة بأي لغة، وتحمرّ وجوههم خجلاً لو أخطؤوا في حرف منها.. ومع ذلك لا يستطيعونَ تركيبَ جملة صحيحة بلغة البلاد.. لغة الآباء والأجداد. أليس الكلام في النحو أشرف من هذا العجز؟.

وحبَّذا لو أرسلت بعوث أزهرية إلى البلاد الإسلامية الأعجمية، مهمتها الوحيدة تعليم اللغة فحسب.. إنَّ ذلك يكون خدمة جُلّى للعروبة والإسلام.

* * *

وقبل أن نتحدَّث عن التعليم الابتدائي والثانوي في المعاهد الدينية، يجب أن نلفت النظر بقوة إلى قسم البعوث الإسلامية.

إنَّ هذا القسم من نِعَم الله الكبرى على مصر يجيءُ إليه أبناء المسلمين من أفريقية ومن آسية، وفي أفئدتهم حُبٌّ جارفٌ، وأملٌ طامح، إنَّهم يجيئون مسوقين بدوافع الإيمان عند أهليهم، وكان من المستطاع أن توضع سياسة حكيمة حصيفة للإفادة من هذه الوفود الطيبة وقيادة الشرق الإسلامي كله عن طريقها، ولكنّنا نقرّر ـ والحسرة تملأ أنفسنا ـ أنَّ هذه الوفود تغدو وتروح دون جدوى.

إنَّ الإنكليز والفرنسيين يصنعون البعثات الأجنبية في بلادهم صناعةً متقنة، ويغرسون في لحمهم ودمهم معاني خاصة، ويتعاونون ـ رجالاً ونساءً ـ على جعل البعوث العربية والشرقية أقواماً مربوطين بهم مادياً وروحياً، متوجّهين إليهم في كلّ أفق كما يتوجَّه النبات المعروف بـ(عبّاد الشمس) إلى الشمس..

وقد كنَّا نستطيعُ الاستغناء عن نصف بعوثنا الدبلوماسية وعن أغلب ملحقينا الثقافيين في إفريقية وآسية لو أننا أحسنّا العناية بالبعوث المخلصة التي تجيئنا من هنا وهناك، والتي تريد ـ لوجه الله ـ أن تعمل معنا، بل أن تتلمذ علينا.

إنَّ قسم البعوث خلفٌ رديءٌ للقسم العام في الأزهر، وهذا القسم الذي كان ينتسب إليه عدد كبير ممن يسمون (الغرباء)، والغرباء عنوانٌ وُصِمَ به أبناءُ البعوث من مسلمي القارتين، وقد ذهب العنوان تقريباً وبقي الموضوعُ كلُّه.

فإنَّ أولئك المبعوثين لا يزالون غرباء في حياتهم وفي تعليمهم وفي الإشراف عليهم. . وكان من السهل رسمُ سياسة دراسية اجتماعية لرعاية أولئك الوافدين النافعين. بَيْدَ أنَّ الأزهرَ لم يخطُ في هذا الميدان الخطواتِ الصائبة المنتظرة.

ولا حَرَجَ من التصريح هنا بأنَّ الموظفين الذين وُكِّل إليهم أمر البعوث يفقدون الاستعداد النفسي لهذا العمل.

ولا بدَّ من رسمِ سياسة جديدة واختيار رجال لهم صلاحيات عاطفية وعقلية تتواءم مع الوظائف المتصلة بهذه البعوث. .

ومن المفيد استبقاء مدينة البعوث المنشأة حديثاً، وجعلها على غرار بيوت الطلبة التي تتبع الجامعة العربية، مع توفير عناصر البيئة الصالحة والتربية الإسلامية في هذا الجو الذي يتخرّج فيه شباب عربي مسلم، قد يتولّى يوماً قيادة (الملايو) أو (أندونيسية) أو (الكونغو) أو (الصومال).

أما المعاهد الابتدائية والثانوية فمن الخير استبقاؤها مؤقتاً.

إنَّنا لا نرحّب بالتخصص المبكّر في أية دراسة، ولا نرحِّب كذلك بهذا الانفصال الذي يُباعد بين فريقين من الأمة، ويقيم بينهما حواجز شتَّى. . ومن مصلحة الدين وأهله المبلِّغين له ألا ينشؤوا في هذه البداية الموحشة.

بَيْدَ أننا مع ذلك نرى الوقتَ لم يحن لتوحيدِ التعليم الديني والمدني، فإنَّ الأسس التي يتمّ عليها هذا التوحيد في أسلوب يطمئن أصحاب الغَيرة على الدراسات الإسلامية لم تتّضح بعد، ثم إنَّه لا محل للعجلة في الإسراع بهذا

التوحيد، فإنَّ أمام التعليم العام مشكلات تفتقر إلى بضع سنين قبل أن تُحَلّ.

وفي مقدورنا إدخال طائفة من التعديلات على سياسة التعليم الابتدائي والثانـوي في الأزهر، تخفّف من حدّة العيوب التي ذكرناها آنفاً، وتقـومُ على الإكثار من العلوم الكونية والدراسات العامة وضم إحدى اللغات الأجنبية، كما تقوم على التخلّص من بعض الكتب العتيقة، وما تحويه من أفكار سقيمة.

ومن الخير الانتقال بحمَلة الثانوية الأزهرية في الوظائف العامة، وفتح معاهد تربوية لهم كي يستطيعوا القيامَ بمهمة التدريس في المرحلة الأولى.

ولو أدّى ذلك إلى إغلاق المدارس المدنيـة التي تقوم بهذه المهمـة، كمدارس المعلِّمين مثلاً.

وهذا المجال الجديد يخفِّف الضغط على الكليات الأزهرية، ويجعل التخصّص في الدراسات الدينية العليا وقفاً على مَن تؤهلهم مواهبهم ورغائبهم لهذا النوع من التعليم، وفي هذا تقليل لـ(الكم) وتكثير في (الكيف).

إنَّ الخير الغامر سوف يعود على مصر بإحيائها الأزهر ورفعه إلى المستوى اللائق بمكانته.

وما دامت العروبةُ قد أصبحت شعارنا المحلي والعالمي فمن وضع الأمور في نصابها أن نهيِّئ فرصَ الحياة والإنتاج والترقّي لهذا المعهد العتيق، وأن نزوّده بالقوى المادية والأدبية التي تحقق أملَ المسلمين فيه، والتي تدعمُ مكانَ القيادة التي تحتله مصر بين الأقطار العربية والإسلامية.

وإلى جانب المقترحات التي أومأنا إليها في أثناء وصفنا لأحوال الأزهر يحسنُ أن نلخّص ضروبَ الإصلاح التي يجب الأخذ بها للنهوض بهذا الجامع الكبير حتى يؤدّي رسالته العلمية والإسلامية على خير وجه:

١ ـ هناك علوم مدنية كملت دراساتها، وأحرزت في المجتمع الإنسـاني نجاحاً يُذكَر. ومن الواجب أن تُدرَّس مبادؤها في المعاهد الثانوية كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتغذية والإحصاء وما إليها، ثم يستبحر الطلاّب في شرحها إذا دخلوا الكليات الأزهرية، فذلك أعون لهم على فهم الحياة وتوضيح الإسلام.

٢ ـ العلوم الدينية الأساسية ينبغي أن يُعاد النظر في أسلوب دراستها، فيُدرَس ـ مثلاً ـ فقه الكتاب والسنَّة، ثم يدرس بعد ذلك فقه المذاهب في المراحل الثانوية، لا أن يتخصّص الطالبُ ابتداءً في أحد المذاهب الأربعة كما يحدث الآن.

ويجب أن يُعاد النظر في دراسة السنّة، فتُختار أبواب موصولة بالحياة، ويُدرس طرف من علوم القرآن في المرحلة الثانوية.

كما يجب أن يُدرس الإسلام كنظام متكامل، تتضحُ فيه المعالم الاجتماعية والسياسة، لا دراسة جزئية حرفية كما يحدث الآن.

٣ ـ التاريخ الإسلامي لا بد أن تتسع برامجه، وأن يُدرس دراسة توجيهية، كما يجب أن يُدرس التاريخ العالمي العام، وتاريخ كل من اليهودية والنصرانية على حدة، وأن توزّع هذه الدراسة على شتَّى مراحل التعليم الأزهري.

٤ ـ يجب إحياء دروس (المطالعة) و(المحفوظات) و(الأدب العربي) وتزويد الطلاَّب بأمهات الكتب في هذه الميادين.

٥ ـ يجب فسح المجال أمام خريجي الأزهر حتى يختلطوا بجميع طبقات الأمة، وأن تُتاحَ لهم فرصُ العمل في أية وزارة، وأن تسوّي الدولة بينهم وبين خرّيجي الجامعات الأخرى مادياً وأدبياً.

٦ ـ العناية باختيار مَن يملؤون المناصب الإدارية كلها من (شيخ الأزهر) إلى (شيخ المعهد الابتدائي)، وتحرّي أن يكونوا على حظّ ظاهر من الكفاية والتديّن والنضج العقلي والخُلقي.

* * *

وكلمةٌ أخيرة حول القيمة الإنسانية للدين، وتعليمه، والأخذ به!.

إنَّ الدين ضرورةٌ لا بد منها، ولنعلمَ يقيناً ـ أنّه لا يُغني عن الدين شيءٌ، والفارغون يجادلون في ذلك ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومما يجري على الألسنة ـ تحقيراً للدين، وصرفاً عن سبيله ـ أنَّ كثيراً من أتباع الدين ليس لهم خُلُقٌ قويم، ولا سيرة شريفة، وأنّه بحسب المرء أن يكونَ على حظ من سعة الثقافة، ودقة الذوق، ويقظة الضمير ليكونَ إنساناً كاملاً، ولو طـرح من قبلُ ومن بعدُ كلَّ الواجبات الدينية، فلم ينهض إلى صلاة، ولـم يعبـأ بصيام.

وهذا كلامٌ معلولٌ من أوله إلى آخره، **فلا كمال للبَشر إلا في ظلِّ الدين، ولا شيءَ يعدِلُ الدينَ ألبتة في تزكية النفس ودعم المجتمع.**

نعم.. هناك أقوام ينتسبون إلى الدين، ولا يُحسنون العمل به، ولا فقه روحه، ولا إقامة نصوصه، ولا يكونون أبداً حُجَّةً على الدين، أو مثار اتهام له، ومَن ذا الذي يُحمِّل خطأ الأتباع في الإدراك والتطبيق؟.

وهل يسلمُ في الدنيا مبدأٌ بعد ذلك سواء أكان دينياً أو فلسفياً؟.

وهناك أقوام يجيدون أداء صور العبادات دون أن يشربوا روحها، أو يحسنوا إقامة الرسوم والأشكال، ودون نفاذٍ إلى الجوهر واللب في منطق العقيدة وفروض الإيمان، وذلك قصور أو تقصير يقع على رؤوس أصحابه، ويزري بمكانتهم وحدهم، وهم في حكم الدين عُصاة، وأمام الله مفرّطون، وما يقع في سلوكهم ـ من غشّ أو كذب أو خُلْفٍ ـ فهم مسؤولون عنه، مؤاخذون به، والدين الذي يتّبعونه أول من يحاسبهم على ذلك، وأول مَنْ يُحدِّد أقدارهم ويـزنُ أوزارهم.

وأعرف ـ كما يعرفُ غيري ـ أنَّ أدعياء الدين كثير، وقد شكا الأولون والآخرون من ظواهر التُّـقى الكاذبة، وممن يجعلون الصلوات شباكاً لاصطياد المنافع وبلوغ المآرب.

لكنَّ أحداً من ذوي الألباب لم يتذرّع بمسلكِ هؤلاء إلى القول بأنَّ الدين نفسَه لا يصلحُ وسيلةً لإقرار الفضيلة وبلوغ الكمال..

أما الزعم بأنَّ استبحار المعرفة، ويقظة الضمير يُغنيان عن الدين، فهذا كلامٌ باطل؛ فكم من علمٍ كثيرٍ صحبه فسادُ الذمة وذهابُ الفضل!.

وأمّا غناء الضمير عن أصل الإيمان وفرائض الصلاة والصيام فذاك أيضاً من

أوهام الحالمين، وخيالاتِ الحائرين.

إنَّ على الإنسان واجباتٌ شتّى:

أوّلها: واجباتُه نحو ربّه الذي خلقه فسوّاه، فالمرءُ الذي يجحدُ نِعَمَ الله ويماري في حقوقه، ويتهرَّب من فرائضه، ويتشهَّى محارمَه شخصٌ ساقطُ الضمير، لا ثقةَ به ولا تعويل عليه.

وقد يكون هذا الشخصُ مقبولَ السيرة بين الناس أو مضبوطاً في بعض المعاملات، أو له خصائص نفسية وعقلية ثمينة، بَيْدَ أنَّ ذلك لا يدعو إلى المجازفة في تقرير قيمته، ورفع خسيسته.

إنَّ الآلةَ العاطلة قد يكونُ بها من الحديد ما لو بيعَ (خُردة) لساوى الكثير، فهل ذلك يُعلي من قَدْرِها ويغضّ من توقّفها وفسادها؟.

الواقع أنّ الذين يحترمهم المجتمع لما ينسبه إليهم من ارتقاء الضمير، إنما يُغالي ببعض نواحيهم ويبرزها ويتجاوز عن البعض الآخر ويهمله، ولو فتَّشنا في أحكامهم على الأمور كلها، وتصورهم لكثيرٍ من القضايا العليا، لوجدنا ما يخزي ويسيء.

وكثيرٌ من أصحابِ هذه الضمائر يستحلُّ محرماتٍ شتّى، ولا يرى غضاضةً من اقترافها، لأنّه ـ وهو المقطوع عن السماء ـ لا يعترِف بما فيها من قذر[1].

ولو افترضنا ـ جدلاً ـ أنَّ نواحيهم الإنسانية كلها بلغت القمة فكيف ننسب الكمالَ كله لشخص هانت عليه علاقته بربّه، فأخَّر حقوقه، وتمرَّد على مظاهر العبودية المُطالَب بها وغيرُه؟.

إنَّ ترجيحَ كفة هؤلاء ضلالٌ كبيرٌ، وعقدُ نسبةٍ بين مضلٍّ يكذِبُ، وملحِد يصدُق هو ضربٌ من المقارنة المفتعلة، لا يراد من إجرائها إلا توهينَ الدين وتقوية الإلحاد.. فلا شأنُ المصلي أن يكذب، ولا شأنُ الملحد أن يستقيم، نعم.. لا الصدق والاستقامة من خصائص الإلحاد، ولا الكذبُ من خصائص الدين.

---

(١) قال حذيفة بن اليمان: ثم حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال: «... حتى يُقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان». متفق عليه.

وسوق المنطق بهذا الأسلوب كالقول بأنَّ هذا عاهر جريء، وهذا عفيف هياب، أو هذا إنسان يبطئ في سيره، وتلك دابةٌ تُسرع في جريها. ما معنى هذه المقارنة؟.

إنَّ انعدامَ الموضع المشترك يجعلُ هذه المقارنة مغالطةً، فإنسانٌ عليلٌ وحيوانٌ قوي مقارنةٌ لا تُنشئ حكماً بأنَّ الدابةَ أفضلُ من الإنسان، فتلك صفات عارضة، أو أن العهر أفضل من العفاف.

وعندما نرى المتديّن مفرّطاً في استكمال شُعب الإيمان وخلائق الاستقامة فالطريقُ الوحيدُ لتصحيح نفسه أن نشرحَ له أصول عقيدته وأهدافها وآثارها، وأن نُلزمه ما التزم من تكاليفها، وأن نقولَ له: «اتّقِ النارَ التي أعدت للكافرين» فلا تسر في نهجهم، ولا تلمَّ بأعمالهم حتى لا تنتهي إلى مصيرهم.

وقد ثار أخيراً لغطٌ حول الاستغناء بالفلسفة عن الدين ـ وهو في بلادنا الإسلام ـ. وعندما يتمخّض هذا اللغط عن النتيجة التي يرقبها المستعمرون، فمعنى هذا أن تذوي شعائر الإسلام، وينصرفُ المثقفون عن فرائضه ونوافله.

وقد قرأنا للأستاذ (العقاد) تفنيداً لهذه الوجهة، ورداً على مُثيرها الأستاذ محمود الشرقاوي. ننقله هنا:

وتلخص فكرة الأستاذ كما قال: «في أنَّ العقيدة إذا فُهمت وآمنَ بها صاحبها على أنّها شعائر تؤدّى، وصلوات تُقام، وأوامر وزواجر تُطاع بدافع الرغبة في الجزاء أو الخوف، ولم تُؤَدِّ بمن يعتقدها إلى الاستمساك بالفضيلة الذاتية، فهي عند ذلك مسخٌ للعقيدة لا خيرَ فيه، وخيرٌ من صاحبها مَن يشك ويجحد، ولكنّه صاحب خُلُق يصونه وضمير يهديه».

ونحن نترك للأستاذ الشرقاوي رأيه في المفاضلة بين دين بلا خُلُق، وخُلُق بلا دين، ولكننا نحسب أنه لا يستخف بشأن الشعائر لذاتها، لأنَّها ذات شأنٍ واضحٍ في كلّ فريضة اجتماعية تُقام بين جمهرة من الناس.

إنَّ الغايةَ من نظام الجندية ـ مثلاً ـ أداءُ الواجب في الدفاع عن البلاد، ولكن.. الشجاعة في الدفاع لا تُعفي الجندي من الحركات العسكرية، ولا من لوازم الكساء والغذاء ومواعيد العمل التي تدين بها الجيوش، ولا تجيزُ له

شجاعته أن يخرق (النظام) المتَّبع في الميدان أو في غير الميدان، ولو لم تكن ضرورة محتومة في جميع الأوقات.

ولا خلاف على ذم الرياء في العقيدة، فإنَّه من أوائل المنكرات التي تُنَبِّهُ إليها الأديان، ولكن هذا لا يمنع أن تكون للعقيدةِ ظواهر وبواطن وشعائر معلَنة ونيَّات مطوية، وإنما «الأعمال بالنيّات» كلمةٌ تجمع هذه المعاني كافة بغيرِ حاجةٍ إلى الجدل في المفاضلة بين ظواهر الشعائر وبواطن الإيمان . . . اهـ.

وهذا كلامٌ طيّبٌ جميل في تفسير وجوب الصلاة والصيام وغيرهما من سائر العبادات . . وضرورة أداء هذه المناسك في إخبات وتجرد لله رب العالمين.

والحقيقةُ أنّ الفروض اليومية والسنوية المنوطة بأعناق المؤمنين ليست أعمالاً تافهةً، أو حركاتٍ صماء قليلةِ الجدوى، إنَّها مدارجُ ارتقاءٍ بعيدِ المدى لمن يحسن معالجتها، ويتجاوب مع حقائقها، وهي ـ مع العوام السذّج ـ حصانات من شرور وآثام . .

وربما رُزِقَ بعضُ الناس شيئاً من الصفاء في معدنهم، أو الاستقامة في طريقتهم، وهم مجوسٌ، أو عُبّادُ وثن، أو مقدّسو بقرٍ.

فهل القليلُ من الجمال النفسي أو البدني عند هؤلاء يطعنُ في قيمة الكثير الذي فقدوه لتصحّ به أرواحهم وأفكارهم؟ .

إنَّ العبادات ليست حاجةَ الله إلى الناس، إنّما هي حاجةُ الناسِ ليتّصلوا بالحقائق العليا في نظامٍ له مقدّماته ونهاياته، ويستحيلُ أن يعوضَ عند فقدها شيءٌ.

إنَّ هناك حالة واحدة يمكن فيها الاستغناء بالفلسفة عن الدين . . وهي أن يثبت للناس عن طريق اليقين الجازم أنّ الله لا وجودَ له، وأنَّ أوامره ونواهيه خرافة، وأنّ انتظار لقائه والتأهّب لحسابه غرور . . وفي هذه الحالة وحدَها يكونُ الدينُ شيئاً لا معنى له، ولا خير فيه.

ولكنْ إذا كان اليقينُ الجازمُ هو العكسُ، وأنَّ اللهَ هو الحقّ المبين، وأنَّ الإلحاد مرض يعتري الإنسانية كما يعتري الرمد الأبصار، فكيف يتصوّر أنَّ الدينَ نافلةٌ، وأنَّ هناك عوضاً عنه فيما يصنع الناس لأنفسهم من فلسفات؟ .

ولو فرضنا جدلاً أنَّ الدين تقلّصت ظلاله عن الإنسانية فمن الذي يقول: إنَّ فلسفة الواجب والضمير هي التي ستحلّ محلّه؟ .

إنَّ الذي سيحلّ محلّه هو منطق اللذة الحيوانيـة، أو بتعبيرٍ أرقـى: منطق المصلحة العامة[1].

وفي دائرة اللذة العاجلة سترتوي الغرائزُ وتنتشي وتعربد.

وعندما يرتفع اسمُها، ويتحوّل من لذّة الفرد وحده إلى سعادة الجماعة جملةً، فلن تكون هذه السعادة ـ المزعومة ـ لأجناسٍ كلهم الأبيض والأسود، الغني والفقير، العالم والمتخلّف، كلا.. بل ستكونُ هذه السعادة حكراً لأحدِ الأجناسِ الغالبة، تُفسَّر لمصلحته فحسب، ويستوحي من دلالتها ما يشبع الأثرة والكبرياء..!.

إنَّ فلسفةَ الواجب والضمير إنما تنتعش وتجد لها أنصاراً في حماية المعاني الدينية ونضحها الواسع على الأفكار والمشاعر.

ولستُ أدري لحسابِ مَنْ يخاطب الخاصة والعامة بأنَّ الدين يجوزُ إهمالُ شأنِه وإرخاصُ تكاليفه؟.

إنَّ الدينَ في أوروبة وأمريكة قشورٌ لا تنفذُ إلى القلوب الذكية، وإذا استمسك بها أفراد، أو تراءت بها دول ففي أسلوب لا يرضى عنه ربّ العالمين، فهل طبع هذا الكلام في مصرَ كي تنتفعَ به هذه الدول؟.

والدين في بلادنا ـ وهو الإسلام ـ يعاني حرباً ضروساً من الجاهلين به، والكائدين لـه من أمته المفرِّطة، وأعدائه الحاقديـن الطامعين، فلمن يُوجَّـه الخطاب بأنَّ الفلسفة تغني عن الدين، ويقظة الضمير تغني عن تقوى الله ورعاية وجهه الكريم؟.

الحق يقال: إنَّ هذا الكلام ـ وعاه مرسِلوه أو لم يعوه ـ جزءٌ من الحملـة المدبَّرة ضدَّ الإسلام، كي يزداد الشباب الحائر حيرة، وكي تظلَّ الأجيال المضلَّلة عن إيمانها موغلةً في إضاعةِ الصلاةِ واتّباعِ الشهوات.

* * *

---

(١) وهذا ما جرى عندما ضعف أمر الدين حتى طغت المصلحة الخاصة على المصلحة العامة أيضاً (ن).

في عالم الملذات:

حبّ الدّنيا وكراهية الموت

من أخلاق الضعة التي رمانا بها الاستعمار قديماً، الشرهُ في طلب اللذائذ، والرغبة في الراحة دون عمل، ونيلُ المغنم القريب من غير مغرَمٍ يُبذَل، وقعودُ الهمم عن الآمال العراض والمطامح العظام، مع إدمانٍ غريبٍ للشهوات الدنيا، وتتبُّع للعـورات، وتصـوّر ظالم للمرأة، وأنواع المتع . . . إلى غير ذلك من ذرائـع الهزيمة، التي لا تتاح معها نهضةٌ، ولا ينجحُ في ظلالها سعيٌ . .

وفي مصر يسَّر الاحتلال البريطاني ـ للعوام والمثقفين على سـواء ـ أن يرتعوا في هذه الدنايا، وأن يحيوا داخل نطاقها، كما يحيا بعضُ الحيوان داخل القواقع . . فانتشرت الحانات في قرى الريف وأحياء المدن، وأبيح البغاء، والوقاع الجنسي الحيواني، واحمرّت الليالي أكثر العام بالسهر النجس، وألوان الإثم التي يفتنُّ فيها الفارغون . . وانضمَّ إلى ذلك ـ بل سبقَ ذلك ـ إخلاء الحياة العامة من رسالة تنتظم فيها المشاعر، وتجنَّدُ لها الجوارح، وينشغِلُ الجميعُ بأعبائها، يفرحون لما يصيبُها من نصر، ويكتئبون لما يلحقها من انهزام.

نعم . . سبقَ ذلك أن طمسَ الإضلالُ الأجنبيُّ معالمَ الدين الحقّ، وترك الناس يموجُ بعضهم في بعض.

أليس ذلك ما يبغيه، حتى يخلو له الجوُّ في البلاد التي افتتحها؟ فينهب من خيرها ما يشاء؟ .

ولن يكونَ أهلوها ـ وتلك حالهم ـ إلا أدوات في يده يستخدمُها متى يشاء، ويرميها أو يكسرها إذا أحبَّ.

لقد أصبحوا عبيدَ شهواتهم أولاً، وعبيده آخراً . . !!.

ويجب أن نُفرِّق بين تتبُّع الدنايا ـ كما تعلَّم كثيرٌ منا في مدرسة الاستعمار ـ وبين ما يقع في أوروبة وأمريكة من هذا القبيل . . . !.

إنَّ الغربيين أهلُ كدحٍ ولغوبٍ وراء معايشهم، وقد قدَّموا من التضحيات في خمسين سنة ما لا يعرَفُ لغيرِهم من أهل الأرض!!.

ولأضرب مثلاً بفرنسة، التي كنّا نهتفُ ضدّها في المظاهرات فنقول: فرنسة العاهرة..

هذه الأمة الفرنسيةُ دخلت حربين كبيرتين، خسرت فيهما ما لا يُحصى من العتاد والرجال، ومنذ انتهت الحرب العالمية الثانية، وهذه الأمة تشتبك في حروب متصلة من الهند الصينية إلى الجزائر، وميزانيتها مرهقة بنفقات هذه الحروب، وشبابها يحملون السلاح ويَرِدُون الغمرات، ومع أنَّ الحروب أشعلتها المطامع، واستدامها البغي والعدوان، فإنَّ الأمةَ الظالمةَ لم تئنَّ من سيلِ الدمِ المسفوكِ والمال المُراق.

والأمم التي تألفُ المصائب على هذا النحو، ربّما استباحت من المباهج والمرفّهات ما يخفف عنها شيئاً من ألم الكفاح الدائم..

وأنا أتصوّر الأحوال النفسية التي ينشد فيها الأشقياء والمعنُّون بعض ما يكسر سورة التعب حولهم.

وقد يطلب المقاتِل من هؤلاء ـ وهو ذاهب إلى الموت ـ أن يستمتعَ بالنساء قدر ما يستطيع.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن العمال والموظفين في أيام السلم يشتغلون ساعات أكثر مما يشتغله أمثالهم هنا في الشرق، ورغبتهم في الاستجمام والترفيه بعد هذه المتاعب قد تفهم، وإن ضلوا إليها سبل الحلال..

لكن الذي ما فهمته قط، ولا أفهمه أبداً، أن يجيءَ شعبٌ متراخٍ، موفور الدم، خفيف المناكب، فيطلب من الملذّات مثل أو أكثر مما يطلبه العانون المرهَقون...

إنَّ العربي في بطحاء مكة يريد أن يوفّر لنفسه من ألوان النعيم وصنوف المشتهيات ما لا نظير له في (نيويورك)، وما لم يطلبه لأنفسهم الرجال الذين فجّروا الذرّة!!.

سبحان الله ! ! .

قاعدٌ حافي القدمين، صِفْرُ العقل، لا همَّة له من الدنيا إلا أن يستجلبَ من اللذاذات، ويقتني من العمارات، ما لم يحلم به العباقرة الذين أنهكتهم الأفكار والأشغال ! ! .

إنَّ هذه الحال من عشق الدنيا أقوى ذرائع الفتك في كياننا المريض، وهي حالٌ يشجّعها الاستعمارُ الذي غزا الشرقَ بعقلية اللص ! ! .

فليس يهمّه إلا أن يعامِلَ مغفّلين ذوي شهوات نزقة ! ! .

أترى الاستعمار يألم لأن (الخديوي إسماعيل) أسس دار (الأوبرا) في القاهرة، وأنَّ تفكيره جرى إلى ذلك قبل أن يجري إلى تأسيس مصنع نافع؟ . . كلا ! .

إنَّه يهتمّ بمعاملةِ مثل هذا الحاكم، ويريد أن تسري روحُه إلى كلِّ فردٍ في الشعب ! ! .

بل إنَّه سلَّط سماسرته وزبانيته لدفع الشعوب العربية في هذه السبيل الوسخة .

وحالفَ في هذه السبيل الكتّاب والصحافيين والمبشّرين، كي يبنوا المجتمع الإسلامي على هذه الدعائم المنهارة، وكي يصوغوا أفكار الشباب وآماله، فإذا هي لا تعدو ذلك العبث الصبيانيّ في اصطياد امرأة وإجابة نزوة . . هذه هي الأهداف المعنوية التي يسعى الاستعمار لبثّها .

أمراضُ الرجولـة، وإسقاطُ مستواها، وإهاجةُ الغرائز السافلة، وتنميـةُ الحيوان الرابض في الدماء، وإضعاف الروح الإنسـاني المخنوق، وتمريـغُ الإسلام في الوحل إن هو همَّ بكلمةِ اعتراض، أو بدت عليه علامةُ امتعاض، وتجرؤ الأجراء من بنين وبنات على سلقه بلسان حاد . . كل ذلك جزءٌ من خطة الاستعمار لخلق أمة تلين في يده، وتخلو من أصحاب الأخلاق القوية والسيرة القويمة والهمم البعيدة .

وكثيراً ما أرمقُ الرجال والنساء في ميـادين القاهرة الكبرى، كما يـرمق

الطبيب أعراض مرضٍ انتشر في كلِّ فجّ، مرض اختفى من شرّه بقدر ما طفح من ضرّه، يحتاجُ علاجُه إلى جيشٍ من الأساة[1] قد يستعملون مباضعهم للبتر حتى يصونوا الحياة، ويقصّوا أسبابَ العلّة، ويفتحوا أبواب النجاة!!.

إنَّ انهيار الرجولة في الشرق الإسلامي أمامَ طوفان اللذة الحيوانية التي يبعثُ بها الغربُ، ويسخّرُ أدوات لا تُحصى في نشرها.

هذا الانهيار هو تأمين الحياة للاستعمار، وبذر الجراثيم التي تدعو للعودة إن هو ذهب، وما لم نستكبر على هذه الرغبات، ونطرحها وراء ظهورنا، ونتّبع في شأنها تعاليم ديننا؛ فلن تصحَّ لنا حياةٌ ولا حرية، ولن تسلمَ لنا كرامة أو عزّة..

والمعروف أنَّ الإسلام يجعل الرجال قوّامين على النساء، حتى جاء الاستعمار فزعم لنا أنّ الرجال والنساء سواء!!.

والله يعلم أنَّ هذه التسوية لم يقصَدْ بها تكريمُ المرأةِ ودعمُ جانبها، وإنَّما قصد استدراجها من حِصْنِها لمآرب شتى..

ليكن الأمرُ كما زعموا.. فما حدث؟.

إنَّ الرجل والمرأة ـ في دنيا الفرنجة ـ سواء في الظاهر، ولكن في كثير من الأحيان تبرز الفطرة الإنسانية، وتغلب تزويرات البشر، فإذا المرأة تتملّق الرجل، وتسيرُ وراءه، وتحرص على مرضاته إن كان زوجاً، وعلى خدمته إن كان أباً، وعلى تربيته إن كان ولداً..

أما في الشرق الذي أمرضه الاستعمار ـ أو على الأصح في البيئات التي خلفها هنا وهناك ـ فإنَّ الرجلَ ليس قوّاماً على المرأة، ولا مساوياً لها، إنّها هي القوّامة عليه، إنّه يتملّقها، ويطلبُ رضاها. ويلقنه (أهل الفن) أنواع الآهات، التي ترقق قلبَها لتسمحَ بنظرة، إنه يكاد يسرق ليعطيها، أو ليظهر في لباسٍ يسرّها.. إنّه تابعٌ لا متبوع، والرجل العبدُ في بيته لا يكونُ سيداً في وطنه.

وهذا الصنف من المخنّثين لا يصلحون ـ بداهة ـ لكفاح، ويستحيل أن يصنعوا مجداً..

---

(١) الأساة: الأطباء.

وهذا الصنف هو ـ للأسف ـ ثمرةُ الأقلامِ التي لا ينقطعُ لها توجيهٌ فاسدٌ في أغلب صحفنا.

ولعمري إنّ حملتها شرٌّ على البلاد من باعة الحشيش وبقية المخدّرات. . .

والرذائل في بلادٍ ارتفع مستواها المادي والعلمي تحتف بها أحوال مخففة، ويستخدم الرقي الثقافي في تخفيف وطأتها واستدراك آثارها.

أما في المجتمع المتخلّف، فإنَّ الرذائل الخلقية والجنسية تولّدُ مضاعفةَ السماجةِ والآثارِ، ومن ثَمَّ نرى الفرنجة يفارقون رذائلهم في شيء من الصمت، وفي صورة مخففة النُّكر.

أما الرعاع والمتعلمون في بلادنا، فلو رأيتَ نظراتهم الجائعة ومتابعتهم النساء بالغزل الرقيع، والألفاظ الخادشة، ما اقترحتَ علاجاً لهذه الأدواء إلا العصا التي تُذادُ بها الدواب!!.

إنَّ الخلاعة التي انتقلت إلينا من الغرب فتكت بنا أكثرَ مما فتكت به، لأن جرثومتها سرت دون مقاومة.

أما هم. . فلديهم شيء من المناعة أحدثها تقدّمهم الكبير في شتى الميادين، وكلُّ يومٍ يمر تزداد مقادير الخلاعة التي تزودنا بها مصادر التوجيه من صحافة وإذاعة ومسرح، في الوقت الذي تقلّ فيه أسباب المناعة العلمية والدينية.

ومن المؤسف كذلك أنّ روح التطلّع إلى اللذة رمتْ أفواجَ الموظفين وأمثالهم بالخمول والاستكانة، فهم يحبون المدن ويمقتون القرى.

لماذا؟ لأنّ القرى فقيرة في وسائل اللهو. . حلاله وحرامه، وهم لم يتعلّموا إلا ليكون لهم مستقبلٌ لاه لعوب، فإذا أقاموا في القرية كُرهاً، فليس للقيام بالرسالة النبيلة التي وُظِّفوا لها ومُنحوا المرتّبات لقاءها. . كلا!.

الطبيبُ يريدُ جمع المال، والمهندس الزراعي يرفض الذهاب للحقل. . وهكذا.

بينما نرى المغامرة خُلقاً ينضحُ به المجتمع الغربيُّ، ويجعلُ الهممَ تباعدُ بين أبنائه، فما تخلو منهم بقعةٌ خشنةٌ في أرضِ الله.

ألا فلنحذر على ديننا ودنيانا هذه الميوعةَ الخسيسةَ التي اعتلَّت بها أمتنا!.

ومتى اعتلَّت بها هذه الأمة؟.

في أحرج الفترات من تاريخها، وأشدِّ الأزمات إمساكاً بخناقها، في الأيام التي ينبغي أن يخشوشن فيها المنعَّم، وينتبه فيها الوسنان، ويخاطر فيها الحذر..

إنَّ معركة الإسلام مع الاستعمار لمّا تبدأ، وتوشِكُ أن تدور رحاها، ونطالب بأعبائها الثقال.. ولن يستطيعها المختالون في أزيائهم من الشبان الناعمين، ولا المشغوفون بلذاذاتهم من أشباه الرجال[١].

إنَّ الأجيال المنهزمة تلحقُها علةٌ واحدةٌ، ولذلك تلحظُ عليه أعراضاً متشابهة، وإن اختلف المكان والزمان.

في زحف الصليبية القديم على الشرق الإسلامي، أمكن المهاجمين أن ينفذوا أول الأمر إلى أحشاء الإسلام وصميم بلاده.

لماذا؟ لأنَّ القومَ شُغِلوا بالعيش الرخيّ، والقعود الليّن عن مغارم الكفاح المرّ، فكان أن ضربهم اللهُ بالذل، وسلّط عليهم الأعداء.

واسمع كيف يتحدَّث إليهم (أبو المظفر الأبيوردي) من قصيدةٍ طويلة:

فَـإيْهـاً بَنِـي الإسْـلام إنَّ وَرَاءَكُـمْ ... وَقَـائِـعُ يُلْحِقْـنَ الـذُّرا بـالمَنَـاسِـمِ
أَتَهْـوِيْمَـةٌ فـي ظِـلِّ أَمْـنٍ وَغِبْطَـةٍ ... وعَيْـشٌ كَنُـوَّارِ الخَميْلَـةِ نَـاعِـمِ؟
وَكَيْـفَ تَنَـامُ العَيْـنُ مِـلءَ جُفُـوْنِهَـا ... عَلَـى هَفَـواتٍ أَيْقَظَـتْ كُـلَّ نَـائِـمِ؟
وإخْوَانُكُمْ بالشَّامِ يُضْحِي مُقِيْلُهُم ... ظُهُوْرَ المُذَاكي أو بُطُونَ القَشَاعِمِ
تَسُـوْمُهُـمُ الـرُّوْمُ الهَـوَانَ وَأَنْتُـمُ ... تَجُرُّوْنَ ذَيْلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسَالِمِ
وكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أُبِيْحَتْ وَمِنْ دُمَى ... تُـوَارِي حَيَـاءً حُسْنَهَـا بـالمَعَـاصِـمِ
بحَيْثُ السُّيُوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبَا ... وَسُمْـرُ العَـوَالِـي دَامِيَـاتُ اللهـاذِمِ
وَبَيْنَ اخْتِلاسِ الطَّعْنِ والضَّرْبِ وِقْفَةٌ ... تَظَـلُّ لَهَـا الـوِلْـدَانُ شِيْـبَ القَـوَادِمِ
وتِلْكَ حُرُوْبٌ مَنْ يَغِبْ عَنْ غِمَارِها ... لِيَسْلَـمَ يَقْـرَعْ بَعْـدَهَـا سِـنَّ نَـادِمِ

---

(١) وها هي دارت، وهذه آثارها. (ن)

يَكَـــادُ لَهُـــنَّ المُسْتَجِـــنُّ بِطِيْبَـــةٍ ... يُنَـادي بِـأَعْلَـى صَـوْتِـهِ يـا لِهَـاشِـمِ
أرَى أُمَّتِـي لا يَشْـرَعُـوْنَ إلـى العِـدَا ... رِمَـاحَهُـمْ والـدِّيْـنُ واهِـي الـدَّعَـائِـمِ
وَيَجْتَنِبُـوْنَ النَّـارَ خَـوْفـاً مِـنَ الـرَّدَى ... ولا يَحْسِبُـوْنَ العَـارَ ضَـرْبَـةَ لازِمِ
أتَرْضَى صَنَادِيْدُ الأعَارِيبِ بالأَذَى ... وَيَقْضِي عَلَى ذَاكَ الكُمَاةُ الأعَاجِمِ؟
فَلَيْتَهُـمْ إذْ لَـمْ يَـذُوْدُوْا حَمِيَّـةً ... عَـنِ الـدِّيْـنِ ضَنُّـوْا غَيْـرَةً بـالمَحَـارِمِ
وإذْ زَهِدُوا في الأَجْرِ إذْ حَمِسَ الوَغَى ... فَهَـلاَّ أتَـوْهُ رَغْبَـةً فـي المَغَـانِـمِ
دَعَـوْنَـاكُـمُ والحَـرْبُ تَـرْنُـوْ مُلِحَّـةً ... إلَيْنَـا بِـألْحَـاظِ النُّسُـورِ القَشَـاعِـمِ
تُـرَاقِـبُ فِيْنَـا غَـارَةً عَـرَبِيَّـةً ... تُطِيْـلُ عَلَيْهَـا الـرُّومُ عَضَّ الأَبَـاهِـمِ

وأينَ أبو المظفر الآن يستحثُّ العزمات بمثل هذا الشعر؟ .

إنَّ هذا اللونَ من الكلامِ الجيّد والتوجيهِ الحقّ خَفَتَ وخرِسَ رجالُه، وقامَ نفرٌ من الصُّحفيين ـ لا بارك الله فيهم ـ يسخّرون أقلامَهم في ترويج الباطلِ وإهاجةِ الشهوات. . كسدت سوقُ الأدب الرفيع، والقراءةِ العالية، والأغراض النبيلة، وقامت مكانها سوقٌ للكتاباتِ الدّنسة، والأدبِ المفضوح، أو الأدب المكشوف كما يقولون، وصُرف الشبابُ صرفاً عن ميادين التربية الجادة، والتعاليم الصارمة، والحدود البيّنة ليفتحَ عينيه وأذنيه على ضربٍ من الكلامِ يتملّق نزواته، ويدفعها دفعاً إلى مغامرةٍ بعد أُخرى. . كأنّما أقلامُ هؤلاء الكُتّاب والمُحْدَثين أهويةٌ تمسُّ الشهوات الدنيا فتزيدُها وهجاً، وتملؤها ضراماً. .

هذه الأقلام الرقيعة لا تعرِفُ الشدةَ إلا في مجالٍ واحدٍ، هو يومَ تدخلُ مع الإسلام في عراكٍ، عندئذٍ تضرب بقسوة، لا تخافُ عُقبى، ولا ترهَبُ قصاصاً. أما هي من قبل ومن بعد، فسابحةٌ في بحرِها الرحب العميقِ، بحرِ الحبّ والغرامِ، وما يحويه هذا البحر من عُري وانطلاق. . .

ولا بأسَ من إثبات مثلٍ لهذا الأسلوب الجديد في توجيه الشباب، ولولا أني واثقٌ من حصانة قرّائي ما استبحتُ أن أثبتَ هذا اللغوَ الحرام، وهو من آثار الصحفي المعروف (إحسان عبد القدوس)[1].

والأستاذ (إحسان) تجدُ ـ أحياناً ـ في كتاباته السياسية والاجتماعية روحَ

---

(١) هذا العرض من كتاب (سقوط القاهرة) لعبد المنعم شميس.

شبابٍ متوثّبٍ، ولكنْ حينَ شاءَ أن يكتبَ أدباً قدَّم للناسِ كتابَ (صانعِ الحبّ) . . ثم كتابَ (بائع الحب) . . والكتاب الأخير هو موضوعُ حديثي معك، هذا الكتاب تقليدٌ لكتاب الأستاذ: (التابعي) . فـ(إحسان) يتحدّث أيضاً عن نساء عرفهنَّ في مصر وفي أوروبة، وصوّر مغامراته معهنّ تصويراً أكثر وضوحاً من تصوير أستاذه التابعي . .

استمع إليه يقول: «وكانت شفتاها تترنحان، وتركتْ نفسَها له . . وتركته يلصِقُ خدَّها بخدّه، يصهرُ جيدَها بأنفاسِه، ويزحفُ بشفتيه ليلقي بقبلاتٍ صامتةٍ في أذنيها، ويضغطها إلى صدرِه حتى لم يعد يفصِلُ بينهما سوى خيط أرقّ من الشعرة» .

ويستمرّ الكاتب في وصف المغامرة قائلاً: «وغابا في قبلة . . ولم تكن قبلةً ناعمةً، بل قبلةَ امرأةٍ في الخامسة والثلاثين، فقدت العقلَ، ونسيت الزوجَ والولدَ، ونسيت المركزَ، ونسيت تقاليدَ عائلةٍ عريقةٍ .

نسيتْ أو تناستْ كلَّ ذلك، وتركتْ نفسَها تفرّجُ عن الكبتِ الذي طالَ أمدُه، وتنفّس عن الجسدِ الذي طالَ حرمانُه، وتهب ساعةً للدنيا بعد أن عاشتْ عمرها للسماء» .

ولعلّك قد أدركتَ أنَّ الكاتب يصوّر لك مغامرةً مع امرأةٍ متزوّجة، ولها ولد في التاسعة من عمره . . يرى أمّه تسقطُ في أحضان الرجل الغريب . .

وهذه الأم تقول على لسان الكاتب: «لقد لمحنا ابنُ صديقتي صباحَ أمس وأنا أقبّلك في الزورق، فأسرع إليه وقال له: إلحق . . إنّ أمك ستتزوَّج المصري، فقد رأيتهما في زورقٍ ورأيتُها تُقبّله»! .

في هذا التصوير كلّه أراد الكاتبُ أن يطلعَكَ على حياةِ امرأةٍ عشقَها تحت سمع ولدِها الذي عذّبته الغَيرة، وهو يعرض عليك ألواناً من المغامرة في منتصف الليل وفي النهار، وفي الحدائق والزوارق، ثم يتركها أخيراً للسقوط والانحلال .

وهناك امرأة أخرى يعرضُها عليك الكاتب . . امرأة تقول: «لا تحاول أن تكون إنساناً، إنّك حيوانٌ . . كلُّنا حيوانات . . ومن حقك أن تطالب بحقوق الحيوان، ولكنك حيوانٌ جميل . إنّك تعجبني، هل تعلم ذلك؟ . . هيا بنا . .

غرفتك أم غرفتي»؟!.

وهو يلقي عليك درساً في فنّ إيقاع الفتيات على طريقة أستاذه التابعي فيقول لك: «وفي المساء تستطيعُ أن تجلسَ في قهوة (جامبرنيوس) لتسمعَ إلى أقوى (كونسرنو) في قهاوي إيطالية حتى اليوم..

وبين ألحان (فيردي) و(شوبان) و(تشايكوفسكي) تستطيع أن تلتفت إلى جارتك وتبادلها التحية، وأن تبدي رأيك في عازف الكمان، وفي قارع الطبل، وتثني على الموسيقار (فيردي) الذي وضع لحن السلام الملكي المصري.. وبعد هذا أنت وشطارتك»!!.

وهو لا يكفُّ أيضاً عن وصف النساء في مباذلهن.. «كانت مرتديةً قميصَ نوم، فاضحاً عن جسدها البريء، وهو قميص نومِ أختِها الكبرى. وكانت مُسْدِلةً شعرها فوق عينيها في فوضى مثيرة، وكانت عارية القدمين، وبين يديها زهرةً بيضاء!.

وأغلقت الباب وراءَها، وأسندت ظهرَها إليه، وقد انفرجَتْ شفتاها عن دعوةٍ صامتةٍ مكبوتة».

وهو يصوّر لك ألواناً من شذوذ النساء، فهذه المرأة.. «ركلت الملايين، وركلت اليخت، وركلت أمريكة، واكتفت بأن تجلس كلّ مساء في مقهى (دي بونت) بين فريق من زنوج السنغال، وتختار من بينهم كل ليلة زنجياً!.

وليست حسناء اليابان وحدها هي التي تفضّل زنوج السنغال بوجوههم الكالحة المغبرّة، وشفاههم الغليظة المشوّهة..

فالزنوج قد أصبحوا (مودة) في باريس، محبوبو الحي اللاتيني، كلُّهم زنوج، ومواكب العشّاق كلها (أبيض وأسود).

ومن النادر أن تجدَ زوجين من البيض أو زوجين من السود».

هذا الصنفُ من النساء الساقطات في مهاوي الرذيلة، ليسَ غريباً أن تقولَ واحدةٌ منهنّ على لسان المؤلف: «لا تكن عنيداً.. ما هو الزواج؟ لا شيء.. ورقة بلهاء تستطيع أن تمزّقها متى شئتَ، ولكنّها ورقة تجعل لها الحكومات قيمة، لأنّها حكومات بلهاء أيضاً. وبهذه الورقة أستطيع أن أدخل مصر، وأن أقيمَ

فيها وأن أعمل في مسارحها».

ثم يقول أيضاً: «إذن فقد أصبحَ لك حقّ ارتفاق كل جسدي، حق المرور حتى تصل إلى أملاكك في قلبي هل نسيت القانون؟!.

وابتسمت، ولكنّه لم يبتسم، وحاول أن يستمرّ في جدله.

وتركتْه يتكلّم دون أن تستمعَ له، ثم لفَّتْ ذراعيها حول عنقه، وهوت على شفتيه بشفتيها!!.

وحاول أن يقاوم نفسه، ولكنّه لم يستطع، فشرب من شفتيها حتى ارتوى، ثم طاف بوجهها وعنقها وصدرها وذراعيها يُقبِّل كلَّ قطعة فيها، ويملأ أنفه بعبير أنوثتها، ويفرّجُ عن الكبتِ العنيف الذي عرفه منذ عرفها».

وبعد هذه النماذج التي عرضتها عليك من كتاب (بائع الحب) تستطيع أن تدرك ـ في يسر ـ أنّ مدرسةَ (التابعي) و(إحسان) قد آتت أكلها، وأثمرت ثمراتها المرجوة في المجتمع المصري.

* * *

ما هذا الأكل؟ وما هذه الثمرة؟.

انحلال أمة، وفساد دين، وضيعةُ مستقبل، ومحو تاريخ!!.

ذلك ما تستهدفه عصابةٌ ضخمةٌ من حملةِ الأقلام في القاهرة.

هذا اللونُ من الكتابات السافلةِ! هو أحسنُ ما يتقنُه أولئك الصحفيون الشرفاء!!.

وهو الغذاءُ الذي يقدّمونه للأجيال الجديدة.

الأجيال المكلَّفة بحرب إسرائيل!!.

وهو غذاءٌ يصنعُ البطولةَ التي ترفعُ اليدين والساقين في أول لقاء..!!.

* * *

في عالم الملذّات:

الإذاعة والفن

أصحبت الإذاعةُ العامّة جهازاً من أخطر أجهزة الدولة وأحقّها بالدعم، وأولاها بالرعاية والرقابة . .

إنَّ (الراديو) شيءٌ بعيدُ الأثرِ في حياتنا، وصوتُه الهادِرُ يغزو الآذانَ طوعاً، أوكرهاً، والكلمات المنبعثة منه تسمعها في البيت، وفي الطريق، ويسمعها أولادك جميعاً على اختلاف أعمارهم.

ولمسة ساحرة لهذه الآلة العجيبة تجعلُ بين يديك مزيجاً هائلاً من أفكار الناس ومشاعرهم.

لا في صحائف ميتة بل في حركة تنبض بالحياة والشعور، ومع أشخاصٍ تحسّ كأنّك معهم في مدرسةِ علمٍ أو مجلس سمر!.

* * *

تعتمد برامج الإذاعات المختلفة في تكوين مادتها وتخطيط غايتها على العنصرين الآتيين:

١ ـ التثقيف والتربية.

٢ ـ الترفيه والتسلية.

وتشملُ برامج التثقيف جملةَ الدروسِ والمحاضرات والقراءاتِ والنشرات الإخبارية والأركان المهنية والطائفية . . . إلخ.

وتشمل برامج الترفيه جملةَ الأغاني والتمثيليات والموسيقا والحفلات، وأنواع اللهو الأخرى.

وبرامجُ التثقيف ـ في نظرنا ـ فقيرةٌ مهوشةٌ، لا تقومُ على خطة مرسومة، بل هي ـ من ناحية كيانِها المادي ـ أشبه بلقيمات من الخبز الجاف، تقدَّم إلى مريض

منـزوف الدم، ضائع العافيـة، يحتاجُ إلى أرطالِ اللحمِ والشـحمِ والخضـرِ والفاكهةِ.

إنَّ أمتنا تريدُ أن تعود سيرتها الأولى.

تريد أن تستعيدَ أمجادَها القديمة، تريد أن تُعرَف بين الناس بحضارتها المتميزة، وملامحها الخاصة.

تريد أن تنتفض من الرقاد الطويل، الذي خدّرَ أطرافها، وأطمع الغزاة عصراً طويلاً أن يجوروا عليها، وينالوا منها.

ومن الممكن أن تكونَ الإذاعةُ أداةً ضخمةً في هذه السبيل، وأن يكونَ صوتُها الجهير في الصباح والمساء موجّهاً بعيدَ الأصداء، يحدو القافلةَ السائرة ويقيمها على الصراط المستقيم.

ولا بدّ أن يتّصل العمل على توضيح روحِ النهضة الجديدةِ لكي تمدَّ الأمةَ بما يرفع مستواها الفكري والعاطفي.

وفي طليعة البرامج التي تحقِّق ذلك:

١ ـ تجلية تاريخنا القديم، وعرض صفحاته الحافلة بالكفاح، عرضاً يستهدفُ إحياءَ الحاضر، وحلّ مشكلاته بهداية من عظات الماضي.

٢ ـ نفخ روح الحياة في التراث العربي القديم، والحفاوة بآثار الشعراء والكتّاب الأولين، وغرس القداسة في نفوس النشء نحو اللغة العربية وآدابها.

٣ ـ تربية الأخلاق الشخصية، وترقية التقاليد العامة، والاستعانة بتعاليم الدين وأنـواع الآداب والفلسـفات المتّسـقة معه لخلق أجيالٍ زاكية القلـوب والسلوك، رفيعة السيرة.

٤ ـ ربطُ الحياة العامة بالدين عن طريق دروس أملأ بالعلمِ، وأدنى إلى الجد، والعناية بالذكريات، والحفلات الدينية، بحيث تتكوّن في النفوس عواطف الإجلال للدين والوقوف عند حدوده والمبادرة إلى تلبيته.

٥ ـ ملاحظة تيّار المدنية الزاحف من ميادين الصناعة والتجارة والزراعة وسائر فروع النشاط الإنساني، وإطلاعُ الجماهير بشتّى الوسائل على صور هذا

التقدّم وقيادتها بقوة حتى لا تتخلّف عنه.

* * *

ويتبع ذلك ـ بداهة ـ منع أي برنامج يصرِف النفوس عن الأهداف السابقة، أو يقلل من التعلّق بها والإفادة منها.

ولسنا نرمي إلى جعل الإذاعة معاهد فنية تُقحِم نفسها في بحوث بعيدة الصلة عن طبيعتها، بل نريدُ أن تتحوَّل الإذاعةُ إلى قوة بناءة، تؤدّي لهذه الأمم مثل ما تؤدّيه إذاعاتٌ كثيرة في الأمم الأخرى.

والعلم ـ في معاهده الخاصة ـ يدرّس بأسلوب فني معروف، وحين يوجَّه إلى الجماهير يتّخذ طرائقَ ميسرة، ويقدّم منه ما يرفع المستوى العام فحسب.

* * *

وننتقل إلى برامج الترفيه والتسلية.

وهي قسمٌ كبيرٌ من رسالة الإذاعة.

أو هي ـ الآن ـ القسم الأكبر الذي تنصرف إليه الجهود، ويتعلّق به العوام والفارغون..

إن الترويح عن القلوب أمرٌ لا بدّ منه[1]، ومن المستحيل أخذُ النفوس بالجدّ على اطّراد الزمن وتوالي الأيام، والإنسان محتاجٌ إلى ما يجدّد مشاعرَه، وينفي عنه الملل والسآمة، ويبعثه على العمل بين الحين والحين، كما ينبعث إليه المستيقظ بعد ليلٍ هادئ، ونومٍ مريح..

وفي فترات الاستجمام ما يوفّر على الإنسان هذا الحظّ المرغوب، وكذلك في عدد من الفنون التي تتجاوب مع نفسه، ويشعر في ظلالها بالرضا والنعيم.

وألحان الموسيقى، وأصوات الغناء، لها هيمنة غريبة على الأعصاب، وأغلب المرهقين حين ينصتون إليها يحسّون بالراحة، ويتخفّفون من أعباء ثقال، ونحنُ لا نتجاهلُ حقيقةَ الإنسان، ولا طبيعةَ حياته، إنّه عقلٌ وعاطفة، وللعاطفة دخلٌ هائلٌ في نشاطه وتراخيه، في تفاؤله وتشاؤمه، وفي كثرة إنتاجه وقلته، ثم

---

(١) ضمن حدود المباح، وألا يتعارض مع الفطرة الإنسانية. (ن)

إننا لا نريد أن نحجر واسعاً، ولا أن نصوّر النفس الإنسانية على غير ما خلقها الله.

إنَّ الزعمَ بأنَّ أحاديث (الحب) أو العاطفة الجنسية هي الشيء الوحيد الذي يطرب له الإنسان، ويستجمّ في كنفه كلامٌ فارغ، أو هو ـ بالتعبير الدقيق ـ كلامٌ ساقط، فالإنسانُ أرفع قدراً من ذلك، وأقطارُ قلبه أوسعُ، وآفاقُ عواطفه أرحب..

والخطأ الكبير أو الخطيئة الكبيرة التي ارتكبها رجال الإذاعة أنَّه ظنُّوا العاطفة لا تعدو الحب، وأنَّ الغناء لا يعدو الغزل، ومن ثم تنحصِرُ الجمهرةُ الكبرى من أغانينا داخل النطاق الضيق الصغير.

إنَّ الآداب والفنون من أجلِّ وجوه النشاط الإنساني، والمشتغلين بها يستحيلُ أن ينجحوا في عملهم أو يصلوا إلى شيء ذي طائل ما لم يكونوا على قَدْرٍ كبيرٍ من خصب الشعور، وعظم الطاقة، وسعة الذكاء...

إنَّ الفاقهين في شؤون العاطفة الإنسانية، والخبراء بتحريكها وتطمينها، ليسوا أناساً عاديين، إنَّما هم رجالٌ في قمّة البشرية، رجالٌ لهم قلوبٌ أرقُّ حسّاً، وأزكى معدناً، وأنبلُ اتّجاهاً، وأبينُ إيثاراً من سائر الخلق.

فإذا قارنتَ بين هذه المُثُل، وبين أهل الفن عندنا انتقلتَ من القمّة إلى الهاوية، انتقلتَ من الإنسانية العالية إلى الحيوانية التي تتقلّب في حمأ الشهوات.

ودائرةُ الفنِّ ـ عندنا ـ تكادُ تكونُ مغلقةً على هذا الصنف من الناس...

الصنف الذي يجهلُ ربّه، لأنّ أصل الإيمانِ مبتوتٌ من فؤاده، فهو ـ بداهةً ـ لا يعرف إليه طريقاً من عبادة أو بر، وهو يشرب الخمر كما يشرب الماء، وهو ينظر إلى النساء نظرةَ السوائمِ إلى الكلأ المباح، وبتلك المشاعر يغنِّي، ويتأوَّه، ويسلّي الجماهير، نعم.. هو يرقق عاطفتها باسم (الفن).

فإذا كانت برامج التثقيف كما رأيتَ، نفعُها قليل، ولغوها كثير، وإذا كانت برامج الترفيه كما رأيتَ تعتمد في كلماتها وتلحينها وأدائها على هذا النفرِ من الناس، الذين يُسَمَّون (فنانين) وهم عُبَّاد شهوات، وأحلاسُ معصية، فماذا تكون النتيجة؟ النتيجة أنَّ الأمّةَ تسمع ما يضرُّها ولا ينفعُها في أغلب الأحيان.

وهذا داءٌ عزَّ على الأُساة.

* * *

وقد ترادفت صرخاتُ المحذِّرين من سقوط الفن وفساد بيئته، وصوَّرت حريقَ الغرائز التي تستعرُ في أجسادِ زبانيته، ثم ينتقلُ لهيبُها إلى كيانِ المجتمع، فلا تدعُ فيه فضيلة ولا عِفّة ولا حزماً.

ولأنقل هنا كلام الأستاذ (عبد المنعم شميس) مدير المطبوعات في الإقليم المصري. قال: «ويُخيَّلُ إليّ أنَّ مؤلفي بعضِ الأُغنياتِ يكونونَ في حالةِ غيبوبةٍ عقليةٍ وتخديرٍ جنسي.. حين يكتبون أغنياتهم لتتوافقَ مع حركاتٍ صوتيةٍ معيَّنة، تقوم بها النساء المغنّيات، لبعث النشوة الجنسية في السامعين.

لقد سمعتُ مرّةً أنَّ مؤلِّفاً معروفاً أقسمَ بالطلاقِ أنَّه لن يُغيِّر لفظةً رأى الملحنُ أنّها تبعثُ في الدماء قدراً أكبر مما يُراد من النزوات، وأصرَّ المؤلّف على رأيه، وأُعجبت المغنيةُ باللفظ المثير الثائر، فاصطنعت للأغنية كلِّها ما أراده المؤلّف لها من ميوعةٍ محترقةٍ والهة.

إنَّ أنجح المؤلّفين هم القادرون على بعثِ أكبر قَدْر من التخدير في ألفاظهم، وأكثرُ الملحّنين عبقريةً أقدرُهم على توفيقِ الأنغام المتّسقة مع هذا التخدير.

أمّا المغنّيات فهنَّ مُسَيَّرات لا مُخيَّرات، لأنَّهنَّ ـ في الغالب ـ يسيطرُ عليهنّ رجالٌ يرونَ أنْ تتمايعَ المغنّية، وتتأوّه، وتتخاذل حتى تصلَ إلى درجةٍ من فقدان الحسّ، تنسى ـ بعدها ـ أنَّ الجماهير تتخيّلها معها في صورةٍ معيّنة.

والإذاعةُ ـ في ذاتها ـ لا تسيرُ على خُطَّةٍ واضحةٍ في اختيار أغنياتها، ولكنَّها تخضعُ للآراء الشخصية الفجّة، والأهواء الذاتية المتناقضة.

ويبدو أنَّ المسؤولين فيها يحسُّون بالحرية الكاملة في تخدير الشعب.

لقد سمعتُ مرَّةً أحدَ المسؤولين السابقين في الإذاعة يقولُ لملحنٍ معروفٍ يعملُ مع إحدى المغنيات، (ألفاظاً بذيئة يعاقِبُ عليها القانون)، وكان هذا المسؤول يضحكُ ملءَ فيه، لأنَّه يعتقد ـ فيما يبدو ـ أنَّ الفنَّ لا يكونُ إلا رقاعةً، بل إنني رأيتُ بعينيّ كثيرين من المطربين، وكثيرات من المغنيات، يشربون الخمر قبل أن يوضع الميكرفون أمام أفواههم، وهم يفعلون ذلك حتى ينسوا أنفسَهم أثناء الغناء، وحتى يتَّخذوا من التخدير الكحولي وسيلةً إلى الميوعة الذاتية.

إنَّ الظمأ الجنسيَّ يسيطرُ على أغلب المطربين والمطربات، وهم يوقفون أحيانـاً عند حدٍّ لا يتعدَّونـه إذا كانت الأغنيـة قد سـبقت الموافقـة عليها من المسؤولين في الإذاعة، أما في الحفلات الخارجية الحُرَّة، فإنَّه يحدث كثيراً أن يضطرَّ المذيعُ إلى إغلاق (الميكرفون) حتى لا تصلَ أصوات الفضيحة إلى آذان المستمعين في لحظاتِ انسجامِ المغني أو المغنية مع الجمهور.

ثم يقول: الأفلام السينمائية ـ في جملتها ـ ترمي إلى شيءٍ واحدٍ، هو إبراز الأنوثة العارمة الطاغية، وترمي إلى إظهار المفاتن الجسدية عند النساء بكافّة الطرق الفنية الممكنة، فالقصة لا يهمُّ موضوعها أو مغزاها، والهدف الفنيّ من القصة لا يُرجى عند صُنَّاع الأفلام، والتعبير الصادق عن حيوات الأشخاص لا شأن لهم به، إنَّما يهمّهم ـ أولاً وأخيراً ـ أن يحفلَ الفيلمُ بالراقصات المتفنّنات في التثنّي، البارعات في إظهار أفخاذهنّ وبطونهنّ وأردافهنّ ونهودهنّ، وأن يحفلَ أيضاً بالفتيات الجميلات في أوضاعٍ شتَّى تُظهر فتنتهن.

ثم يبقى بعد ذلك الغناء.

وفي مثل هذا الجوّ الصارخ المليء بأكوام اللحوم النسائية لا يجوزُ أن يكونَ الغناء إلا تهافتاً مائعاً، وتخاذلاً منسـجماً مع تلك الرقصـات، وتلـك الإيماءات، وتلك اللفتات، التي تنبض كلّها بالإغراء.

ومهما تكن ألفاظُ الغناءِ مهذَّبةً، فإنَّ طرق الأداء لا بدّ من انسجامها مع الجو العام للفيلم.

حدَّثني أحدُ الخرِّيجين ذات مرّة عن هذا اللون من الفن السينمائي فقال ـ في حِدَّةٍ وغضب: اذهب إلى دور السينما من الدرجة الثالثة، وتتبّع الفتيان المراهقين في أوائل الصفوف، وانظر ماذا يفعلون؟!!.

لقد سكت، ولم أستطع السير معه في حديثي، لأنني فهمتُ كيفَ يؤثّر تثنّي راقصةٍ وتمايع مغنية في شاب يعاني الحرمان الجنسي.

أجسامٌ شبه عارية ملتهبة، عارمة الأنوثة، وعيون متكسّرة فاترة، وحركات تهزّ اللين من أجزاء الجسد البض.

هذه الأنثى التي تُغنِّي، لو أنها سـكتت لأثارت، ولـو أنّها قـالت حِكماً

وأمثالاً لهزَّت مشاعر الفتيان، فكيفَ بها إذا تحدَّثت عن الحبيب الهاجر والعاشق القاسي؟ .

ورغم هذا كلّه تُصرِّحُ الدولة بهذا الخزي ليُعرَض على الجماهير المحرومة، بل تُصرِّح به للمراهقين والمراهقات من . . فتياننا وفتياتنا! .

إنَّها فضيحةٌ تُعمَلُ باسم القانون، وجريمة تُرتكَب علناً في أماكن عامة تحتَ سمع الحكومة وبصرها .

وهذا الغناء الذي يخرجُ من هذه الأفلام تتلقفه الإذاعة سريعاً لتملأَ به جوَّ البلاد ميوعةً وخنوثةً وتدهوراً وانحلالاً .

أما (الصالات) و(الكابريهات) فإنّها شيءٌ آخر . . شيءٌ يستحقُّ الهدم والإزالة .

والغريبُ أنَّ هذه (الصالات) و(الكابريهات) خاضعةٌ لسيطرةِ الدولة، لا يُقال فيها حرفٌ بغير موافقة الرقابة .

ويسعى المفتشون ورجال بوليس الآداب لمنع ما قد يحدثُ فيها من مخالفة للآداب العامة .

* * *

يُقال : إنَّ في الإذاعة عباقرة يضعون البرامج الأسبوعية، ويرتبونها ترتيباً لا يستطيعُ إنسان نقضه، وهؤلاء العباقرة يضعون جداولهم وفق المواد التي أعدَّها لهم عباقرة آخرون اختاروا كلَّ ما يجب أن يُذاع .

وأنا لا أسخر من قصة العبقرية في الإذاعة، فقد قال بها رجل عظيم يحمل إجازة الدكتوراه، وكان يشغل أكبر منصب علمي في مصر، ويحمل الباشوية أيضاً. هذا العظيم يقول : إنَّ الذين يُقدّمون هذه الإذاعات المضطربة الحائرة إلى الشعب عباقرة، ولكنّي لم أسمعْ بعدُ أنَّ واحداً من هؤلاء العباقرة استطاع أن يُثبتَ عبقريتَه بعملٍ واحدٍ نافعٍ أو ناجح. ويزعمُ العباقرة أنّهم يُقدّمون للناس أحسن ما يُقدَّم إليهم من فنٍّ وثقافةٍ، وأنَّهم غيرُ مسؤولين بعد ذلك عن شيء .

فماذا قدَّم حضراتُ العباقرة للشعب؟ .

وماذا يريدون أن يفعلوا بالشعب، الذي يدفعُ لهم أجورَهم مِنْ عرق الجبين؟ .

وأحبُّ ـ قبلَ أن أمضيَ معك في حديثٍ هذه الإذاعة وهؤلاء العباقرة ـ أن أطلعَك على أساسٍ واحدٍ ضخمٍ أقيمَ عليه هذا المرفق الثقافي الشعبي في مصر .

لقد كانت الإذاعة إلى عهدٍ قريبٍ في أيدي (الإنكليز الحمر) الذين جمعوا حولهم أفراداً شُذاذاً من (الإنكليز السُّمر) لإشاعة الفساد في مصر، وقتل مظاهر الحيوية فيها، وظلَّت هذه الرواسب المعلولة تعمل في الإذاعة على الأسس الاستعمارية التي رسمها الإنكليز، وبقي أفرادٌ شُذَّاذٌ يدينون بالولاء لسادتهم الأقدمين فكراً وشعوراً، هؤلاء الأفراد نمَّاهم الإنكليز على فتات مائدة الاستعمار، ونفخوا في أرواحهم الذليلة حتى أشعروهم ـ عن غير قصد ـ بأنَّهم أشخاصٌ يستحقُّون الحياة، ويستحقّون المجد .

وكبر هؤلاء الأفراد في أعين الناس، وأصبحَ الواحد منهم يظنُّ أنَّ العبقريةَ الفذّة هي التي وصلت به إلى المنصب الخطير .

منهم مَنْ كان كاتباً صغيراً، لا تُحسِنُ أناملُه تحريكَ مفاتيح آلة الكتابة، ومنهم مَن كان ساعياً يحمل الأوراق من غرفة إلى أخرى، ومنهم مَن كان غلاماً تلقَّى الرطانة عن (سيد أحمر) فجرتْ على لسانِه كلماتٌ إنكليزية حملته على التعالي والتعاظم، ومنهم مَن لا يُحسِنُ علماً أو ثقافة، ولكنّه أصبحَ ـ بين عشيّة أو ضحاها ـ رجلاً خطيراً، تُرجى شفاعته .

وجاء الخطر الداهم، خطرُ النفاق الذليل، والرغبة العاجلة في المال، فأحسَّ هؤلاء الفتيان أنَّ كبار رجال الفكر يرجونهم، ويتقدَّمون إليهم، فأحسُّوا بأهميتهم في الحياة . وزاد غرورهم .

شهدتُ مرَّةً رجلاً عظيماً تولَّى كبار المناصب، وبلغَ الذروةَ شُهرةً ومجداً، يتزلَّفُ إلى واحدٍ من هؤلاء الفتيان، ليمنحه الفرصة السانحة التي تضعُ في يده جنيهات قليلة يتقاضاها على حديثٍ يُذاع، وخرجتُ إلى الطريق مهرولاً، أبحثُ في وجوه الناس عن الكرامة وعفّة النفس وتقدير الفن، وخُيِّلَ إليَّ بعد ما شاهدتُ من أمر هذا الرجل العظيم أنَّ الكرامةَ في مصر لا يحسُّ بوجودِها إلا هؤلاء

المساكين، الذين يقتلُهم الفقر، وتذيب نفوسَهم الحاجةُ، ولكنّهم لا يتذلّلون ولا ينافقون.

* * *

وقد أثَّر الفنُّ المريضُ على الفتيان آثاراً خطيرةً، وخلقَ في نفوسهم الغضّة الطرية كلَّ نوازع الشر.

إنَّ المواقف الغرامية المثيرة التي يراها الفتيانُ على الشاشة الفضية يسعون إلى تمثيلها في واقع الحياة، والأغاني المبتذلة الفاجرة يردّدونها استهواءً للفتيات، وآثار الحفلات الداعرة والصور العارية، والرقص الخليع ترسبُ كلُّها في أعماقِ هؤلاء الفتيان، وتجذبُهم نحو البحث عن اللَّذات الشهوية من أي طريق.

وقد نشرت الصحفُ أخيراً أنَّ بعضَ الغلمانِ يُقلِّدون مجرمي (شيكاغو) في ارتكاب الجرائم، هؤلاء الغلمان يركبون سيارة أجرة في الإسكندرية، ثم يسرقون من سائقها كل نقوده، ثم يقومون بحادثٍ آخر في الساعة الثانية صباحاً مع سائق سيارة أخرى.. يتركُ لهم سيارته ويهرب، ثم يجري خلفَهم رجالُ البوليس، فيحاول أحدُهم إطلاقَ النار من مسدسٍ كان معه، ولكنّ الرصاصة لا تنطلق، وحين يُسْأَل هؤلاء الفتيان عن السبب الذي دفعهم إلى ارتكاب هذا النوع من الجرائم يقولون: إنَّهم يقلّدون الأفلام السينمائية التي يشاهدونها.

وفي مثل هذه الحادثة تستطيعُ أن تُدرك ـ في وضوحٍ ـ الأثرَ الذي تتركه هذه الفنون المريضة في نفوس الناس، وتُدركُ أننا لم نكن هازلين حين قدَّمنا لك هذه الصفحات، لترى فيها صورة من صور الانحلال والتدهور والسقوط».

نشرت (الجمهورية) في العدد (١٧٢٦) تحت عنوان (حاربوا الجريمة ولا تنشروها) كلاماً حسناً نلخّصه فيما يلي: في كلّ شهرٍ قصةٌ صاخبةُ الحركات، شائقةُ الوقفات، تفتعلها الإذاعة، وتقدّمها للناس.

نعم.. لقد أصبحتْ الحلقاتُ التمثيليةُ المسلسلةُ التي تقدّمها الإذاعةُ لمستمعيها كل يوم.. وفي ميعادٍ معيّنٍ شيئاً رتيباً أشبهَ بالوضع الذي يظلّ قائماً، ولو تغيَّر الموظّفون، وقد وجدتْ هذه الرواياتُ العجيبةُ رواجاً كبيراً بين المستمعين، مما جعل المسؤولين في الإذاعة يثبتونها كركنٍ دائم.

فما هي القيمةُ الحقيقيةُ لهذا البرنامج الغريب؟ .

الواقع أنَّ هذه التمثيليات خواءٌ من كلّ معنًى جاد، ومن وجهة سامية.

هذه التمثيليات يربطُ بعضَها بالبعضِ الآخر - مع اختلاف ألوانها - شَبَهٌ قائمٌ، وينتظمُها - مع تعدُّد موضوعاتها - خيطٌ رفيعٌ.

إنَّها جميعاً تعتمِدُ على اللَّغو الموصول، وتسميمِ المشاعرِ والأفكارِ، وللإصرارِ على تسليةِ الجمهور، بهذا الأسلوب المدخول دلالته المريبة، إنَّه يدلُّ على إصرارٍ متعمَّدٍ، تسانِده فكرةٌ ثابتةٌ لدى المشرفين المسؤولين، وإلا فما معنى اختيار التمثيليات ذات الطابع المثير، التمثيليات التي تستعرض الجريمة وظروفها، وتنشر حول فصولها جوّاً من الرعب والإرهاب؟ .

كما تصوِّر للمستمعين حِيَلَ المجرم للتخلّص من معالم الجريمة. . . إلخ.

إنَّ هذا هو ما تفعله الإذاعةُ حين تُروِّجُ لمثل تلك التمثيليات التي يستمع إليها أفرادُ العائلة في كلِّ منزل، وفي مقدّمتهم الأطفال، أولئك الأبرياء الذين يسألون آباءهم وأمهاتهم - في دهشةٍ - عن الكلمات الغامضة - بالنسبة لهم - كالحشيش مثلاً، وهل فعلاً هو ذلك النوع الذي تأكلُه الأرانب؟ .

وإذا كنّا نعلمُ عن طريق الإحصاءات العلمية أنَّ للأفلام الإجرامية التي يشاهدُها الأطفال والمراهقون في السينما أثراً كبيراً على نفوسِهم، وأنَّها تسهِمُ بنصيبٍ وافرٍ في توجيههم الإجرامي أدركنا خطر هذه الروايات المسمومة. .

إنَّ الإذاعة هي المدرسةُ الشعبيةُ الكبيرةُ، بل هي أكثر انتشاراً وتأثيراً ونفوذاً من أي مدرسة أخرى.

وإنَّ الخطرَ الذي يمكِنُ أن ينجمَ عن إذاعةِ مثل هذه الحلقات الإجرامية. . وبتلك الصورة ليس سوى انتحارٌ عمليٌّ لرسالةِ الإذاعة في هذا البلد، وفي هذه الحقبة بالذات التي نحنُ أحوجُ ما نكونُ فيها إلى أن نربّي في نفوسِ أطفالنا كلَّ ما هو إنساني ووطني وشريف.

لماذا لا تُقدِّمُ الإذاعةُ سِيَرَ العظماء والأبطال على حلقات؟ وبهذا التنظيم نفسه الذي ألفه الجمهور واستحبّه.

* * *

في عالم الملذّات:

جراثيم العفن الخلقي

الثمرةُ المعطوبةُ تُعزَلُ وحدَها حتى لا يسري فسادُها إلى غيرها.

وكثيراً ما نرى صناديقَ التفاح والبرتقال تُعبّأ بطريقةٍ أساسُها الحيطةُ لما يُتوهَّم من عِلَلٍ طارئة، فتُلَفُّ كلُّ ثمرةٍ على حدة في ورقة خاصة، حتى إذا تسرَّب إليها تلفٌ انحصر في موضعه، ونجت بقية الثمار منه!.

وما يُقال في عالم النبات، يطردُ كذلك في عالم الحيوان.

كأنَّ المحافظةَ على المالِ غريزةٌ تأخذُ امتدادَها دونَ افتعالٍ أو تعويقٍ.

وكأنَّ تواضُعَ الناس على هذا المسلك استجابةٌ لنداء الفِطرة، فما يلقاه أحد باعتراضٍ أو استنكار!!.

ولكنَّ الأمرَ في ميدان الأخلاق على العكس، إنّه أنزلُ رتبةً وأقلُّ قيمةً من أن يُهتمَّ فيه بصيانة، أو تُطلب فيه سلامة الجوهر والمظهر، التي تُطلب في أُقّةِ تفاحٍ أو برتقال!!.

الأمر في ميدان الأخلاق ـ كما يبدو لي الآن ـ عملٌ متعمَّدٌ لنقلِ الداءِ من السقيم إلى البريء، ورغبةٌ مُلحَّةٌ في تحويل المرض الفَذّ إلى وباءٍ جارفٍ، وحماسٌ خبيثٌ طافحٌ لرؤيةِ حدودِ الله وقد مُحيَت محواً، وتقاليدُ النبلِ والفضلِ وقد أصبحت آثاراً طامسة، ومظاهرُ الشرفِ والعِفَّةِ وقد صارتْ في ذمّة الماضي البغيض، لا يستمسكُ بها إلا أبله، ولا يُعوِّل عليها إلا متأخّر!.

ومَن الذي يصنعُ هذا الزلزال المهدِّم لبناء الإيمان والفضيلة؟.

نفرٌ من الناس، أقفرت حياتُهم الذهنية والنفسية من كلِّ خيرٍ يَشْرُفُ به الإنسان، فهم دائبون على تلويثِ منابعِ الخير، وتصديعِ أركانِ الأمة.. وقانونُهم الأول والأخير، هو: إذا لم نستطعْ أَن نرقى إلى جوِّ المُثُل العليا فلنجعل هذه المُثُل تهبط إلينا، وإذا عجزنا عن معالجة الاستقامة والتزام فروضها، فلنحقِّر هذه

الحياة، ولنجرَّ أصحابها جرّاً إلى مزالق الإثم والجريمة، حتى يستويَ الكلّ في المجون والخنا . .

والشخصُ القذر يرضيه أن تكونَ الدنيا كلُّها على غراره، ويغضبُه أن يترفَّع الناسُ عن مآثمه وعاره .

ولعلَّ هذا هو التفسيرُ الوحيدُ لبدعة أخذ الأصوات على الفضيلة والرذيلة[1] .

يجتمع نفرٌ من الشُّكَّاك ويتساءلون : هل الدار الآخرة حق؟ .

لنأخذ الأصوات بعد بحث الموضوع ! .

ويُبحَثُ الموضوع في ذلك النطاق الماجن الساخر، ثم تنشر صحيفة (. . . .) أنَّ الكثرة الساحقةَ رأتْ أنَّ الدار الآخرة باطلٌ لا يُلتفتُ إليه .

وما صنعَ في أمر الآخرة يُصنَع مثله في قضية (اللواط) فتنشرُ صحيفةُ (. . . .) أنَّ المجتمعين لبحث الموضوع قرر أغلبهم إباحته .

وذلك ـ للأسف ـ ما صنعته قساوسةُ إنكلترة. ورحَّب به هنا بعضُ الصحفيين ترحيباً حاراً، ترحيباً ينبعثُ من أعماق قلوبهم! وطبعاً، غمزوا الإسلام وعلماءه، لأنَّهم يقفون ضد هذا الارتقاء، أو يحقّرون ذلك الشذوذ! .

ومثل ذلك ما نشرته أيضاً صحيفة (. . . .) من أنَّ بعضَ الشباب اجتمعوا وناقشوا موضوعَ التقبيل في الطريق العام، ثم أصدروا قراراً بجوازِ القُبلة على أن تكونَ في الشارع لا في الميدان، أو أن تكونَ في الحارة لا في الشارع! .

وسأل أحد الرجال الطيبين : أيظنُّ هؤلاء أنَّ الله يرى الإثمَ في زحامِ الناسِ ولا يراه بمعزلٍ عن الزحام؟ .

فقلتُ له : يا هذا . . ما لهؤلاء شأنٌ بالله، إنَّه لم يخطر على بالهم من قبلُ ولا من بعدُ .

عجباً، ما هذا الفسوق عن أمرِ الله؟ .

---

(١) وهذا ما يجري في بعض المحطات التلفزيونية ويا للأسف! . (ن)

بل ما هذه الجراءةُ في إعلان الفسوق، والحضِّ عليه، ودفع الخاصة والعامة إليه؟.

ماذا يُرادُ لهذه الأمة البائسة؟ وماذا تبيّته الصحافة والإذاعة والمسارح والسينمات لهذا الدين الجريح؟.

إنّني أمشي في الطريق فأُدهَش لافتنان الجاهلية الحديثة في التهتك وإبرازِ العورات، وفي استفزازها الغرائز الهاجعة، كي تعربد، ثم تفتك بكلِّ أثرٍ للإيمان والتحفّظ والتقوى..

نعم.. لو تُرِكَ الناسُ وشأنهم لكانَ شرُّهم الحيواني المعتاد أقل ألف مرة من ذلك الشر المستطار المعتوه، الذي تشعلُ نارَه نزواتُ الملحدين والماجنين كلَّ صباح وكلَّ مساء.

فإنَّ أقوى المشاعر وأحدّها يبردُ أو يعتدلُ مع ضعف المؤثرات الخارجية، وتراخي الزمن.

فالأبُ الثاكل أو الأم الملكومة تخمدُ نارُهما مع التصبُّر ومرّ الأيام، ولذلك يقول الشاعر[1]:

فـــواللهِ لا أَنْسَـــىٰ قَتِيْـــلاً رُزِيتُـــهُ   بِجَانِبِ قَوْسَىٰ ما حييتُ عَلَىٰ الأَرْضِ

ثم يعتذرُ عن استجابته بهذه اليمين فيقول:

بلَـىٰ إنَّهـا تعفـو الكُلُـومُ، وإنَّمـا   تُوكَّـلُ بالأدنـى وَإِنْ جَـلَّ مَـا يَمْضِي

واندمالُ الجراحات ـ وإن غارت ـ لا يتمُّ إذا جاءت بين الحين والحين نائحةٌ مستأجَرةٌ تنبشُ الذكريات الدفينة، وتطردُ الصبرَ الوافدَ، وتحيي الجزعَ وتستبقيه.

وفي هذه الأيام يوجدُ لفيفٌ من **عملاء الشيطان**، كرّسوا أوقاتهم لمطاردة العفاف والتقوى، وتوطين المجون والهوى، يعبثون بغرائز الشباب، ويعملون

---

(١) هو أبو خراش الهذلي، و(قوسى)؛ بلدة بالسراة بها قتل عروة أخو أبي خراش. وقوله: (تعفو) أي تندمل. انظر الأغاني: ٢١/١٥٦، ط. دار صادر (ن).

على بقائها متوترة مضطربة، كلّما انصرفت إلى جِدٍّ أزالوها عنه.

وكلّما وقعت على لهوٍ زيّنوه لها، وكلّما ملّت متعةً عرضوا فنوناً تنفي السآمة، وتُغري بالمزيدِ من العيب والسخف.

والغريبُ أنَّ هؤلاء أعلى صوتاً من دعاة الطُّهر والأدب.

بل إنَّ نصائحَ الواعظين إلى جانب الضجيج الهائل الذي يُحدثُه في المجتمع أولئك المنحلُّون السفهاء تشبِهُ وقع العصا في معركة تدمدُم فيها المدافع والطائرات!!.

وكثيراً ما أسيرُ في الطرق العامة، فأرى ما يُقذي عيونَ الأشراف والأطهار، ويملأُ بالكآبةِ والحسرة كلَّ نفسٍ غيورٍ على مستقبل هذه البلاد!.

ما هذا الضيقُ البالغُ في ملابس النساء؟.

لقد أسأل نفسي: كيف أمكنَ المرأةُ أن تدخلَ في هذا الثوب الملتصق بكل شيء في بدنها؟.

لا شك أنها انزلقت فيه بطريقة ما كما تدخل القدمُ في النعل الضيّقة بعناءٍ وحيلة.

ولمن كلُّ هذا التبرُّج؟ إنَّه ليس للزوج أبداً، إنْ كانت هذه المرأة متزوجةً فملابس البيت مجردة تماماً من كلِّ هذا الإغراء اللعين، إنَّه للعيون النهمة، والذئاب المتربِّصة، ودافعي الثمن المطلوب...

نعم.. لهؤلاء وحدَهم، تعريةُ الظهور والنحور، ولف الأرداف حتى تتراقص في أثناء المسير، وتُثير الفتنة، وتُحرِّكُ الغرائز!.

ورسالة الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما هي تغذيةُ ذلك الفساد، وتنميته حتى يطمَّ ويعمّ، وحتى لا تفلتَ من خبثه قريةٌ ولا مدينةٌ، ولا ينجو من غائلته وليدٌ ولا مُعَمَّر!..

لحسابِ مَنْ ذلك الانطلاق الحيواني الشارد المارد؟.

إنَّه ـ بداهةً ـ ليسَ لحسابِ دينٍ من الأديان؟.

فهل هو يتفقُ مع خصائص القومية العربية التي أعلنّا أمامَ العالمين عودتنا

إليها واستمساكنا بها؟ . . كلا! فإنَّ للأعراض عند العرب قداسةً، ما خُدِشَت في جاهلية ولا إسلام.

الحقيقةُ أننا أمام جماعة من الناس كوَّنهم الاستعمار بأسلوبه الخاص، ورمانا بهم كي يهدموا ما نُشيِّد، ويردونا إلى الظلام كلَّما تلمَّسنا الطريق إلى الرقيّ النفسيّ والاجتماعيّ.

ولن يصحَّ لنا نهوضٌ ما بقيَ هذا الصنفُ المخنَّثُ الواهنُ ينفثُ سمومَه وينشرُ مباذله!.

والواقع أنَّ أنكى سلاح شرعَه الاستعمارُ ضدَّ الإسلام هو ذلك النفر من الناس، الذين يَحيونَ في مجالٍ حدودُه الأربعة شهواتُهم الدُّنيا.

ويحقُّ لإنكلترة وفرنسة وأمريكة أن تقرَّ عيناً بما يكتبُ هؤلاء، وبما يغرسون من أفكار وأهواء في مجتمعنا العليل.

إنَّهم ليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى!.

ولو كانوا عُبَّاد وثنٍ ما، لعرفنا لهم عروةً يُربَطون بها، أو حدّاً ينتهون إليه.

ولكنَّهم عُبَّادُ الهوى، وعُبَّادُ الهوى تحكمهم غرائز السوء؛ وما تنضبطُ غرائزُهم إلا بمسّ العصا ووقع السوط.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤].

هؤلاء هم الخطرُ المخوفُ على مستقبل الأمة.

ومن ثَمَّ يجب أن نتيقّظ لدسّهم، وأن نحتاطَ لعوجهم، وإلا تعرَّض جهادُ المصلحينَ للبوار، وكيانُ الجيلِ الجديدِ للدمار!.

إنَّ المرارةَ التي تنقطعُ غُصَّتها من حلوقنا، سوفَ تبقى ما بقيَ هذا القطيعُ المهجَّن الذي صنعه الاستعمار الأجنبي والغزو الثقافي.

إنَّ هذا القطيعَ النكدَ يؤثِرُ الإلحادَ على الإيمان، يؤثِرُ الفُحشَ على العَفاف، يؤثِرُ السُّكْرَ على الصحو، يؤثِرُ المجونَ على الجِد. . .

وقد أفلحَ الغربُ في إشرابِ روحه البغضَ للإسلام والهزءَ بتعاليمه، والذهولَ عن قضاياه والتنكّر لأهلِه . . .

وهل يطلبُ الشركُ لمحو الدين غيرَ هذا؟! .

وهل يجدُ لبلوغ مآربه أسرع من هذا الجند؟! .

* * *

لقد قرأتُ ـ وفي النفس أسفٌ ـ كيف أنَّ مصلحة الشهر العقاري قرَّرت اعتبار شهادة المرأة مساوية لشهادة الرجل في توثيق المعاملات والعقود، وكيف استصدرت فتوى في مجلس الدولة بهذا الحكم!! .

ولستُ متحسّراً لأنَّ حكماً من أحكام القرآن هُدِمَ فحسب، بل لأنَّ المقدّمات والأسباب التي سيقت بين يدي هذا التصرّف الصغير لمصلحة الشهر العقاري تهيجُ النفسَ، فأمينُ المصلحة ـ واسمه على ما أذكر (حسن)!! ـ يعتمد في فعلته تلك على القانون الفرنسي، ويذكر بدقّة وإجلال المصادرَ التي رجعَ إليها من ذلك القانون. وضرورة التزامها!! .

عجباً إذا تناول رجلٌ فرنسيٌّ كأساً من خمر ثم غمسَ قلمه في المداد، وصنعَ سواداً في بياض، فإنَّ السطرَ الذي كتبه يصبح قانوناً مرعياً . .

أما قول الله في كتابه: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فهذا الوحي الإلـٰهيُّ دون تخليط الرجل الفرنسي!! يجبُ أن يؤخَّر!! بل يجب أن يُهمَل، وأن يحلَّ محلَّه ـ في القداسة والإنفاذ ـ كلامُ القانون الفرنسي.

بل إنَّ أمين مصلحة الشهر العقاري ـ واسمه مرةً أخرى (حسن) ـ يقول: إن هناك رأياً بأنَّ شهادة المرأة أوثق من شهادة الرجل!! .

وليس العجيب أن يزيغَ امرؤٌ عن هدى الله . .

ولكنَّ الغريبَ أن يقعَ هذا، في بلدٍ مسلمٍ، ومن رجلٍ يُدفن ـ إذا مات ـ في مقابر المسلمين . . .

والغريبُ أنَّ الصحافة أخرجتْ هذه المأساة إخراجاً يليق برسالتها، فهذه تتندر بأنَّ المرأة نصف الرجل في الشهادة، وتُخرج لسانها لهذا الحكم.

وهذه تعتبرُ المساواة التي هُدِيَ إليها رجلُ (الشهر العقاري) تقدُّماً يستحقّ التنويه.

وهؤلاء وأولئك، من ضحايا الإدمان والذهول، يريدون أن تدوخَ الأمةُ معهم، وأن تنحدرَ إلى هاويتهم، ثم لا بأسَ من تسميةِ هذه الاستجابة الكاملة للصليبية الغربية تحرر وارتقاء!!.

* * *

في عالم الملذات:

ضبط النفس

العكوفُ على اللذائذ، ومطاوعةُ الأهواء، وإجابةُ الرغبات الدنيا: أمراضٌ تصيبُ الأممَ في عصور الانحلال، وتُعرّضها للهلكة، فهي نُذُرُ الفناء ودلائلُ إدبار السيادة.

ولقد لوحِظَ من استقراءِ التاريخِ أنَّ الحضارات الكبرى لم يقتلْها إلا الترف، وأنَّ الأمم العظيمة لم يُهلكها إلا البطر، وأنَّ ترك الناس يرتعون في الشهوات رتع السوائم لن يجر في أعقابه إلا البوار العاجل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

لذلك حرصَ أولو النُّهى أن تشيع في الجماهير أخلاق الجندية، وتقاليد الخشونة، وأن يتعلّموا أخذ الحياة من جوانبها الصارمة، ونواحيها الجادّة.

كما اجتهدوا أن يبتروا من المجتمع مظاهر الاسترخاء والتخنّث، وأن يمنعوا استرسال النفوس مع أسباب اللّهو والعبث.

فإنَّ شباب الأمة يتجدَّد ما بقيت تحترم العمل، وتتحمّل التعب، وتصدف عن المعاصي، وتعاف الغرام بصنوف المتع ولو كان من الحلال.

فكيف لو جاءت من الحرام؟.

إنَّ هناك خلالاً من الطراوةِ تُفقد الأمم عافيتها لو تسرّبت إليها.

وإذا كنّا الآن في فترة بناء لتاريخنا الحديث وعهدنا الجديد.. فيجبُ أن نسدَّ الأبوابَ أمامَ هذه الخلال المبيدة، وأن نصدَّ أصحابَها عن المضيِّ في غوايتهم.. حتى نحتفظَ بحياتنا، ونصونَ مستقبلَنا.

ولا شكَّ أنَّ ألدَّ أعدائنا، وأخطر الناس على نهضتنا، **أولئك الذي يُزيِّنون الرذائل للشبان، ويهيجون لدمائهم حب الجريمة، ويُصوّرون الحياة لهم على أنّها غرائز يجب إشباعها، وفرص يجب انتهازها، وحرية ليس عليها قيد، وانطلاق لا يهدأ عند حد.**

فمَنْ للمشقّات بعدئذٍ يحملها؟ ومَن للتضحيات يقدمها؟ ومَن للمروءات يصنعُها؟ ومَن للبطولات يقوم بها؟ وهل تنهضُ أمةٌ إلا بهذا كلّه، إنَّ اللهَ يقول لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٦ـ٢٨].

هيهات أن يستوي الفريقان، ويستحيلُ أن تفلح أمةٌ استثقلت مطالب المجد، واستمرأت مزالقَ الرجس، ويستحيلُ أن تنهزم أمةٌ تغلَّبت على مطالب الشهوات، وتهيَّأت لتكاليف الواجب.

ونحن إذا نظرنا حولنا، وجدنا الأمم التي تنشد الحياة الكريمة تأخذُ لهذه الحياة أهبتها.

فهي تغرسُ في بنيها حبَّ المخاطرة ومواجهة الصعاب، وهي تُزيِّنُ لهم الأعباء الثقال، ثم تحشدُهم لها بالغدوِّ والآصال.

وهي تكرهُ لهم سقوطَ الهمة، وضعفَ الوسيلة، ومحاقرَ الأمور، وانتهابَ اللذائذ، بل هي ترسمُ لهم سياسة التقشّف، وتضع مناهج الخشونة، ثم تفرض على الشباب والشيوخ جميعاً أن يلتزموها.

ومما يستحقُّ التنويه أنَّ الهند حرَّمت الخمورَ، وحظرتْ تناولها، مع أنَّ ديانتها لم تَشرع ذلك، ولكن القوم تطلّعوا إلى إصلاح شؤونهم، وإقصاء مظاهر الحيوانية عن نهضتهم، كي تسير على صراط مستقيم.

فصنعوا هذا الصنيع الجيد، وضمنوا به سلامةَ عقولهم وأبدانهم، وبقاء أموالهم بين أيديهم.

والحقيقة التي نُذكِّر المسلمين بها: **أنَّ الأمةَ التي تألفُ قربَ المتع، وتجزعُ من سياسة الحرمان إذا فرضتها ظروف طارئة، أمةٌ لا تستحقُّ الحياة، ولن تجدَ لها بين الأحياء مكاناً. . .**

وأنَّ الشبابَ الذين تستهويهم الشهوة، ولا تستهويهم أحاديثُ المجد، هم شبابٌ لا خيرَ فيهم، ولا تعويلَ عليهم.

لقد كان من خُلق العرب الأوَّلين أن يطووا بطونهم، ويكظموا على رغباتهم، إذا واجهوا عدواً، أو خاضوا حرباً، ومن ثَمَّ يقولُ قائلهم:

قَـوْمٌ إِذَا حَـارَبُـوا شَـدُّوا مَـآزِرَهُـم   عَـنِ النِّسَـاءِ وَلَـوْ بَـاتَـتْ بِـأَطْهَـارِ

فكيف نرتضي لأنفسنا ـ والأعداءُ من كلِّ جانبٍ محدقون بنا ـ أن نتشبَّعَ من الكماليات، ونستكثرَ من المرفّهات، ونتصايح لفقدان ما لا قيمةَ له، بل ما لا بأس علينا من تركه إلى الأبد؟.

في عيد الفطر انشغلت الحكومة بتدبير المال من العُملة الصعبة كي توفّر أنواع النَّقْل والسمك المجفَّف للناس.

فلِمَ كل هذا؟. وما قيمةُ صيامٍ لا يكفُّ أصحابَه عن هذه الشهوات، ولا يُعلِّمهم الرضا بما في أيديهم، والزهد فيما سواه؟...

وفي عيد الأضحى تُذبَحُ ألوف الخراف ليلة العيد، وهذا لحمٌ لا نُسُك فيه ولا عبادة، وإنّما هو تهيّؤ لإسراف في الأكل، ولتخمةٍ موجعة، وحرمانٍ للفقراء، وخَلْقٌ لأزمةٍ في اللحوم ما أغنانا عنها[1].

ومتى يحدث ذلك كله؟!.

يحدثُ وحربُ الإبادة تدور رحاها في ربوع الجزائر المخرَّبة، وبينَ مغانيها المعطّلة، وعلى ثراها المبلل بدماء الشهداء.

يحدث والعصابات الإسرائيلية توطّدُ أقدامَها في الأرض المقدَّسة، وألوفُ المسلمين مطرودون من دورهم، مفجوعون في يومهم وغدهم.

إنَّ أحزانَ المنكوبين من أهل الإسلام تعترضُ مباهجَ الأعياد كما تعترض ظلمات الخسوف والكسوف أشعةَ الشمس والقمر.

وهي إن أوحت بشيءٍ فبالعزوفِ عن اللّهوِ واللّعِب، والتمرّس بحياة الكفاح والمصابرة، والصيام الطويل عما يستمرئه الفارغون، وخالو البال،

---

(١) لا شك أنَّ الأضحية عبادةٌ ونسكٌ، ومهاجمة الإسراف يجب أن ينصبّ على سوء توزيع هذه الأضاحي، لتصل إلى الفقراء والمحتاجين فتحقق الغاية التي شرعت من أجلها (ن).

خصوصاً إذا كانت موارد العبث المشتَهى من صنع الذين استباحوا حمانا، وأرخصوا حرماتنا.

ألا ما أحقر السرور يجيءُ وليدَ غفلةٍ عن الحقوق المقدّسة، أو ذهولٍ عن الواجبات الكبار.

وليتَ شعري كيف تهنأُ الأيام، وصوتُ الباطل يحاول طمس قضايانا، وصريخُ المجاهدين يذهبُ في الفضاء، ولا من مجيب، وصدقَ القائل:

صِيَاماً إلى أنْ يَقْطُرَ السَّيْفُ بالدَّمِ وَصَمْتاً إلى أنْ يَصْدَحَ الحَقُّ يَا فَمِي!!
أَفِطْرٌ وأَحْرَارُ الحِمَىٰ فِي مَجَاعَةٍ وعِيْدٌ وأَبْطَالُ الجِهَادِ بِمَأْتَمِ؟

* * *

إنَّ أحدَ سلاحٍ في يد الأمم الناهضة هو زهدُها في أسباب الترف، وإلفُها أسبابَ الخشونة، واكتفاؤها بالقليل الذي تنتجُه وتملكه، واستغناؤها عن الكثيرِ الذي تستورده وتتلمَّسه من أيدي الآخرين، خصوصاً إذا كان الآخرون أعداءها.

ماذا كان يخسره المسلمون لو أنَّهم لم يُطعَموا السمك المجفّف، وقد اشتُري لهم بالعملة الصعبة من فرنسة؟..

يخسرون العفاف والقوة؟ يخسرون الصلابة وضبط النفس؟!.

أهذا هو ما أفطروا عليه بعد صوم رمضان؟..

ألم يعلموا كيف صام (غاندي) وكيف علَّمَ قومه لبسَ الخشن من الثياب، وأكلَ الغليظِ من المطاعم.

وما هي إلا جولةٌ حتى اهتزَّت قوى الاستعمار أمام تجرُّد الرجل الضعيف الرجل الذي ملك معدته فشغلَها بما يريد، ومَلَكَ جلدَه فكساه بما يريد، فكانت العُقبى أنْ مَلَكَ أمرَه كلَّه:

لَقَدْ صَامَ هِنْدِيٌّ فَرَوَّعَ دَوْلَةً فَهَلْ ضَارَ عِلْجاً صَوْمُ مِلْيَون مسلمِ؟
تَجَشَّمَ عَنْ أَوْطَانِهِ صَوْمَ عَامِدٍ فَجَشَّمَ أَوْطَانَ العِدَا صَوْمَ مُرْغَمِ
وخَلَّىٰ بِلادَ الظَّالِمِيْنَ بِلادَهُ تَضِيْقُ بِجَيْشِ العَاطِلِيْنَ العَرَمْرَمِ
وَأَلْقَىٰ عَلَىٰ مَنْشِسْتَرٍ ظِلَّ رَهْبَةٍ يَضُجُّ بِأَسْيَاجِ الشَّقَاءِ المُخَيَّمِ

أَهَـابَ بِـآلاتِ الحَـدِيْـدِ فَعَطَّلَـتْ مَصَـانِـعَ كَـانَـتْ جَنَّـةَ المُتَنَعِّـمِ
وَشَـلَّ دَوَالِيْـبَ الـرَّخَـاءِ بِصَـرْخَـةٍ أَدَارَتْ دَوَالِيْـبَ القَضَـاءِ المُحَتَّـمِ
كَسَاهَا نَسِيْجَ العَنْكَبُوتِ وَكَمْ كَسَتْ جُسُـومَ البَـرَايَـا بِـالقَشِيْـبِ المُنَمَّـمِ
فَيَـالَـكَ مِـنْ عَـانٍ لَـدَيْـهِ تَصَـاغَـرَتْ جَبَـائِـرُ أَبْـدَانٍ وَعَقْـلٍ وَدِرْهَـمِ
وَرَاحَـتْ مُلُـوكُ المَـالِ تَشْكُـو بِبَـابِـهِ مِـنَ الفَقْـرِ يـا للظَّـالِـمِ المُتَظَلِّـمِ

نعم.. هذه واللهِ طريقُ المجدِ وخطةُ الفوز، وما يستطيعها إلا مَن حبس شهوتَه، وأظهرَ عفّته، وأبدى غناه، وكبتَ فاقتَه.

فأمَّا الذين يهرعون حيثُ تطلبهم الشهواتُ الطارئة، والنزواتُ العابرة، فلن يكونوا إلا عبيداً.

على أمثال هؤلاء يعيشُ المستعمرون في الأرض..

من التدليس في شرع الحرية أن ننقلها من ميدان العقل والضمير إلى ميدان الغريزة والهوى.

إنَّ الحريـةَ في الميدان الأول ارتقاءٌ إنسانيٌّ، أما في الميدان الأخير فهي ارتكاسٌ حيوانيٌّ.

والعالم إذا كان قد ظفر في نواحي المعرفة ومظاهر القوة فبحرية العقلِ لا بحريّة الشهوة..

والعالَم إذا كان مهدَّداً بالرزايا والمخازي فبالحرية الأخرى ـ أي الحرية الحيوانية الدنيئة.

فيجب أن نُفرِّقَ بين نوعين من الحرية يحملان عنواناً واحداً، ولكن بين حقيقتهما بُعْدَ المشرقين..

وقد نقل إلينا الغزو الثقافيُّ كلماتٍ مريبـةٍ، لها ظاهرٌ يومئ إلى الحريـة العقلية، بَيْدَ أنك لو بحثتَ في باطنها ما وجدتَ إلا حركة الغرائز المريضة، تريدُ لتتنفَّسَ كيفما اتّفق، في غير مبالاة بدين أو شرف.

والدعوة إلى محاربة الكبت قد تبدو في ظاهرها إنماء للخصائص النفسية، وتفتيقاً للمواهب الذهنية، غير أنَّ الأفواه التي نطقت بها، والأساليب التي مشت

معها كشفت عن سعي حثيث لتجرِّئ الأجيال الجديدة على فعل ما يحلو، وترك ما يثقلُ.

ويستحيلُ أن يكتملَ فردٌ قرَّر أن يبني سلوكَه على فعلِ ما يلذّ، وترك ما يؤلم.

ويستحيلُ أن تقوم جماعةٌ على مثل هذا الفهم المعلول.

وفي هذه المرحلة من تاريخنا بالذات يجب أن نوطِّدَ النفسَ على تحمُّل الآلام، ونبذِ اللّذائذ، أي على كبتٍ طويل.

إنَّ الإسلامَ لا يحتقرُ الغرائزَ الإنسانية، ولا ينبغي أن يُظنَّ هذا بتعاليمه بعد ما حصَّل جزءاً من الثواب الأخروي المحفوف بالرضى يقوم على إرضاء هذه الغرائز حتى تقرَّ وتسعد...

ولكنّ الإسلام يريدُ أن تملك نفسك، لا أن تملكك نفسُك.

وأن تكون إنساناً سيداً يحكمُ رغباته، لا إنساناً تافهاً تحكمُه رغباتُه.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فإذا نجحتَ في امتحان الرجولة قدَّمتْ لكَ رغباتُك مكافأةً تستحقُّها، وتُكرَم وأنتَ تنالها.

أما الذين يسقطون، فليس لهم في الدنيا إلا الحرمان، وليس لهم في الآخرة إلا الحرمان...

بعضُ الناس يحقرُ الشيءَ إذا فاته الحصول عليه، فهو يُهوِّنُ من شأنه، ويغضُّ من قَدْرِه على طريقة الثعلب الذي عَزَّت عليه عناقيدُ العنبِ فرجعَ يقول: «إنَّه عنبٌ حامضٌ»...

على هذا المنوال رأينا مَن يبخسُ الفضائلَ حقَّها، لأنَّه عجزَ أن يكونَ فاضلاً، وفشل في أخذ نفسِه بعزائم الخير ومعاقد الكمال..

لقد رجع يذمُّ الصدق، لأن مقاومته لشهواته انهارت، فهو يبغي أن يجعلَ من الاستسلام للشهوات قانوناً عاماً، وأن يغري غيرَه بالسقوط السريع أمام وساوس الشيطان، لأنَّه هو سقط على عَجَلٍ...

ونحن نستغربُ هذا المسلك ! ! .

أكلُّ مَن عجزَ عن الصدق في القول والعمل، يُقبَلُ منه تسويغ الكذب، وتحريض الناس على الإفك؟ .

أكلُّ مَن كسبَ سيئةً وأحاطت به خطيئتُه، يُقبَلُ منه أن يسخَرَ من الحسنات ويباهي بالمنكرات؟ كلا . . كلا ! ! .

يجبُ أن نعرفَ للفضائل قدرَها، وأن نُدرِّبَ الشباب على الارتباط بها، وأن نُخرِسَ هذا الصياح الملعون بإباحة المتع الحرام، والتهاب الملذَّاتِ المشتهاة . .

وبذلكَ نبقى أمةً تعرفُ رسالتَها وتحظى بعناية الله، واحترام الناس .

أتدري أين تنساق الأمة الإسلامية مع هذه البهيمية الطافحة الباحثة عن اللذّة أبداً؟ .

أتدري كم ننفقُ؟ وكم يكلّفنا إشباعُ هذه الطبائع المعلولة؟ .

لا أجدُ أفضلَ من كلمةٍ بارعةٍ للشيخ (محمد علي الزعبي) كتبها يدعو إلى تأميم (النفط) نثبتها في المقال التالي :

* * *

في عــــالم الملذات:

ملوك وأمراء وشاهات الذهب

لقد ثبت لساهرينا ومحققينا، أنَّ الدول الطامعة الشرهة المحتكرة اختلست مـن ثرواتنـا عام ١٩٥٥م فقط، ما يسـاوي ربحُه خمسـمئة ألف مليـون دولار أمريكي[١]، وقد تضاعف فيضان الآبار، وعُرفت آبار جديدة في برِّنا وبحرنا، فتضاعف الربح هذين العامين، وأصبح تسعمئة ألف مليون دولار على الأقل، هذا سوى ما يختلسه المستعمرون من مناجم الذهب والفضة والكبريت!!.

أيُّها العربي المسكين، هل طاف بخيالك هذا الرقم الجنوني؟.

هل لدى أطفالك مِنْ حَبِّ القمح ما يساوي هذه الملايين؟.

هل عرفتَ أنَّ ما يحاولُ (أيزنهاور) ابتياع قلبك به هو جزء من ملايين مما اختلسه من ديارك؟.

هل علمتَ أنَّ نصف هذا الربح، أو ستين في المئة منه يُقَسَّم ستينَ سهماً، لتأخذَ (المملكةُ العربية السعودية) أربعة وعشرين، و(الكويت) خمسة عشر، وكل من (العراق) و(إيران) تسعة، و(قطر) اثنين، و(البحرين) واحداً.. هل تصورتَ خطر هذه المبالغ؟ هذا سوى عائدات الذهب والفضة والكبريت.

لا أريدُ إذهاب وقتك بعمليات حسابية، يكفي أن تعلمَ أنَّ المستعمرين أنصارَ الشركات لا يعطون هذه العائدات إلا لمن لا يعبد سواهم.

بل إنَّ إعطاءها مشروطٌ بعدم إنفاقها في حقلٍ يعود على ديارك بصالح عام، لا سيما الاستعداد والتأهّب لجولةٍ ننالُ بها من (اليهود) بعضَ ثأرنا.

حسبك أن تعلم أنَّ ما يسلبونه من ديارك هو شريانُ أجسادِهم، ونورُ عيونهم، وينبوعُ حياتهم.

---

(١) رسالة الثروة المعدنية، للدكتور سعيد محمد عودة، ص٩.

وأنَّ أساطيلهم التي تهدّد، وملايينهم التي تبتاعُ قلبَك، وراياتهم التي تحاول الارتفاع في سمائك، قائمة على تلك المسلوبات! .

وهل تعلم كم حاكوا من المؤتمرات للاستئثار بما لا يزال كامناً في ديارك؟ .

ـ كلوا واشربوا ولا تستعدُّوا لعدوّكم:

أجل.. إنَّهم يتكرَّمون بفتات من هذه المائدة، على ملوكنا وأمرائنا وشاهاتنا، ويشترطون عليهم عدم إنفاق درهم منها في سبيل مناهضة إسرائيل، بل يشترطون عليهم إنفاقها في ما يُثْلِجُ قلبَ المستعمر والشيطان، ولو أنفقَ هؤلاء فيما يعودُ بخيرٍ على هذا الوطن الكبير، أو وطنهم المحدود، لودعهم الحظ وفارقهم ما يستمتعون به.

ـ الأسرة المحظوظة!!

إنَّ الأسرة المالكة، أو الحاكمة بأمرها (طبعاً بتوجيه المستعمر، واستمداد السلطان منه) تحتفظُ من عائدات النفط براتب معلوم، لكلِّ مولود، بل تتّخذ كلُّ أميرة من هذه الأسر، وكيلاً لأموالها يُدعى (وزير مال الأميرة)، إنَّ صاحب (ألف ليلة وليلة) و(السندباد البحري) لم يستطيعا تخيّل هذا! . أما كبار الموظفين (وهم من الأسر المحظوظة فحسب) فلهم راتب سوى راتبهم العائلي، ولكنَّ خازن المال الذي لا دفترَ عنده، مكلَّف بتسليم ما يطلبون.

لا عجب!! فهذه الأسرُ تنفِّذ منهجاً رسمه المستعمر، الذي خنقها في بحر من الذهب، وجعلَها تدرك أنَّ بقاءها ووجودها موقوفٌ على بقائه ووجوده.

ليت قومي يعلمون أنَّ ما تنفقه هذه الأسر في عام واحد وفي سبيل العار، كافٍ لتمويل السد العالي، بل كافٍ لإعادة الأمة العربية أعزّ مما كانت أيام عمر بن الخطاب.

ليتهم يعلمون أنَّ ما ينفقه أحدُ حاشيتهم، يغنينا عن المساعدات المسمومة، التي يستتر بظلّها المرحّبون بمشروع (أيزنهاور).

ليتهم يعلمون أنَّ أنصار الشركات، شراع يدفع سفينتنا لما فيه حتفنا، وخنجر يقتطع من جسمنا أقوى وأنشط أعضائه، وغِلٌّ في عنق نهضتنا، وجرثوم في غدير سعادتنا.

ليتهم يعلمون أنَّ الأموال لا تنشل من ضيق، ولا تُفرِّج عقدةَ كارثة، إلا إذا أنفقت منها ثمن كلب ـ على الأقل ـ يخيفُ اللصوص، وينبِّه صاحبَ البيت! .

ليتهم يعلمون أنَّهم يعيشون في دائرةٍ من ذهبٍ، ضربَها الذين يستنزفون الكنوزَ، ويكبتون الشعور.

على أننا ـ والحقُّ يُقال ـ لا نتفق مع الأحرار الذين يطلبون من المسرفين الاقتصاد. . إنَّهم لا يستطيعون الاقتصاد مهما حاولوه، لأنَّ كل ما يناله شخص من مال الأمة دون أن يقدِّم لها تعباً وجهداً هو مال خبيث.

والخبيثُ ـ كما يقول الإمام علي ـ لا يُنفَقُ إلا في السرف! .

وهكذا تنفقُ بعض هذه الأسر ما يدنيها من تخمةِ الموت، وتضعُ ما بقيَ أمانةً في صناديق: (**الثعلب الأمين والثعبان التقي**)![1].

نعم. . إنَّ ما اعترف به الثعالب والثعابين كحصةٍ للكويت ـ مثلاً ـ مئة مليون جنيه إسترليني، ولكنّ الثعالب والثعابين الذكية الواعية الشريرة. . لا تدفعُ تلك القيمة كاملةً للكويت، إذ تخشى أن تنسى الأسرة المحظوظة، الشروطَ والوصايا المقدَّسة، وتنفق جزءاً ضئيلاً في صلاح مستقبل الكويت.

ولذا تُعطي ربَّ الأسرة المحظوظة وحاشيتها وأسرته وبطانته، ومَن أتقنَ فنَّ البصبصة، ثم ما فاضَ أمانةً في صندوقها.

وما أشدَّ أمانةَ الثعالب والثعابين! .

أجل أمانة! إذ لعائدات (الكويت) و(قطر) و(البحرين) لجنةٌ مؤلَّفةٌ من ثلاثة إنكليز (**طبعاً ذوي أمانة مثل كلِّ الإنكليز اليهود**).

مركزُها المدينة المقدَّسة (لندن) عاصمة التيجان، ومزرعة الجلالات والسمو والسعادة وبقية الألقاب، ووظيفتها توجيه جميع الذين بيدهم العائدات، للإنفاق بطريق لا يعودُ على عربيٍّ أو مسلمٍ إلا بجرعةِ سموم! .

لَعَمري، هل تستطيع الأسرُ المحظوظة، مخالفةَ الشروط والوصايا؟ .

---

(١) بنوك أوروبة وأمريكة.

وكيف تستطيعُ، وقد أقامت الثعالبُ والثعابينُ لكلِّ فردٍ من تلك الأسر أخصاماً ومعارضين، لتهدّده بالتنكّر له إن خالف توجيهها؟ .

أمّا ما تُنفقُه لجنة الأمناء على مناطق النفط من أسهم العائدات، فيتولّى إنفاقه مستشارون إنكليز، ينفقون لصالح المنطقة العامة ما ينفقه العدو اللئيم، لصالح عدوه الغافل .

وهكذا بوركت أموالُ الإمارات المجمَّدة، فأصبح للكويت وحدَها في مصارف لندن نحو سبعمئة مليون جنيه إسترليني .

رحم اللهُ الفقيرَ المعدم الذي يتمنَّى لو وجد أتاناً أو نعلاً، ورغم هذا يمسحُ شاربيه قائلاً: «لي مالٌ محفوظٌ عند الأمناء، لو شئتُ لأصبحتُ ثرياً»!! .

* * *

في عالم الملذات:

الكبت بين أدب التربية ومناهج الانحلال

كثُرَ الحديثُ بين المثقّفين عن أضرار الكبت، وأخذ المشتغلون بشؤون التربية يعالجون علل الأجيال الحديثة على أنَّ الكبتَ سببُ ما نرى بها من انحراف.

ثم استقرَّ الرأيُ ـ أو كاد ـ على أنَّ محاربةَ الكبتِ لا بدَّ منها لبناءِ مجتمعٍ سليمٍ، وإيجادِ حياةٍ بعيدةٍ عن العُقد والالتواءات!.

ونحن نريدُ أن نناقشَ هذا الكلام، وأن نتعرَّف الحدودَ التي ينتهي إليها، والمعاني التي تكمن فيه.

إنَّ الكبتَ هو حبسُ الرغبات التي تجيشُ في النفس، وإيصادُ المنافذِ أمامها حتى لا تجد متنفّساً تخرجُ منه، ولا شكَّ أنَّ كفَّ النفسِ عما تهوى أمرٌ يصعبُ عليها، وتحسّ معه العَنَت!.

فكيف تعالَج هذه الحال؟ أتعالَجُ بإرخاء العنان لها، وإجابتها إلى كلِّ ما تريد؟.

يبدو أنّ ذلك هدفُ بعضِ الناس!.

فالأسلوب المقبول لديهم في (التربية) ترك النفوس على سجيتها، ومنح الغرائز حرية السكون والحركة لتخط لنفسها المسلك الذي تحب دون حذر أو ضغط أو اعتراض!!.

ولا يسعنا إلا أن نتساءل: إذا كان هذا برنامج التربية الرشيدة، فما يكونُ برنامج قلة التربية؟!.

إنَّ علماء النفس عندما شرحوا ناحيةَ السلوكِ في الغرائز الإنسانية قالوا: «يمكنُ أنْ يَغيّرَ مجرى الغريزة في نزوعها الأخير، إمّا بالتسامي، أو بالتعديل، أو بالكبت».

ويقصدون بـ(التسامي) ربط الغرائز بمُثُل عليا تهيجُ لها وحدَها وتخمدُ عند فقدانها.

ويقصدون بـ(التعديل) إشباعُ الغريزة بمظهرٍ فيه العِوَضُ عما تبغي، لأنَّ حاجتها الأصيلة لا يمكنُ قضاؤها.

فإن عَزَّ هذا وذاك فليسَ إلا (الكبت)..

فنأخذ مثلاً (الغريزة الجنسية).. إنها حقيقة لا يمكن تجاهلها.

وتطلّع البَشر إلى إشباعها بالحقّ أو بالباطل، من الحلال أو من الحرام أمرٌ مفترَض، ولا بد أن يُحسَبَ حسابُه.. فما العمل؟.

الحل الذي ارتضاه الله، واستكانت إليه الإنسانية هو **الزواج**، وهو اللون الوحيد من السلوكِ الذي يُقبَل في إجابة هذه الطبيعة العامة.

فإذا لم يتيسَّر هذا الحل، فهناك التسامي بالغريزة، ويقضي هذا التسامي:

١ ـ **بمنع صنوف المثيرات التي تعترض الشباب**، وتستفزُّ الشهوات النائمة استفزازاً، وتزيّن لها السقوط تزييناً.

٢ ـ **ثم شحن أوقات الفراغ بصنوفٍ من الشواغل المعنوية**، والأعمال المادية والأعباء الحيوية.

٣ ـ **ثم إمتاع هذا الشباب بفنون التسلية الرفيعة، التي يتبدَّد فيها لهب الغرائز**، وتخفُّ حدَّتها، إلى أن يُستطاع تيسيرُ الزواج، وتقريبُ الحلّ الذي ترى فيه النفس ريها الكامل.

قد يُقال: ليس فيما قلته كبير فائدة، فلا الزواج بميسور، ولا هذا التسامي بمغنٍ، وسيصيرُ الشبابُ ـ حتماً ـ إلى الكبت الذي يُفسِدُ أخيلتهم، ويُمرضُ أمزجتهم!.

وهذا **الكلامُ ينطوي على مغالطات فاحشة**، فإنَّ الكبتَ عنصرٌ لا بدَّ منه في كلِّ تربيةٍ سليمةٍ، والقولُ بأنَّ النفسَ تُجابُ إلى كل ما تشتهي لا يمكِنُ تعميمه لا في عالَم الإنسان، ولا في عالم الحيوان.

هبْ رجلاً أحبَّ زوجةَ آخر، أيُنصح بمعاشرتها تجنّباً لآلام الكبت؟ أم يُقال له: الزم حدودَ العفاف وضوابطَ الأدب، واكظم على ما في نفسك من اشتهاءٍ حرام!!.

إنَّ الكبتَ يكون فريضة دائمة - ما دامت الحياة - إذا تطلعت النفسُ إلى ما يستحيلُ تحقيقُه، ويكونُ فريضةً موقوتةً إذا عرضت ظروف خاصة.

وتصويرُ الكبت على أنّه مثار كلِّ عِوَجٍ كذبٌ على العلم.

وإغراءُ الأولادِ على الاسترسال مع جماح الهوى، أو مع حرية الإرادة - كما يقولون - لن يخلقَ جيلاً محترماً من البشر، بل سيخلقُ أجيالاً واهنةَ العزيمة، سريعةً إلى الجريمة، لا نفعَ منها ولا خيرَ فيها.

* * *

نحن نعرف أنَّ الحرمان الدائم له عواقب سيئة، وأنَّ إعلانَ الحرب على الغرائز البَشرية - بُغية استئصالها - يتبعُه ردُّ فعلٍ شنيع.

ذلك أنَّ اللهَ لم يخلق هذه الغرائز لتُكبحَ وتموتَ، بل لتحكمَ وتؤدّي وظيفتَها في الحياة على صراطٍ مستقيم.

ومن قديم عرَّف علماء التربية أنَّ التوسُّط هو الفضيلة، فإن كانت البِطْنَةُ شراً، فلن يكونَ الجوعُ خيراً.

ورياضةُ النفس بالتجويع ربما كانت أسوأ - في عقباها - من البطنة كما قال البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوْعٍ ومِنْ شِبَعٍ ... فَـرُبَّ مَخْمَصَـةٍ شَـرٌّ مِـنَ التُّخَـمِ

ولكنَّ الذي قال هذا في التخويف من آثار الكبتِ قال:

والنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَىٰ ... حُـبِّ الـرَّضَـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ يَنْفَطِـمِ

وقريبٌ من هذا قولُ الشاعر[1]:

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي. (ن)

والنَّفْـــسُ راغِبَـــةٌ إذا رَغَّبْتَهَـــا وإذَا تُـــرَدُّ إلـــى قَلِيْـــلٍ تَقْنَـــعُ!!

والكبتُ في أحوالٍ كثيرةٍ قد يكون تسليط الإرادة البصيرة على طبيعة عمياء، أو الإيثار العالي على أثرة صغيرة، أو تغليبَ العدالة والحرمان على الظلم والخطف، أو الشرف والكرامة على الدنايا العاجلة!!.

فكيف يُعاب الكبتُ في هذه المواطن كلها، وكيف يزعمُ زاعِمٌ أنَّ إنشاءَ الأجيال الجديدة يجبُ أن يُراعَى فيه عدمُ الكبتِ؟.

أخشى أن يكونَ عدمُ الكبتِ هذا أقصرَ طريقٍ لخلقِ طوائفَ من الأنعامِ لا طوائفَ من الأنام!!.

إنَّ الرجلَ يقفُ في ميدان القتال فيهيجُ في دمه حُبُّ الحياة، ويودُّ لو نجا من منظر الموت الكالحِ.

أفنقول له: لا تكبتْ هذه المشاعر وفرَّ؟.

أم نقول له: دُس هذه الهواجس تحت قدميك، واثبتْ ولو فقدتَ الحياة، واقتدِ بالأبطال الذين يُقْنِعون أنفسَهم في هذه المجالات بذلك الردّ الوحيد؟.

أقــولُ لَهَــا إِذَا جَشَــأَتْ وَجَــاشَــتْ مَكَــانَــكِ تُحْمَــدِي أو تَسْتَـرِيْحِـي!!

إنَّ الحملةَ المجنونةَ على الكبت أوجدت شباباً طرياً، ورجولةً زائفةً لا صبرَ لها على شيء، وأوجدتْ منطقاً يستبيحُ كلَّ شيءٍ بحجة الحاجة فحسب!!.

وفي ميدانِ الغريزةِ الجنسية رأينا تعمّد خلطِ الرجالِ بالنساءِ في ظروفٍ مريبةٍ وملابساتٍ سيئة.. لماذا؟ منعاً لأضرار الكبت!!.

وليت شعري لماذا نُحرِّم على الإنسان سرقةَ بدلةٍ يشتهيها، ولا نحرِّمُ عليه سرقة عِرْضٍ يلغُ فيه بالباطل؟.

إذا كانت الحاجةُ حُجَّةً محترمةً مقبولةً لأنَّ (الكبت) وخيمُ العاقبة، فلماذا لا يُعمَّمُ هذا المنطقُ في شؤون الحياة كلِّها، بدل وقفه على الناحية الجنسية وحدها؟.

إنَّ أخذ النفس بالشدَّة واجبٌ في ظروفٍ لا حصرَ لها.

وتكليفُها بحملِ المشاقّ وتجرُّعِ المرّ، واحتمالِ الصعابِ هو السبيلُ الوحيدُ لإحرازِ النجاحِ وبلوغِ القمم.

وتاريخ العظمة الإنسانية في شتّى الميادين هو ـ في الحقيقة ـ تاريخٌ لسلسلةٍ من الكبت الموصول، والتعب المستمر، والتضحيات بالرغبات العاجلة!!.

وانظر إلى هذه الأبيات من حِكَمِ العرب:

يَقُوْلُوْنَ: هَذَا مَوْرِدٌ، قُلْتُ: قَدْ أَرَىٰ ... ولكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا!

* * *

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ أَرَهَا ... تُنَالُ إلاّ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

* * *

لا يُدرِكُ المَجْدَ إلاّ سَيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يشُقُّ عَلَىٰ السَّاداتِ فَعَّالُ

* * *

فَجَاشَتْ إلى النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... فَرُدَّتْ عَلَىٰ مَكْرُوهِهَا فَاسْتَقَرَّت

والواقعُ أنَّ الإسلامَ لم يكنْ بِدَعاً في شقِّ طريق الإيمان وَسْطَ زحامٍ من الأهواءِ المغلوبةِ، والشهواتِ المكبوتة.

نعم.. وسط الجهادِ الصارم، والكفاحِ الدائم، والبطولةِ التي تهزِمُ وساوسَ الشرِّ وهواجس الإثم، بسلاحٍ من تقوى اللهِ وحُسنِ مراقبته، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوات».

الجنةُ المحفوفة بالمكاره، وهي ككل قمةٍ في ميدانِ العلم أو الأدب أو الحُكْمِ، أو الحرب أو الإنتاج، لا يمكنُ أن تنالَ بالدعة واللذة، ولا أن تُدرِكَ بما يرسمُه السفهاء مِنْ محاربة الكبتِ وإطلاقِ الطبائع الحيوانية تعربدُ كيفَ تشاء.

كلا.. إنّها تنالُ بالعفاف والخُلُق والصبر، ولا تُنالُ بغير هذا من رخاوةٍ وطراوةٍ وعدمِ كبتٍ..

إنَّ الجيل الجديد المدلَّل الذي نشهدُ الآن تكوينه، لا يصلحُ لدينٍ ولا لدنيا.

وكيف يظفر بهذه الصلاحية مَنْ يجعل هواه قانوناً ومشتهياته تقاليد، لا لشيء

إلا لأنَّ التربيةَ ـ في نظره ـ يجبُ أن تبتعدَ عن أساليب الكبت والقلق والخوف والتعب؟ .

إنَّ التربيةَ الصحيحةَ لا بدَّ فيها من تحمُّل الكبتِ ومواجهةِ التعبِ، ولا بدَّ فيها كذلك من اقترانِ الرغبةِ بالرهبة، واللذَّةِ بالإلم .

إننا لا نوصي بالعُنف حيثُ يجبُ اللطف، وما ينبغي الجنوحُ إلى الشدّة ما دام للتوجيه الرقيق مجال .

بَيْدَ أنَّ القولَ بإبعادِ القسوةِ عن ميادين التربيـة كلِّها أمرٌ يصادِمُ الطبيعةَ الإنسانيةَ نفسها .

ونحن الآن نجني العلقمَ من هذه الآراء المرتجلة أو المنقولـة إلى غير موضعها .

ففي أسبوعٍ واحدٍ وقعت ثلاث جرائمٍ بين قتلٍ وشروعٍ فيه، ارتكبها التلامذةُ ضدَّ أساتذتهم الذين حاولوا منعهم من الغِشِّ في الامتحان ! ! .

كيف وقع هذا؟ .

إنَّها نتائج محتومة لتركِ الحبلِ على الغارب .

إنَّها الثمراتُ التي لا بـدَّ من جَنْيِها بعد ما تركنا شؤون التربية لكُتَّاب الروايات الغرامية أو صُنَّاع المشكلات الجنسية، أو نَقَلَةِ الأفكارِ الأجنبية .

إنَّ الذين تَخرَّجوا من الكتاتيب القديمة أشرفُ نفوساً وأنبلُ طباعاً وألينُ عريكةً وآمنُ على المصالح الخاصة والعامة من أولئك الذين خرَّجتهم الأساليبُ الحديثة، وصنعتهم سياسةُ محاربةِ الكبت .

نعم . . كانت عصا الفقيهِ الجادِّ المؤمنِ أجدى من تدليلِ هؤلاء الذين مسختهم أفكارُ (فرويد) فما أحسنوا فهمها ولا أحسنوا تطبيقها .

ولقد تتبعتُ المقالات والتعليقات التي كتبها الصحفيون بعد مقتل الأستاذ على يدِ تلميذه، فراعني أنَّ أغلبها يتناول القضية المؤسفة، وكأنَّه يعتذر للتلميذ القاتل، أو يختلِق لفعلتِه الأسبابَ المسوغة .

ومن أعجبِ ما قرأتُ قولَ (سكرتير المجلس الأعلى للفنون والآداب) : إنَّ

الكبتَ الجنسيَّ هو سِرُّ هذه الجرائم، أي أنَّ هذا الشاب القاتل ـ وعمره ثماني عشرة سنة ـ لو وجد فتاة يزني بها ما غرز سكينَه في عنق المدرس المسكين!!.

وأنا لا أحكي هذا الكلام الفارغ لأناقشه، فالأمرُ أنزلُ رتبةً من أن أتناوله بردٍّ.

ولكن الذي أدهشُ له كيفَ يُباحُ لكلِّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ أن يخوضَ في آفاق التربية بهذه الجراءة، وأن يلطمَ وجوه المصلحين بهذه الآراء، أو بهذه السخافات؟!.

إنَّ هناك كُتَّاباً حِرْفَتُهم الوحيدةُ حُداء غرائز السوء في بيداء الحياة، يقوّونها إذا ضعفت، وينشّطونها إذا كسلت.

فهل هؤلاء أمناء التربية في بلادنا؟.

واللهِ لو أنَّ آلامنا جاءت من قيود الكبتِ لبادرنا إلى علاجها وفكِّ الناس منها، لكنَّ مصائبنا جاءت من فوضى الانطلاق.

فكيف يُعالج السُّكْرُ بمزيدٍ من الخَمْرِ؟.

ألا فلنعد إلى رباط الفضائل، نحزم به أمورنا، ونوثق به شؤوننا قبلَ أن يفوت الأوان.

* * *

ثم إنَّ انحلال العزائم تحتَ ضغط الشهوات المتاحة والرذائل المستباحة، تبعه انحلالٌ آخر في الأفكار والآراء.

أي أنَّ الميوعة الخُلُقية صحبتها ميوعة عقلية لا تقلّ عنها نُكراً.

فترى أحلاسَ اللذّة الموجودة أو المنشودة مصابين بنوع من البلادة الذهنية يُسوِّلُ لهم الحكم على الأشياء بتخبّطٍ ظاهر وقلّةِ اكتراث. . .

أهو العجزُ عن التصوّر الصحيح؟.

أهو الكسلُ عن دقّة البحث وحُسنِ الفهم!.

ربّما كانت العلّة هذا أو ذاك. . وربّما كانت استواء الخطأ والصواب عند هؤلاء المرضى بقلوبهم وعقولهم.

فترى الواحد منهم لا يهتمُّ بتمحيصِ قضيةٍ ما من قضايا الدين والدنيا، لأنّه يقول: هَبْ النتيجة كذا أو كذا!! ماذا يعنيني . . . !.

إنَّ الذي يعنيه شِبَعُ بطنه، وارتواءُ فَرْجِه، وفراغُ بالِه.

واليومَ خمرٌ، وغداً خمرٌ أيضاً!!.

والأجيالُ التي تُقادُ من أهوائها كالدواب، التي تُقادُ من أرسانها، لا قيمةَ لها!

وأولى العلل في مجتمعٍ من هذا القبيل التافه هي النفاق، النفاقُ الخسيسُ المزري.

الرجل يغشى هذا المجلس برأي، ويغشى ذلك المجلس برأي آخر.

بل إنَّه تحت بواعث الرغبة والرهبة يُغيِّر رأيه في المجلس الواحد التماساً للرضا تارةً، واتقاءً للسخطِ تارةً أخرى . .

وما دامت الأفئدةُ خواءً من العقيدة، فإنَّ النفوسَ تتلوَّنُ تلوُّنَ الحرباء تبعاً للجو الذي يحتويها.

ولا أحسبُ الفسادَ السياسيَّ والاجتماعيَّ يطلبُ لنفسِه أمثلَ مِنْ هذا الجوِّ ليبيضَ ويفرِّخَ.

وقد شاعَ النفاقُ في كلِّ ناحيةٍ شيوعاً يبعثُ على الأسى.

بل لقد كثرت صوره حتى جعلت بعضَ الساخرين الظرفاء يتندّر بطرافتها، وفي ذلك يقول الشاعر محمد مصطفى حمام:

مَا دُمْتَ فِي جَنَّةِ النِّفَاقِ ... فَاعْدِلْ بِسَاقٍ ومِلْ بِسَاقِ

ولا تُقَارِبْ ولا تُبَاعِدْ ... وَدُرْ مَعَ الثَّوْرِ فِي السَّوَاقِي

وضاحِكِ الشَّمْسَ في الدَّيَاجِي ... ودَاعِبِ البَدْرَ فِي المَحَاقِ

ولا تُحَقِّقْ ولا تُدَقِّقْ ... وانْسِبْ شَآماً إلى عِرَاقِ

وَقُلْ كَلاماً بِغَيْرِ مَعْنَى ... واحْلِفْ على الإفْكِ بالطَّلاقِ

ولا تُصَادِقْ ولا تُخَاصِمْ ... واسْتَقْبِلِ الكُلَّ بالعِنَاقِ

فَأَيُّ شَخْصٍ كَأَيِّ شَخْصٍ ... بِلا اخْتِلافٍ ولا اتِّفَاقِ

فأيُّ شَيْءٍ كأيِّ شَيْءٍ ما دُمْتَ في جَنَّةِ النِّفَاقِ

ونحنُ نعوذُ بالله من جَنَّةِ النفاق هذه.

ونريدُ لأمتنا مجتمعاً يتّسم بالصرامة والصراحة، وتزدهر فيه أخلاقُ الإيمان وشمائل الرجولة...

مجتمعاً يُحِقُّ الحقَّ، ويُبطِلُ الباطل، وينصرُ الفضيلةَ بقوة، ويخذلُ الرذيلةَ بقوة، ولا يداري في تقبيح الفسوق، ولا يَنْكُصُ في تجبيه العابثين.

ويستحيل تكوينُ هذا المجتمع إلا مِن معالم الإسلام، الذي يكبِتُ الأهواءَ، ويعرِفُ المعروفُ، وينكِرُ المنكر!!..

* * *

الخـــاتمة

أ ـ كلمةٌ صريحةٌ:

ماذا يكسبُ الصليبيون من إصرارهم على السياسة الحاقدة التي انتهجوها ضدّنا، سياسة تمويت الإسلام ومخاصمة أهلِه؟.

إنَّهم لم يكسبوا لأنفسهم خيراً، ولا العالم استفادَ من هذه الخطّة الجائرة غيرَ البغضاء وتواصل الحروب!!.

لقد غبر عليهم أربعة عشرَ قرناً، وهم يفترون على الإسلام الكذبَ، ويضعون أمام دعاته السدود، ويُعمِلون في رقابِ أهله السيف إذا أسعفتهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف.

فماذا جنوا بعدَ هذا كله؟.

لا الإسلامُ ماتَ، ولا قرآنه بادَ، ولا أمّته هلكتْ.

حقاً.. إنَّ الهزائم في العصر الأخير خدشت كرامته، وحطَّت مكانتَه، لكن ذلك لم يلحق بالإسلام من غلبة النصرانية عليه، أو سبقها إياه، وإنما لحقَ الإسلامَ من تفريط بنيه في حقّه، وغرورهم بطولِ انتصاره، وسلامةِ مبادئه.

وهم مستأنفون سيرهم به لا محالة إذا تابوا من تقصيرهم، وثابوا إلى رشدهم.

إنَّ سياسةَ تمويتِ الإسلامِ سوفَ تفشلُ برغم ما حُشِدَ لإنجاحِها من وسائل عظيمة، ولن يكونَ حظّ الصليبية الجديدة أسعد من حظ زميلتها القديمة، وإن طال المدى.

ولو عَقَلَ الأوروبيون والأمريكيون لراجعوا أنفسهم، وتراجعوا عن مظالمهم، وانسحبوا ـ في هدوءٍ وأدبٍ ـ من بلادِنا التي يحتلُّونها الآن، ويغمرونها بأفكارهم الخاطئة، وسلوكهم الشائن.

إنهم ـ في إصرارهم على قتل الإسلام مع ما يريدون من سطوة الإلحاد في

الأرض ـ يقدِّمون للشيطان أعظمَ العون، ويمهّدون الطريق لاستيطانِ الفجور، واستكمالِ الباطل.

أيها الناس.. دعونا نؤمن بربِّنا وكتابِنا، ولكم دينكم ولنا ديننا.

لقد وصمتمونـا بأننا خصومُ المسـيح؛ ـ كذبتم ـ فما وقَّرَ المسيحَ أحدٌ مثل ما وقّرناه.

واللهُ يعلمُ ـ والدنيا تشهدُ ـ أنكم أعنتم اليهودَ علينا، وفرشتم جثثنا لنعالهم، وهدمتم دورنا لسُكّانهم، وشرَّدتمونا بالعراءِ لإيوائهم.. وهم.. اليهود.. الذين يقولون في عيسى وأُمّه ما تعلمون.

إن ضغائنكم علينا تعيي العقول.

ثم ماذا أيها الناس؟ زعمتم أنّكم تحاربون الشيوعية لأنّها كفرٌ بالله، فهلاَّ هادنتم الإسلام، أو تركتموه ينهضُ بواجبه في صون تراثه، وذياد الإلحاد عن حقيقته..؟.

إنكم لم تفعلوا شيئاً من ذلك.

إنكم أوهنتم قوى الإسلام، حتى تأكد لنا أنَّ انتشارَ الشيوعية في الأرضِ أحبُّ إليكم من بقاءِ الإسلام معافى، ومن بقاء أمته موفورة.

إنكم ـ للأسف ـ تكرهون الإسلام أكثر مما تكرهون الشيوعية، وتتمنون الخبال والذلّ لأمّته أكثر من أي شيءٍ آخر. فلِمَ ذلك؟.

في بلادنا الآن أمواجٌ متلاحقةٌ من تمرُّدِ الشباب، وخلاعةِ النساء، واطّراحِ الفرائض، ونبذِ الصلاةِ والزكاةِ، والجراءةِ على اللهِ وحدوده.

فمن أين أتت هذه المفاسد؟.

إنَّها من صنعكم أنتم.

من عواصمكم أقبلت، وعلى أيدي رجالكم امتدّت.

إنَّ الكفرَ بالله، والاستهانة بالوحي، جاءا من (لندن) و(باريس) و(هوليود) قبل أن يجيئا من (موسكو).

ونحنُ ـ ولله المنّة ـ أقدر منكم على مطاردة الإلحاد الأحمر والأصفر بما بقي لنا من مواريث، وما سلمَ لنا من عقائد.

٢ ـ وكلمةٌ أخرى إلى المؤمنين الأيقاظ، والمكافحين الأحرار:

إنَّ الصراعَ بيننا وبين الغرب لم يدخل بعدُ دورَه الحاسم، ذلك أنّه طُرِدَ من أقطارٍ شتّى، ولكنّ مخلّفاته ـ وهي أخطرُ منه ـ بقيتْ تؤدّي رسالتَها، وتكمل ما بدأ به، وأعجلته الأيام عن إتمامه.

فاحذروا مخلَّفات الاستعمار.

احذروا هذا الصنفَ من الناس، الذي احتلَّ الغربُ قلوبَهم وعقولَهم، ولم يخرج منها إلى الآن.

احذروا هذا الصنف الذي يكره دينَه، لأنَّ الغربَ بغَّضه إليه، ويجهل تعاليمه، لأنّ الغرب صرفه عنها.

ويثرثر بكلمات في الإصلاح، وفي القضايا العامة، لا وزن لها ولا قيمة، لأنّه ببَغاء، يحسن الترداد ولا يعقل شيئاً.

إنّه عبدٌ في صورة حُرٍّ، وذَنَبٌ في سَمْتِ سيد، وجاهلٌ في إهاب متعاقلٍ.

احذروا هذا الصنفَ، وإنكم لواجدوه في كلّ مكان، في المهندسين، والمحامين، والأطباء، والمدرسين، وفي الصحافيين، والمذيعين والموجّهين، بل كذلك في نفرٍ من علماء الدين!![1].

إنَّ التحرّر الحقيقي أن نغسلَ بلادنا من أدران الاستعمار بعد أن جلى عن كلِّ شبرٍ فيها، وأن نستأنف القيام برسالتنا العتيدة في العالم دون عوجٍ أو انحراف.

* * *

---

(١) وصدق رسول الله ﷺ القائل: «سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويخونُ فيها الأمينُ، وينطقُ فيها الرُّوَيْبِضةُ»، قيل: وما الرويبضة؟، قال: «الرجلُ التافهُ في أمرِ العامة». رواه أحمد والحاكم وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الفهرس

مقدمة الطبعة الخامسة ٥

مقدمة الطبعة الرابعة ٧

ـ التعاون بين الإسلام والمسيحية ١٧

ـ حكومات مسيحية لشعوب مسلمة ٣٩

ـ ذئاب الحبشة تنهش الإسلام ٥٦

ـ ليست الصليبية ولا الصهيونية ديانات ٧٤

ـ اتجاه الصليبية الحديثة ٨٢

ـ برنامج للارتداد ٩٣

ـ الإسلام طريد القانون الدولي ٩٧

ـ معنى انتشار الإسلام ١٠٥

ـ حول الخلافة الغاربة ١١٦

ـ تحقير الإسلام في بلادنا ١٢٦

ـ إضعاف الوازع الديني ١٣١

ـ بيوت العبادة ١٤٢

ـ الموظف النموذجي ١٥٥

ـ صحافيون شرفاء ١٦١

ـ حول إصلاح قوانين الأحوال الشخصية ١٧٧

ـ ضجّة مفتعلة ينكرها الدين والواقع ١٨٤

ثقافة مهجورة: ١٩٠
ـ تعليم دميم الوجه ١٩٠
ـ الجامع الأزهر ٢٠٣
في عالم الملذّات: ٢٢٥
ـ حبُّ الدنيا وكراهية الموت ٢٢٥
ـ الإذاعة والفن ٢٣٥
ـ جراثيم العفن الخُلُقي ٢٤٥
ـ ضبط النفس ٢٥٢
ـ ملوك وأمراء وشاهات الذهب ٢٥٩
ـ الكبت بين أدب التربية ومناهج الانحلال ١٦٣
الخاتمة ٢٧٢
الفهرس ٢٧٥

* * *



تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق

دَار البَشير ـ جَدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١